سلسلة
القصة
العالمية
٤

دون كازمورو

ماشادو ده أسيس

ترجمة

خليل كلفت

دار الياس العصرية



دون کازمورو

دار الياس العصرية للطباعة والنشر
١ شارع كنيسة الروم الكاثوليك بالظاهر – القاهرة
تليفون ٩٠٣٧٥٦

رقم الأيداع بدار الكتب : ٧٨٣٠ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ISBN : 977 5028 05 1

ماشادو ده أسّيس

دون كازمورّو

ترجمها عن الإنجليزية
خليل كلفت



١ - العنـوان

ذات ليلة منذ وقت غير بعيد ، وأنا عائد من المدينة إلى إنچنيو نوڤو* ، فى قطار برازيل سنترال ، التقيتُ مصادفة بشاب من هنا فى الحىّ كان بينى وبينه تعارف فى حدود انحناءة التحية. تكلّم وجلس إلى جانبى وتحدّث عن القمر والحكومة وانتهى بقراءة بعض الأشعار علىّ. كانت الرحلة قصيرة ، وربما كانت الأشعار غير رديئة تماما. مع ذلك -لأننى كنت متعبا- حدث أن أغمضتُ عينىّ ثلاث أو أربع مرات -كان ذلك كافيا لجعله يتوقف عن القراءة ويضع الأشعار فى جيبه.

« استمرّ" ، قلتُ ، وأنا أُوقظ نفسى ».

« انتهيتُ" ، غمغم الشاب ».

« أشعارك رائعة جدا" ».

رأيته يأتى بحركة لإخراجها من جيبه مرة أخرى ، لكنها لم تتجاوز مجرد حركة. كان متضايقا. فى اليوم التالى قال بعض الأشياء القاسية

---

* إنچينو نوڤو: « مصنع (السكر) الجديد »، ضاحية من ضواحى ريو دى چانيرو.

عنّى ومنحنى لقب دون كازمورّو. جيرانى ، الذين لا يحبون طبعى الصموت والشبيه بطبع ناسك ، تلقّفوا اللقب : فالتصق. أغضبنى هذا جدا. رويتُ القصة لأصدقائى فى المدينة ، وبه ينادون علىّ ويكتبون إلىّ ، مازحين : « دون كازمورّو ، سآتى لأتغدّى معك يوم الأحد ». « سأذهب إلى مكانى القديم فى پتروبوليس يا دون كازمورّو. فكّر فيما إذا كان بإمكانك أن تنتزع نفسك من ذلك الكهف فى إنچنيو نوڤو وتأتى لقضاء أسبوعين معى ». « عزيزى دون كازمورّو ، لا تتخيّل أنك ستتهرّب من حفلى المسرحى مساء غدٍ. يمكنك أن تبقى حتى صباح اليوم التالى فى المدينة. أعدك بمقصورة فى المسرح ، وشاى ، وسرير. الشىء الوحيد الذى لا أعدك به – فتاة ».

لا تبحث فى قواميسك ، إنهم لا يستخدمون كازمورّو هنا بالمعنى الذى تذكره القواميس لهذه الكلمة ، بل بالمعنى الذى يستخدمها به رجل الشارع : شخص متجهّم صموت منسحب إلى داخل نفسه. أما كلمة دون فكانت للتهكّم : لإضفاء مظهر أرستقراطى علىّ. كل هذا لأن النعاس يغلبنى ! حسنا ، لم أجد عنوانا أفضل لقصتى؛ وإذا لم يظهر عنوان أفضل فليبق هذا العنوان كما هو ! سيعرف شاعرى الذى التقيت به فى القطار أننى لا أحمل له ضغينة. وسيكون قادرا ، بقليل من الجهد ، مادام العنوان عنوانه ، على أن يقرّر أن هذا الكتاب كتابه. هناك كُتُب لا تدين بأكثر من ذلك لمؤلفيها ؛ بعضها وليس كثير منها.

٢ - الكتـــاب

والآن بعد أن شرحتُ العنوان ، سأنتقل إلى الكتاب. لكنْ دعونى أوّلاً أدقّق فى الدوافع التى وضعت قلما فى يدى.

وأنا أعيش وحدى ، مع خادم واحد. البيت الذى أقيم فيه ملكى. كنتُ بنيتُه بوجه خاص لإشباع رغبة شخصية جدا يخجلنى أن أطبعها على الورق –لكنْ لِنتوكّلْ على الله. ذات يوم ، منذ عدد من السنين ، قرّرتُ أن أبنى فى إنچنيو نوڤو نسخة طبق الأصل من البيت الذى تربّيتُ فيه فى شارع ماتاكاڤايّوس القديم. كان ينبغى أن يكون للبيت الجديد نفس المظهر والتصميم اللذين كانا للبيت الآخر ، الذى كان اختفى. فهم البنّاء والنقّاش توجيهاتى. إنه نفس المبنى المرتفع ؛ بثلاث نوافذ فى الواجهة ، وڤراندة فى الخلف ، ونفس الحجرات فوق وتحت. فى حجرة الجلوس ، زخرفة السقف والجدران متماثلة إلى حد كبير : أكاليل من الزهور الصغيرة جدا تستقرّ ، على مسافات ، فى مناقير طيور سمينة. فى أركان السقف الأربعة ، رموز الفصول ، وفى وسط الجدران رسوم بارزة لقيصر ، وأغسطس ، ونيرون ، وماسينيسًا ، وتحتهم أسماؤهم .... ولا يحضُرنى السبب فى اختيار هذه الشخصيات. عندما انتقلنا إلى بيت ماتاكاڤايّوس كان مزخرفا بها فعلا ؛ كانت تلك الرسوم من العقد السابق. ربما كان من ذوق ذلك الزمن إضافة سمة كلاسيكية وشخصيات قديمة إلى التصاوير الأمريكية. وباقى المكان فى نفس الجوّ. عندى عزبة صغيرة ، وحديقة خضروات ، وشجرة جازوارينا ، وبركة حول البئر ، وصخور للغسيل. وأنا أستعمل الصينى القديم والأثاث القديم. والآن ، كما كان فيما مضى ، هناك نفس الاختلاف الصارخ بين الحياة داخل البيت –وهى هادئة ، والحياة خارج البيت– وهى مليئة بالضوضاء وقلقة.

كان هدفي هو أن أوصِّل طرفيْ حياتي ببعضهما ، لأستعيد عهد المراهقة في سنّ الشيخوخة. حسنا ، ياسيدى ، لم أنجح فى استجماع ما كان ولا ما كنتُه. إذا كان الوجه هو نفس الوجه فالتعبير مختلف. لو كان الآخرون فقط هم المفقودين ، لكان الأمر أهون. الإنسان يتعزّى إلى هذا الحدّ أو ذاك فى أولئك الذين فقدهم ، لكننى أنا نفسى مفقود ، وهذا النقص جوهرى. مالدينا هنا يمكن تشبيهه بصبغة على الشعر أو اللحية : فهى تحافظ بالكاد على المظهر الخارجى ، كما يقولون فى تشريح الجثث ؛ أما البنية الداخلية فلن تتأثر بالصبغة. يمكن لشهادة تقرّر أننى فى العشرين من عمرى أن تخدع غريبا ، كأىّ وثيقة مزوّرة ، لكنها لن تخدعني. الأصدقاء الذين تركتهُم تاريخهم معي قريب ، أما الأصدقاء القدامى فقد ذهبوا جميعا ليدرسوا چيولوچيا التُّرْبة المقدسة. فيما يتعلق بصديقاتى من النساء ، يرجع بعضهن إلى خمس عشرة سنة مضت ، وأخريات إلى أقلّ ، وكلّهن تقريبا يعتقدن أنهن شابات. يمكن لاثنتين أو ثلاث منهن جعل الآخرين يعتقدون ذلك ، لكن اللغة التى يستخدمنها تجبر المرء فى كثير من الأحيان على البحث فى قاموس ، ومثل هذا التّعامُل مرهق حقا.

مع ذلك ، لا تعنى حياة مختلفة حياةً أسوأ ؛ إنه ليس نفس الشىء تماما. تلك الحياة القديمة تبدو الآن –من بعض النواحى– مجرّدةً من كثير من السحر الذى كنت أجده فيها ؛ لكنها فقدت أيضا الكثير من الشوك الذى كان يجعلها مؤلمة ، وأنا أحتفظ فى ذاكرتى ببعض الذكريات الحلوة والساحرة. والآن ، أخرج قليلا ؛ وأتحادث مع الناس نادرا. اللَّهْو نادر. الجانب الأكبر من وقتى أقضيه فى العمل فى الحديقة وفى القراءة. آكل جيدا ونومى ليس سيئا.

لكنْ ، لأن كلّ شىء يصيبنى بالملل ، فهذه الرتابة أيضاأضنتْنى

فى نهاية الأمر. رغبتُ فى التغيير. ماذا لو ألّفتُ كتابا ؟ القانون ، والفلسفة ، والسياسة ، اقترحتْ نفسها علىّ ؛ لكنها لم تجلب معها الهمّة اللازمة. عندئذ فكّرتُ فى وضع كتاب عن : **تاريخ الضواحى** ، تاريخ أقلّ جفافا من مذكرات الأب لويس جونسالفيس دوس سانتوس عن مدينتنا ؛ سيكون عملا متواضعا ، لكنه سيحتاج إلى وثائق وتواريخ كإجراءات تمهيدية - مهمة بطيئة طويلة. عندئذ فقط كلّمتْنى التماثيل النصفية المنقوشة على الجدران وقالت أنه مادامت هى أخفقتْ فى إرجاع الأيام الخوالى ، ينبغى علىّ أن أمسك بقلمى وأروى قصة تلك الأزمان. وربما استطاع فعل الحكْى أن يستدعى الوهم لى ، فتأتى الأطياف تخطو برفق ، كما فعلت مع الشاعر ، ليس شاعر القطار بل شاعر فاوست :

ها هى ذى ، هل جئت مرة أخرى أيتها الأطياف القلقة ؟

كنتُ بالغ السعادة بفكرة أن القلم لايزال يرتعش فى يدى. نعم يا نيرون ، وأغسطس ، وماسينيسّا ، وأنت أيّها القيصر العظيم ، أنتم يا من تحثّوننى على تأليف مذكّراتى ، أشكركم على نصيحتكم ، وسأضع على الورق الذكريات التى تأتى متزاحمة متدافعة. بهذه الطريقة سأعيش ماكنتُ عشتُه ، وسأقوّى يدى فى سبيل عملٍ أعظمَ غاية. فلنبدأ إذن نفخ الحياة فى الماضى بأصيل جدير بالذكر فى نوفمبر ، أصيل لم أنسه قطّ. كانت لىَ أوقات أخرى ، أفضل ، وأسوأ ، لكن ذلك الأصيل لمْ يتلاشَ أبدا من روحى - كما ستكتشف بالقراءة.

٣- الوشايــة

كنتُ على وشك الدخول فى حجرة الجلوس عندما سمعتُهم يذكرون اسمى واختبأتُ وراء الباب. كان ذلك فى بيت شارع ماتاكاڤايّوس ، والشهر نوڤمبر ، والسنة – السنة شيء تافه قديم ، لكننى لست بالشخص الذى يغيّر تواريخ حياته لمجرّد إرضاء أولئك الذين لا يحبّون القصص القديمة – كانت السنة ١٨٥٧ .

« دونا جلوريا ، هل عقدت العزم نهائيًا على إدخال عزيزنا بنتينيو فى المعهد الدينى ؟ لقد آن الأوان ، وحتى الآن ربما كانت هناك صعوبة ».

« أىّ صعوبة ؟ ».

« صعوبة كبيرة ».

كانت أمى تريد أن تعرف ما هى المشكلة. بعد لحظات من التردّد ، أتى چوزيه دياس ليرى ما إذا كان هناك أحد فى الصالة ؛ لم يشعر بوجودى وعاد وقال ، خافضا صوته ، أن الصعوبة قائمة فى البيت المجاور ، أسرة پادوا .

« أسرة پادوا ؟ »

« كنت أريد أن أقول هذا منذ وقت ، لكنْ لم تكن عندى الشجاعة. لايبدو لى أن من المناسب لعزيزنا بنتينيو أن يختبىء دائما فى الأركان مع ابنة ظهر السلحفاة العجوز. وهذه هى الصعوبة ، لأنه إذا حدث وانطلقا فى ممارسة الحب سيكون عليك أن تخوضى بنفسك صراعا لفصلهما عن بعضهما ».

« أوه ، لا ! الاختباء فى الأركان ؟ »

« هذه طريقة فى الكلام. يتهامسان سرًا ، دائما معاً. دائما تقريبا لا يغادر بنتينيو ذلك المكان. البنت بنت طائشة. أبوها يتظاهر بأنه لايرى ؛

وهو يودّ أن تمضى الأمور إلى أبعد حدّ بأسرع ما يكون ... أنا أفهم إشارتك ؛ أنت لا تعتقدين أن هناك أشخاصا ماكرين إلى هذا الحدّ ، أنت تظنّين أن كل شخص ذو طبيعة صريحة ، مفتوحة ... ».

« لكننى ، يا سنيور چوزيه دياس ، رأيت الصغيرين يلعبان ، لم أر مطلقا شيئا يجعل المرء يسىء الظنّ - عمرهما فقط - بنتينيو فى الخامسة عشرة بالكاد. كاپيتو كان عيد ميلادها الرابع عشر فى الأسبوع الماضى. إنهما طفلان. لاتنس أنهما تربّيا معاً ، من أيام الفيضان الكبير منذ عشر سنوات ، عندما فقدت أسرة پادُوا الكثير جدا ؛ ذلك ما أدّى إلى بداية صلتنا الحميمة. وهل علىّ أن أعتقد ... ؟ أخى كُوزمه ، ما رأيك ؟ »

ردّ الخال كوزمه صائحا « أوو ! » والذى كان يعنى ، مُترجَما إلى لغة مبتذلة : « چوزيه دياس وخياله ! الصغيران يسلّيان نفسهما ! وأنا أسلّى نفسى ! أين الطاولة ؟ »

« نعم ، أعتقد أنك مخطىء يا سنيور ».

« ربما. أرجو من الرب أن يكون الحق فى جانبك ؛ لكننى ، صدّقينى ، لم أتكلم إلاّ بعد الكثير من الملاحظة الدقيقة .. ».

« على أىّ حال ، الوقت يقترب » ، قاطعتْ أمّى ، « يجب أن أتدبّر إدخاله فى المعهد الدينى بأسرع ما يمكن ».

« حسنا ، إذا كنتِ لم تتخلّى بعد عن فكرة جعله قسّيسا ، هذا هو الشىء الرئيسى. بنتينيو مُلزم بأن يطيع رغبات أمّه. كما أن الكنيسة البرازيلية سيكون لها بالتالى مصير نبيل. لا ينبغى أبدا أن ننسى أن أسقفًا رئس الجمعية التأسيسية ، وأن الأب فيچو حكم الامبراطورية ... »

« حكم بكل حمقه ذاك ! » قاطع الخال كوزمه ، مفسحا المجال للأحقاد السياسية القديمة.

« معذرة يا دكتور ، أنا لا أدافع عن أحد ، أنا فقط أستشهد

بحالات. ما أريد قوله هو أن رجال الدين لا يزال لهم دور كبير فى البرازيل ».[١]

« ما تريده أن أغلبك « مَرْسْ » ؛ هات الطاولة. بالنسبة للولد ، إذا كان لابدّ له من أن يصبح قسّيسا ، فمن الأفضل له طبعا أن يبدأ تلاوة القدّاس وراء الأبواب. لكنْ انظرى يا أختى ، هل من الضرورى حقا جعله قسّيسا؟ »

« إنه نَذْر ؛ يجب الوفاء به »

« أنا أعرف أنكِ نذرتِ نَذْرا ... لكن نَذْرا كهذا ... لا أدرى ... أعتقد أنه ، عندما يفكّر المرء فيه ... ما رأيك ، يا ابنة العم چوستينا ؟ »

« أنا ؟ »

« الحقيقة أن كل شخص يعرف أفضل فيما يخصّه » ، واصل الخال كوزمه. « الرب وحده هو الذى يعرف ما هو الأفضل للجميع. مع ذلك ، هناك نَذْر قديم ، نُذِرَ منذ سنين طويلة مضت ... لكن ما هذا ، يا أختى جلوريا ؟ أنت تبكين ! أوه ، والآن ، هل هذا شىء نبكى من أجله ؟ »

تمخّطت أمى دون أن تُجيب. وأعتقد أن ابنة العم چوستينا نهضت وذهبت إليها. أعقب ذلك صمت عميق كنتُ أتحرّق خلاله شوقا إلى دخول الحجرة ؛ لكن قوة كبرى أخرى ، عاطفة أخرى ... لم أستطع أن أسمع ما كان يقوله الخال كوزمه. كانت ابنة العم چوستينا تقف أمام أمى : « ابنة العم جلوريا ! ابنة العم جلوريا ! » كان چوزيه دياس يأسف ويعتذر : « لو كنتُ أعرف ، ما كنتُ تكلّمت ، لكننى تكلّمت بسبب احترامى ، وتقديرى ، بسبب عاطفتى ، أنْ أقوم بواجب بغيض ، أبغض واجب .. ».

٤- أبغض واجب

كان چوزيه دياس يحبّ صيغ التفضيل العُليا. وكان ذلك وسيلة لإضفاء سمة الأهمية على أفكاره ؛ وعندما لم تكن عنده أفكار ، كان ذلك يساعده على إطالة عباراته. ذهب لإحضار الطاولة ، التى كانت فى جانب آخر من البيت. التصقتُ بالحائط ، وراقبتُه وهو يسير متجاوزا مكانى ببنطلونـه الأبيض المنشّى الذى كان مشدودا تحت الحذاء ، وچاكيته القطن ، والكاراڤاتة المصقولة. كان واحدا من آخر من يلبسون مثل هذه البنطلونات فى ريو دى چانيرو ، وربما فى العالم. كان يلبس بنطلونه قصيرا إلى حدّ أنه كان مشدودا جدا. كانت الكاراڤاتة الساتان الأسود ، بالزنبرك المصنوع من الصلب داخلها ، تشلّ حركة عنقه ؛ هكذا كانت الموضة. أما الچاكيت البسيط المصنوع من القطن المطبوع فكان يبدو عليه أشبه بسترة كاملة. كان نحيلا ، ممطوطا ، وكانت له صلعة صغيرة. كان يمشـى بخطوته البطيئة المعتادة – ليس البطء المتلكّىء لشخص كسلان ، بل كان بطئا محسوبا ، مدروسا : قياس منطقى تامّ ، المقدمة الكبرى قبل الصغرى ، المقدمة الصغرى قبل نتيجة القياس. **أبغض واجب !**

٥- التابـع

لم يكن يمشى دائما بتلك الخطوة البطيئة ، الثابتة. كان فى بعض الأحيان يفسح المجال لحركات مثيرة ، وكان فى كثير من الأحيان رشيقا ومرحا فى تحرّكاته ، طبيعيًا فى هذا الأسلوب تماما كما فى الآخر. وكان يضحك بصوت مرتفع ، عند الحاجة ، ضحكة ضخمـة جوفاء ، لكنْ

مُغْدِيَة : إلى حدّ يبدو معه أن الخدّيْن ، والأسنان ، والعينيْن ، والوجه بكامله ، والشخص بكامله ، والعالم بأكمله ، تضحك جميعا فيه. فى المواقف الخطيرة ، **الأكثر** خطورة - **الأخطر**.

كان تابعا لنا سنين عديدة. كان أبى لا يزال فى المزرعة القديمة فى إتاجوايْ ، وكنتُ مولودا منذ فترة قصيرة جدا . وذات يوم ظهر **هو** ، وقدّم نفسه بوصفه طبيب « هوميو باثيا »* ؛ وكان يحمل مرجعا موجزا وحقيبة أدوية. تصادف انتشار وباء من الحمّيات فى ذلك الحين ؛ عالج چوزيه دياس ملاحظ المزرعة وجاريه ، لكنه لم يكن ليقبل مكافأة. اقترح أبى أن يبقى الرجل معنا ، فى المزرعة ، بأجر صغير. رفض چوزيه دياس. قال أن واجبه أن يُعيد الصحة إلى أكواخ القش التى يعيش فيها الفقراء.

« مَنْ يمنعك من الذهاب إلى أىّ مكان ؟ اذهبْ إلى حيث تشاء ، لكنْ عشْ معنا ».

« سأعود فى غضون ثلاثة أشهر ».

عاد فى غضون أسبوعين. قبل بالمأكل والمسكن بدون أجور أخرى ، باستثناء ما كانوا يعطون له كهدايا . عندما انتُخب أبى نائبا وجاء إلى ريو دى چانيرو ومعه أسرته ، جاء هو أيضا ، واتّخذ حجرته فى الجزء الخلفى من العزبة. وذات مرة عندما أخذت الحمّى تتفشّى من جديد فى إتاجوايْ طلب منه أبى أن يذهب لرعاية عبيدنا. صمت چوزيه دياس ، وتنهّد ، وأخيرا اعترف بأنه ليس طبيبا . كان اتّخذ لقب دكتور ليساعد على انتشار نظريات المدرسة الجديدة ، وهو لم يفعل ذلك دون قدر كبير من الدراسة ؛ لكن ضميره لم يسمح له بعد ذلك بقبول مَرْضَى.

---

* هوميوباثيا: علاج المرض بجرعات صغيرة من عقار تُحدث الجرعات الكبيرة منه أعراض نفس المرض لدى السليم - المترجم

« لكنك شفيت الآخرين ».

« ربما كان ذلك ؛ لكنه سيكون أكثر إنصافا أن نُرجع الفضل إلى الأدوية الموصوفة فى الكتب. هى التى قامت بالعلاج ؛ نعم ، هى - بعون الرب. كنتُ مشعوذا ... لا تنْكر ذلك. ربما كانت دوافعى أسمى ما تكون ؛ الهوميوباثيا هى الحقيقة ؛ ولأخدم الحقيقة كذبتُ ؛ لكنْ آن الأوان لوضع الأمور فى نصابها ».

لم يُطْرَد ، كما طلب : لم يعد أبى قادرا على أن يمضى فى الحياة بدونه. كانت لديه موهبة أن يجعل نفسه موضع الترحيب ولاغنًى عنه ؛ كنّا نشعر بغيابه كما نشعر بغياب فرد من أفراد الأسرة. عندما مات أبى ، كان حزنـه هائـلا ، هذا ما قيل لى ، فأنا لا أتذكّر. كانت أمى ممتنّة للغاية ، ولم تكن تودّ أن تسمع عن مغادرته لحجرته التى فى العزبة. فى اليوم السابع ، بعد القدّاس ، ذهب ليستأذنها فى الرحيل.

« ابْق ، يا چوزيه دياس ».

« إذا كانت هذه رغبتكِ ، يا سنيورة ».

تلقّى ميراثا صغيرا فى الوصية ، ورقة مالية من الدرجة الأولى وأربع كلمات إطراء. نسخ كلمات الإطراء ، وعمل لها برواز ، وعلّقها فى حجرته ، فوق سريره. « هذه أفضل سندات مالية ممتازة » ، هكذا اعتاد أن يقول. مع الوقت ، اكتسب سلطة ما فى الأسرة ، كان يُصْغَى إليه على الأقلّ. لم يكن يستغلّ ذلك ؛ كان يعرف كيف يُبدى رأيه ثمّ ينزل عند رغبة الغير. باختصار ، كان صديقا ، لن أقول الصديق الأفضل ، لكن ليس كل شىء هو الأفضل فى هذا العالم. ولا تتخيّلْ أنه كان له روح شخص متملّق : كان انحناؤه وتذلّله محسوبيْن أكثر منهما طبيعيّيْن. وكانت ملابسه تبقى إلى الأبد. بخلاف أولئك الذين يمزّقون بدلة جديدة من أول مرة يلبسونها فيها ، كان يلبس البدلة القديمة منّظفة بالفرشاة ، خالية من

الكرمشة ، ملساء الترقيع ، مزرّرة ، بأناقة بائسة ومتواضعة. كان يقرأ ، بلا اهتمام ، لكنْ بما يكفي ليكون مسلّيا فى سهرة أو أثناء تناول أطباق الحلو ، أو ليفسّر إحدى الظواهر ، أو ليتكلّم عن تأثيرات الحرّ والبرد ، أو عن القطبين الشمالى والجنوبى أو عن روبسبيير. وكثيرا ما حكى عن رحلة كان قام بها إلى أوروبا ، واعترف بأنه لولانا نحن لكان عاد إلى هناك منذ وقت طويل ؛ كان له أصدقاء فى لشبونة ، لكن أسرتنا ، كما قال ، هى تحت الرب مباشرة ، كلّ شيء.

« تحت أم فوق ؟ » سأل الخال كوزمه ذات يوم.

« تحت » ، كرّر چوزيه دياس بخشوع.

سعدتْ أمى ، وكانت متدينة ، بأن ترى أنه وضع الرب فى المكان الصحيح. ابتسمتْ مستحسنة. شكرها چوزيه دياس بانحناءة من الرأس. اعتادت أمى أن تعطيه مبالغ صغيرة من النقود من وقت لوقت. وعهد إليه الخال كوزمه ، وكان محاميا ، بنَسْخ الأوراق القانونية.

٦- الخال كوزمه

أقام الخال كوزمه مع أمى منذ اللحظة التى صارت فيها أرملة. كان أصبح أرمل فى تلك الفترة ، شأنه فى ذلك شأن ابنة العم چوستينا : كان البيت بيت المترملّين الثلاثة.

فى كثير من الأحيان ، تُغيّر المصادفة نوايا الطبيعة. والخال كوزمه ، الذى نشأ على الوظائف الهادئة للرأسمالية ، لم يصبح غنيا فى دُور المحاكم : كوّن فقط مصدرا للرزق. كان لديه مكتب فى شارع ڤيولاس القديم ، بجوار دار المحكمة ، التى كانت فى سجن ألچوبى المهجور. كان متخصصا فى القانون الجنائى. وچوزيه دياس لم تفته أبدا مرافعات

الخال كوزمه أمام المحلّفين. كان هو الذى يساعده فى ارتداء وخلع روب المحاماة ، ويغرقه بكثير من كلمات الإطراء وهما يغادران قاعة المحكمة. فى البيت كان يصف المناقشات. لم يتمالك الخال كوزمه نفسه ، رغم كل محاولاته لأن يبدو متواضعا ، عن الابتسام قليلا.

كان رجلا سمينا ، ثقيلا ، ضيّق النَّفَس ، ناعس العينين. واحدة من أقدم ذكرياته كانت مراقبته وهو يمتطى ، كل صباح ، الفرس التى أعطتها له أمى والتى كانت تحمله إلى مكتبه. العبد الذى أحضرالدابة من الإسطبل كان يمسك اللجام بينما رفع هو قدمه ووضعها فى الرِّكاب ؛ أعقب ذلك دقيقة من الراحة أو التفكير. ثم قفز قفزةً ، الأولى ؛ هدّد جسمهُ بالصعود ، لكنه لم يفعل ؛ ثم قفزة ثانية ، بنتيجة مماثلة. وأخيرا بعد لحظات عديدة طويلة ، استجمع الخال كوزمه كلّ قواه ، البدنية والمعنوية ، وقفز قفزة أخيرة من الأرض وفى هذه المرّة هبط على السرج. وكان من النادر أن تمتنع الرّكوبة عن أن تُبيّن بحركة من حركاتها أنها تلقّتْ الجِرْمَ الهائل فى التوّ واللحظة. عدّل الخال كوزمه وضع جسده ، وانطلقت الدابة تعدو.

لمْ أنسَ أيضا ما فعله بى ذات يوم فى الأصيل. مع أننى مولود فى الريف (تركتُه عندما كنت فى الثانية) ورغم عادات ذلك الزمن ، لم أكن أعرف كيف أركب ، وكنتُ خائفا من حصان. أمسك بى الخال كوزمه ذات يوم وقذف بى منفرجَ الساقيْن على دابته. عندما رأيت نفسى عاليا فوق (كنتُ فى التاسعة) ، وحيدا ومهجورا ، بدأتُ أصرخ فى يأس :« ماما ! ماما! » جاءت لنجدتى ، شاحبةً ومرتجفةً ، معتقدةً أنهم يقتلوننى. أنزلتنى ، ولاطفتنى ، بينما سأل أخوها :

« أختى جلوريا ، ولد بهذا الحجم خائف من دابة لطيفة ؟ »

« هو غير متعوّد عليها ».

« من الأفضل أن يتعوّد عليها. حتّى إذا كان قسّيسا ، إذا كان قسّيسا ريفيا سيكون عليه أن يركب ظهر الحصان ؛ وهنا في المدينة ، مع أنه ليس قسّيسا بعد ، إذا أراد أن يظهر بمظهر مشرّف مثل بقية أمثاله من الشبـان ولم يعرف كيـف يركب ، سيلومك على ذلك ، يا أختى جلوريـا ».

« إذن سيكون عليه أن يلومني؛ أنا خائفة ».

« خائفة ! يا سلام ، خائفة ! »

الحقيقة أننى لم أتعلّم إلاّ بعد ذلك بكثير ، ليس حبًّا فى ذلك بل كنت خجلان من التسليم بأننى لا أعرف كيف أركب. « الآن سيهتمّ حقا بالبنات » ، قالوا ذلك عندما بدأتُ الدروس. لم يكن من الممكن قول نفس الشيئ عن الخال كوزمه. فى حالته ، كان ذلك عادة وضرورة. فهو لم يعد يميل إلى العلاقات الغرامية. يقولون أنه ، عندما كان شاباً ، كان شيطانا مع النساء ، إلى جانب كونه حزبيًا مندفعا. لكن السنين أخذت منه الجانب الأكبر من حماسه ، السياسى والجنسى على حدّ سواء ، ووضعتْ سمنتُه حدًا لبقية أفكاره ، العامة والخاصة. وكان فى ذلك الوقت يؤدّى واجبات عمله ليـس غير ، وبـدون حبّ. وفى ســاعــات فراغــه كـان يتفرّج على ما حوله ، أو يلعب الطاولة. ومن حين لآخر كان يُبدى ملاحظة ظريفة.

٧- دونا جلوريا

كانت أمى إنسانة طيبة. عندما مات زوجها - پدرو ده ألبوكيركه سنتياجو - كانت فى الحادية والثلاثين من عمرها وكان بإمكانها أن تعود إلى إتاجوايْ. آثرتْ أن تبقى إلى جوار الكنيسة التى دُفن فيها أبى. باعت المزرعة والعبيد ، اشترت آخرين كانت توجّرهم للغير أو تبعث بهم

إلى الشوارع ليكسبوا لها المال. اشترت دستة أو نحو ذلك من المبانى ، وعددا من السندات الحكومية ، وظلّت تعيش فى بيت ماتاكا ڤايّوس ، حيث عاشت السنتين الأخيرتين من حياتها الزوجية. كانت ابنة صاحبة مزرعة فى ميناس جيرايس ، وكانت بدورها سليلة صاحب مزرعة آخر من سان باولو ، من عائلة فرنانديس.

حسنا إذن ، فى تلك السنة الميلادية ، ١٨٥٧ ، كانت دونا ماريا دا جلوريا فرنانديس سانتياجو فى الثانية والأربعين من عمرها. كانت لا تزال حلوة وفى رقّة عذراء ، لكنها حجبت بعناد بقايا شبابها مهما حاولت الطبيعة أن تحفظها من فعل الزمن. كانت تعيش مكسوّة بثوب قاتم أبدىّ ، بدون زينة ، وكان شال مطوىّ على شكل مثلث مثبتا على الصدر بصدَفة ذات نقش بارز. كان شعرها مردودا إلى الوراء مباشرة على كلا الجانبين ومعقودا عند القفا بمشط قديم من صدف السلحفاة ؛ وكانت تلبس أحيانا كاباً أبيض مزخرفا. وبهذه الهيئة كانت تذهب وتجىء متثاقلة فى صمت بحذائها البسيط الكردفان القديم ، تراقب وتشرف على عمل البيت كله من الصباح إلى الليل.

لدىّ صورتها الزيتية هناك على الحائط ، إلى جانب صورة زوجها ، تماما كما كانتا فى البيت الآخر. الألوان أضحت قاتمة ، لكنها لاتزال تعطى فكرة عنهما كليهما. وأنا لاأتذكر أىّ شىء عنه ، إلاّ أننى أتذكّر على نحو مبهم أنه كان طويلا وكان يحتفظ بشعره طويلا ؛ وتُظهر الصورة الزيتية عينيْن مستديرتيْن تتبعاننى فى كل مكان – وَقْع اللوحة الذى أفزعنى عندما كنت صغيرا. وتبرز رقبته من كاراڤاتّة سوداء كثيرة الطيّات والثنيات ، والوجه حليق فيما عدا رقعة صغيرة عند الأذنيْن. وتُظهر الصورة الزيتية لأمى أنها كانت جميلة. كانت فى العشرين فى ذلك الوقت وكانت تمسك بزهرة بين أصابعها. ويبدو فى الصورة أنها تقدّم

الزهرة لزوجها. وما تقرأه فى وجه كل منهما هو أنه إذا كان من الممكن مقارنة السعادة الزوجية بالجائزة الكبرى فى يانصيب ، فقد كسباها بالورقة التى اشترياها معاً.

وأنا أستنتج أن مسابقات اليانصيب لا ينبغى إلغاؤها. لا أحد يحمل ورقة رابحة اتّهم هذه المسابقات إلى يومنا هذا بأنها لا أخلاقية ، تماما كما أنه لا أحد وجد ما يعيبه على علبة پاندورا* لأن الأمل بقى فى قعرها ؛ ولابدّ له من أن يبقى فى مكان ما. ها هما أمامى ، الاثنان ، يُزَفّان بسعادة فى الماضى البعيد ، العاشقان ، المحظوظان ، اللذان ذهبا من هذا العالم إلى العالم الآخر ليستمرا فى حلم ، على الأرجح. عندما تعبتُ من اليانصيب ومن پاندورا ، رفعت عينىّ إليهما ، ونسيتُ المحاولات التى لم أوفّق فيها ، والعلبة اللعينة. إنهما صورتان يمكن اعتبارهما أصليتيْن. تلك الخاصة بأمى ، الممسكة بزهرة فى اتجاه زوجها ، تبدو وكأنها تقول :« كُلّى لك ، يا فارسى المغوار ! » أما تلك الخاصة بأبى ، الذى يطلّ ناظرا إلينا ، فتُدلى بهذا التعليق : « انظروا كم تحبنى هذه الفتاة .. ». إذا كانا عانيا من أشياء مزعجة ، فأنا لا أعرف عنها شيئا ، تماما كما لا أعرف شيئا عن أحزانهما. كنتُ طفلا كما بدأتُ بعدم كونى مولودا. بعد موته ، أذكر أنها بكت بكاءً مرّاً. لكنْ هُا هما الصورتان الزيتيتان للاثنين ، ويد الزّمن الغادرة لم تطمس بعد التعبير الأول. إنهما أشبه بلقطتيْن من السعادة.

* علبة پاندورا : پاندورا، فى الميثولوچيا الإغريقية، المرأة الأولى التى خلقها هيفايستوس. أهداها زيوس علبة أو جرّة بها كافة الفضائل والشرور وأرسلها إلى الرجل الأول، إپيميثيه، الذى تزوجها. عندما فتحت پاندورا العلبة انطلقت منها كل الفضائل والشرور ولم يبق فى قعرها سوى الأمل. – المترجم.

٨- آن الأوان

لكنْ آن الأوان للعودة إلى ذلك الأصيل فى نوفمبر ، كان أصيلا ساطعا رطبا ، هادئا هدوء بيتنا وامتداد الطريق الذى كنا نعيش عليه. كان فى واقع الأمر بداية حياتى ؛ كل ما مضى قبل ذلك كان أشبه بوضع المكياج وارتداء الأزياء لأولئك الذين يوشكون على الظهور على خشبة المسرح ، أشبه بإضاءة الأنوار وضبط أوتار آلات الكمان ، أشبه بالافتتاحية... والآن كان علىّ أن أبدأ أوبرا حياتى. « الحياة أوبرا » ، هذا ما أعتاد أن يقوله لى مغنّى تينور إيطالى عجوز عاش ومات هنا ... وذات يوم شرح تعريفه بطريقة جعلتنى أؤمن به. وربما كان ذلك يستحق مشقة أن أحكيه : إنه لا يزيد عن فصل واحد.

٩- الأوبرا

كان لم يعد لديه صوت ، لكنه كان يصرّ على أن لديه. وكان يضيف: « مشكلتى عدم الممارسة ». كلّ مرة تصل فيها فرقة من أوروبا كان يذهب إلى مديرها ويعدّد كلّ مظالم السماء والأرض : كان من المعتاد أن يرتكب مدير الفرقة مظلمة جديدة ، وكان مغنّى التينور العجوز يبتعد متعجبا من عدم إنصافه. كان لايزال يحتفظ بشاربيه الكبيرين الخاصّين بأدواره. عندما يمشى كان يبدو ، رغم عمره ، وكأنه يتودّد إلى أميرة من بابل. أحيانا كان يردّد بصوت مرتعش ، دون فتح فمه ، شيئا من بقايا أغنية مفقودة أقدم منه ، أو فى عمره ؛ والأصوات المكتومة على ذلك النحو تملك دائما قُدرات. جاء إلى هنا ليتغدّى معى عدة مرات. ذات ليلة ، بعد شُرب مقدار كبير من الكيانتى ، ردّد تعريفه المعتاد ، وعندما قلت أن الحياة

لم تعد أوبرا بقدر ما هى رحلة فى البحر أو معركة ، هزّ رأسه وأجاب :

« الحياة أوبرا بل أوبرا درامية. التينور والباريتون يتقاتلان من أجل السوبرانو فى حضور الباسُّو والأصوات الثانوية ، عندما لا تكون السوبرانو والكونترالتو هما اللتان تتقاتلان من أجل التينور ، فى حضور نفس الباسُّو ونفس الأصوات الثانوية. هناك العديد من الجوقات والكثير من راقصى الباليه ، والتوزيع الأوركسترالى ممتاز .. ».

« لكن ، ياعزيزى ماركولينى .. ».

« لم لا ؟ »

ثم بعد أن شربنا النبيذ طويلا ، وضع الكأس ، وأفضى إلىّ بقصة خلق العالم ، بالكلمات التالية ، التى سأوجزها قليلا.

« الرب هو الشاعر. الموسيقى وضعها الشيطان : مايسترو شاب له مستقبل عظيم ، درس فى كونسيرڤاتوار السماء. لكونه ندًا لميكائيل ، ورافائيل ، وجبرائيل ، لم يتحمّل الأولوية التى حظى بها رفاق الدراسة أولئك فى توزيع الجوائز. ربما كان ذلك يرجع ، أيضا ، إلى أن موسيقاهم البالغة العذوبة والصوفية كانت مملّة لعبقريته ، التى كانت تراچيدية بصفة جوهرية. بدأ ثورةً ، اكتُشفت فى الوقت المناسب ، وفُصل من الكونسيرڤاتوار. كان من الممكن أن تنتهى المسألة برمتها عند ذلك ، لولا أن الرب ألّف نصًا لفظيًا (ليبرتّو) لأوبرا ، وطرحه جانبا ، لأنه اعتبر أن هذا النمط من التسلية لا يليق بذاته السرمديّة. حمل الشيطان المخطوطة معه إلى الجحيم. بقصد أن يُثبت أنه موسيقىّ أفضل من الآخرين – وربما ليتوصّل إلى تسوية مع السماء – ألّف مُدوّنة موسيقية. حالما انتهى منها ، أخذها إلى الربّ.

« ياربّ » ، قال له ، « لم أنس ما تعلّمتُه فى السماء هنا. خُذْ هذه المدوّنة الموسيقية ، ها هى ، مُرْ بأدائها ، فإنْ رأيتها تليق بذُراك

السماويـة ، إسمحْ لى ولها بأن نجثو عند قدميك ».

« لا » ، ردّ عليه الربّ بحدّة ، « لن أسمع شيئا ».

« لكنْ ، ياربّ ... »

« لا شيء ! لا شيء ! »

« مضى الشيطان يتضرّع إلى الرب دون حظّ أفضل ، إلى أن قبل الربّ ، ضجرا ومفعما بالشفقة ، أنْ تُؤدّى الأوبرا ، لكنْ خارج حَرَم السماء. صمّم مسرحا خاصّا ، هذا الكوكب؛ وخلق فرقة كاملة بكل الأدوار ، الرئيسية والثانوية ، والجوقات ، وراقصى الباليه.

« ها هى بعض البروڤات ! »

« لا ، ليس هناك ما أفعله بالبروڤات. يكفى أننى ألّفتُ النصّ اللفظى للأوبرا ؛ أنا مستعدّ تماما لأن أتقاسم معك حقوق التأليف مناصفةً ».

« ربما كان ذلك الرفض غلطة : نتجت عنه نشازات كان يمكن لاستماعٍ أن يستبينها ولتعاونٍ وُدّىّ أن يمنعها. والواقع أنه فى بعض المواضع تذهب الكلمات إلى اليمين والموسيقى إلى اليسار. وهناك من يقولون أن هذا هو سرّ جمال هذا العمل الأوبرالى وهو الذى يمنعه من أن يكون رتيبا ، وبهذه الطريقة يفسّرون الثلاثية الموسيقية لجنة عدن ، ولحن آبل ، وكورس المقصلة وكورس العبودية. وليس من النادر الإفراط فى استخدام نفس موقف الحبكة دون مبرّر كاف. بعض الموتيفات تغدو مملّة من فرط التكرار. وهناك مقاطع مبهمة ؛ ويبالغ المايسترو فى استغلال الترانيم الكورالية ، التى تطغى فى كثير من الأحيان على الكلمات بإيقاعها المشوّش. مع ذلك ، تُؤدّى الأدوار الأوركسترالية بمهارة فائقة. هذا على الأقل رأى غير المتحيز.

« أصدقاء المايسترو لابدّ أنهم يعتقدون أن من الصعب العثور على

مدوّنة موسيقية أفضل. فى بعض الأحيان سيقرّ أحدهم بأن هناك مواضع مرتجلة ، بعض الفجوات هنا وهناك ، لكنْ مع العرض المستمرّ للأوبرا لا شكّ فى أنها ستُملأ وتُصقل ، ما دام المايسترو لا يرفض أن يصحّح عمله حيثما وجده مغايرا للفكرة السامية للشاعر. أما أصدقاء هذا الأخير فلهم رأى مختلف. فهم يزعمون أن النصّ اللفظى للأوبرا ضُحِّى به ، وأن المدوّنة الموسيقية تُفسد معنى الكلمات ، وأنه رغم أنها كانت رائعة فى بعض المقاطع وتحتال بالمهارة فى أخرى ، فلا صلة لها بروح الدراما ، بل هى مناقضة له. فما هو سخيف ، على سبيل المثال ، غير موجود فى نصّ الشاعر: إنه يشكّل إضافة تُشوّهه تقليداً لـ « **زوجات وندسور المرحات** ». هذه النقطة يجادل فيها الشيطانيون بشىء من الحق. وهم يقولون أنه فى الزمن الذى ألّف فيه الشيطان الشابّ أوبراه الدرامية ؛ لا هذه المهزلة ولا شكسبير كان مولودين. وهم يذهبون إلى حدّ تأكيد أن الشاعر الإنجليزى لم يفعل أكثر من أنه نسخ الكتاب بمهارة ولباقة يبدو معهما أنه هو ذاته مؤلّف العمل ؛ لكنه ، فيما يبدو ، منتحل.

« هذه القطعة » ، هكذا أنهى المغنى التينور العجوز حديثه ، « ستبقى ما بقى المسرح – ولا نعرف متى سيتم تدميره كعمل من أعمال المتطلّبات الفلكية. ونجاح الإخراج متزايد. والشاعر والمؤلف الموسيقى يتلقيان حقوقهما المالية بانتظام دقيق ، لكنْ ليس بنفس العملة. وقانون التقسيم هو ذلك الوارد فى الكتاب المقدّس: « الكثرة مدعوُّون ، القلّة مختارون ». الربّ يُدْفَع له ذهباً ، والشيطان ورقاً ».

« ظريف جدا .. ».

« ظريف ؟ » صاح التينور. ثم أخذ يُهدِّىء نفسه: « عزيزى سنتياجو ، أنا لستُ ظريفا ؛ عندى رُعب من الظرف. ما أقول هو الحقيقة ، خالصةً ونهائيّةً. وذات يوم ، بعد أن تكون كافة الكتب قد أُحرقت باعتبارها عديمة الفائدة ، سيكون هناك شخص ما ، ربما تينور ، إيطالى

على الأرجح ، يعلّم هذه الحقيقة للناس. كل شىء موسيقى ، يا صديقى. فى البدء كان دو ، ودو صار رى ، إلخ. كأس النبيذ هذه (كان يملؤها مرة أخرى) ، كأس النبيذ هذه لازمة قصيرة. ألا تسمعها ؟ ولا أنت تسمع الخشب أو الحجر ، لكنها كلها جزء من نفس الأوبرا ... »

١٠ - أنا أقبل النظرية

التى هى ميتافيزيقا أكثر من كافية نوعا ما لتينور منفرد. لكن فقدانه لصوته يفسّر كل شىء ؛ هناك فلاسفة ليسوا ، فى نهاية المطاف ، سوى تينورات يعانون من البطالة.

وأنا ، صديقى القارئ ، أقبل نظرية عزيزى ماركولينى ، ليس فقط بسبب احتمال صحتها – وهذا عادة كل ما تبلغه حقيقة – بل أيضا لأن حياتى تتلاءم مع هذا التعريف. غنيّتُ برقّة: دويتّو ، ثم تريو ، ثم كواتور... لكنْ لا ينبغى أن نسبق تسلسل القصة ؛ ولنَعُدْ إلى ذلك الأصيل الأول الذى اكتشفتُ فيه أننى بدأت أغنّى بالفعل ، ذلك أنه عندما وشى بى چوزيه دياس ، أيها القارئ العزيز ، كانت الوشاية مقدّمة إلىّ أنا فى المقام الأول.

١١ - النّـــذْر

بمجرّد أن رأيت تابعنا يختفى فى الصالة ، تركت مكان اختبائى وجريْت إلى الڤراندة فى المؤخرة. لم أزعج نفسى بالدموع ولا بالسبب الذى جعل أمى تنذرفها. ربما كان السبب وراءها مشاريعها الكنسية وسبب هذه الأخيرة هو ما أوشك على روايته ، فالقصة كانت حتى فى ذلك

الوقت قصة قديمة ، وكانت تعود إلى ستّ عشرة سنة قبل ذلك.

تشكلّت هذه المشاريع فى الفترة التى كانت فيها أمى حاملا بى. لأن طفلها الأول وُلد ميتا ، عقدتْ أمى اتفاقا مع الربّ بأن يعيش الثانى: نذرتْ أمى بأنه إذا كان المولود ذكرا ، سيدخل الكنيسة. ربّما كانت تتمنّى بنتا. لم تَقُلْ شيئا لأبى قبل أو بعد أن تأتى بى إلى العالم: عملت حسابها على أن تفعل ذلك عندما أدخل المدرسة ، لكنها صارت أرملة قبل ذلك. عندما صارت أرملة ، كانت تحسّ بالرهبة من يوم فراقها لى ؛ لكنها كانت ورعة ، وتقيّة ، إلى حدّ أنها سعت إلى أن تحصل على شهود على تعهّدها بالبوح بنذرها لأقاربها وأفراد أسرتها. فقط ، حتى يكون فراقنا متأخرا قدر الإمكان ، جعلتنى أتعلّم فى البيت ، دروسى الأولى ، ثم اللاتينية والدين ، على يد الأب كابرال ، الذى كان صديقا قديما للخال كوزمه ، والذى اعتاد أن يأتى إلى بيتنا مساءً ليلعب الطاولة.

الاتفاقات الطويلة الأجل يمكن التوقيع عليها بسهولة: الخيال يجعلها لا نهائية. كانت أمى تنتظر كرّ السنين. فى الوقت ذاته أخذتُ أنا أعتاد على فكرة الكنيسة: لُعب الأطفال ، كُتُب العبادة ، صُور القديسين ، الأحاديث فى البيت ، كل الأشياء تلاقت على المذبح. عندما كنّا نذهب إلى القدّاس ، كان تقول لى دائما أننا نذهب لأتعلّم أن أكون قسّيسا ، وأننى لابد أن ألاحظ الأب بدقّة ، وأننى لا ينبغى أن أرفع عينىّ عن الأب. فى البيت ، كنت ألعب القدّاس – خِلْسة إلى حدّ ما ، لأن أمى قالت أن القدّاس ليس موضوعا للّعب. كنا نقوم بإعداد مذبح ، كابيتو وأنا. كانت تقوم بدور قَيِّم الكنيسة وكنّا نغيّر الطقوس بمعنى أننا كنّا نقسّم القربان فيما بيننا ، وكان القربان دائما نوعا من أنواع الحلوى. خلال الفترة التى اعتدنا فيها أن نلعب هذه اللعبة ، كان من المألوف جدا أن أسمع جارتى الصغيرة تسأل: « القدّاس اليوم ؟ » كنت أدرك ما يعنيه ذلك ، وأجيب بالإيجاب ،

وأذهب لطلب القربان تحت اسم آخر. كنت أعود به ، ونعدّ المذبح ، ونغمغم باللاتينية ، ونسارع إلى تلاوة الشعائر. *Domine, non sum dignus .. وكان من المفترض أن أقول ذلك ثلاث مرات لكننى أعتقد أننى كنت لا أقوله فى الواقع سوى مرة واحدة ، إلى هذا الحدّ كانت شراهة الأب وقيِّم كنيسته. لم نكن نشرب لا النبيذ ولا الماء: لم نكن نملك الأول وكان من شأن الثانى أن يُزيل مذاق القربان.

بعد فترة لم يعودوا يتكلمون عن المعهد الدينى ، إلى درجة افترضتُ معها أن الموضوع نُسى. إذا لم يحسّ صبىّ بالنداء ، فى الخامسة عشرة من عمره ، فهو يطلب بالأحرى معهد الدنيا أكثر من معهد القديس جوزيف. أحيانا كانت أمى تحملق فىّ مثل روح ضائعة أو تمسك بيدى دون مبرّر على الإطلاق وتعتصرها بقوّة.

١٢ - على القراندة

توقفتُ على القراندة. كنتُ دائخا ، مذهولا ، وكانت ركبتاى ترتجفان. بدا وكأن قلبى يحاول أن يقفز عبْر فمى. لم أستطع أن أهبط إلى الفناء وأعبره إلى الفناء المجاور. بدأت أجىء وأروح ، متوقفا فجأة من حين لآخر لأهدّىء نفسى ، ثم أمشى مرة أخرى ، ومرة أخرى أقف من جديد. أصوات متداخلة ردّدت كلمات جوزيه دياس:

« دائما معاً ...»

« يتهامسان سراً ... »

« إذا انطلقا فى ممارسة الحب .. ».

يا قوالب القرميد التى مشيتُ عليها ثم مشيتُ عليها من جديد فى ذلك الأصيل ، أيتها الأعمدة المصفرّة التى مرّت بى إلى اليمين وإلى

*يا إلاهى أنا غير خليقاً بك (باللاتينية فى الأصل) – المترجم

اليسار ، حسب ما إذا كنت أجيء أم أروح - أنتِ التى شاركتنى أزمتى ، الإحساس ببهجة جديدة طوّتنى داخل نفسى ، ثم جعلتنى انتشى ، وبعثرتنى إلى ألف قطعة ، وجعلتنى أرتجف ، وسكبت فى كيانى بلسما داخليا غريبا. من حين لآخر ، وجدت نفسى أبتسم ،ابتسامة ما عريضة راضية ، تناقضتْ مع شناعة خطيئتى. ومن جديد سُمعتْ الأصوات ، مختلطة:

« يتهامسان سراً ... »

« دائما معاً ... »

« إذا انطلقا فى ممارسة الحبّ ... »

شجرة جوز هند ، كانت رأتنى ساعتها قلقا وخمّنتْ السبب ، غمغمتْ من قمة تاجها بأنه ليس من غير اللائق لصبِيّة فى الخامسة عشرة من أعمارهم أن يختبئوا فى الأركان مع بنات فى الرابعة عشرة ؛ على العكس ، المراهقون فى ذلك العمر ليس لهم شاغل آخر ، لا ولا الأركان لها فائدة أخرى. كانت شجرة جوز هند عجوزا ، ومن ناحيتى فأنا مؤمن بأشجار جوز الهند العجوزة ، حتى أكثر من الكتب القديمة. الطيور ، الفراشات ، وجُنْدب كان يعزف موسيقاه الصيفية ، كل كائنات الهواء الحية كانت من نفس الرأى.

إذن أنا واقع فى حب كابيتو ، وكابيتو فى حبى ؟ صحيح أننى كنت ملتصقا بها بشدّة ، لكنْ لم يكن بإمكانى أن أفكر فى أن بيننا أىّ شىء سرّىّ حقا. قبل أن تذهب إلى المدرسة كان كل ما هناك معابثات وشقاوة صبيانية. بعد أن تركتْ المدرسة ، لم نستعدْ الألفة القديمة فى الحال ، ربما ، لكنها عادت شيئا فشيئا ، وفى السنة الأخيرة ، كاملةً. لكن موضوع أحاديثنا ظلّ كما كان دائما. أحيانا كانت كابيتو تصفنى بأننى وسيم ، ولدها الطويل الضخم الجميل ، وبأننى حبيب ؛ فى أحيان أخرى

كانت تمسك بيدىّ وتعدّ أصابعى. بدأتُ أتذكر كل هذه البوادر ، وبوادر أخرى ، وأشياء قالتها ، واللذة التى أحسستُ بها عندما مرّت بيدها على شعرى وقالت أنها تعتقد أنه جميل. رغم أننى لم أفعل نفس الشىء بشعرها ، قلت لها أنه أجمل بكثير من شعرى. عندئذ كانت كاپيتو تهزّ رأسها بنظرة مليئة بالإفاقة من الوهم وبالانقباض ، والمدهش حقاً فى ذلك أنه كان لها شعر يثير الإعجاب حقا ؛ لكننى رددت بحدة فوصفتُها بأنها مجنونة. عندما سألتنى ما إذا كنتُ حلمتُ بها فى الليلة السابقة ، وقلت لها « لا » ، أخبرتنى كيف أنها حلمت بى ، مغامرات رائعة ، كيف صعدنا إلى قمة كوركوڤادو عبْر الجو ، ورقصنا فوق القمر ، ثم جاء الملائكة ليسألوا عن أسمائنا ليسمّوا بها ملائكة آخرين وُلدوا منذ قليل. فى كل هذه الأحلام مضينا يداً فى يد. أحلامى التى حلمتها بها لم تكن أبدا كهذا الحلم: كانت مجرّد نُسَخ طبق الأصل من حياتنا المألوفة معاً ، وفى مرات عديدة لم تتجاوز مجرّد تكرار لليوم السابق ، لعبارة ما ، لبادرة ما. رويتُها لها على أىّ حال. علّقتْ كاپيتو ، ذات يوم ، على الاختلاف: قالت أن أحلامها أجمل. بعد شىء من التردُّد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى حلمَتْ بها ... استحال لونها إلى لون البيتانْجا*.

الآن فقط فهمتُ العاطفة التى أثارتها فى نفسى هذه وغيرها من الأسرار المتبادلة. كانت العاطفة حلوة وجديدة ، لكن السبب فاتنى ولم أبحث عنه ، أو حتى لم أتوقّع وجوده. ولم يكن صمت الأيام القليلة الأخيرة يعنى شيئا بالنسبة لى. الآن أحسست أنه يعنى شيئا ، وينطبق الشىء ذاته على أنصاف الكلمات ، الأسئلة المدقّقة ، الإجابات الغامضة ، القلق ، الابتهاج بتذكّر واستعادة طفولتنا . كنت أدرك أيضـا أنهـا كانت ظاهـرة

---

* البيتانجا : شجرة برازيلية (وثمرتها) تشبه الكرز، لونها أحمر أرجوانى – المترجم.

جديدة جدا أن استيقظ مع أفكارى عن كاپيتو ، وأن أسمع صوتها من الذاكرة ، وأرتجف عند سماع خطوها. وإذا تكلموا عنها فى بيتنا بدأت أهتم أكثر من ذى قبل ، وحسبما يكون مدحاً أو نقداً كنت أحسّ بسرور أو استياء أشدّ من ذى قبل ، عندما كنا مجرد رفيقيْن فى شقاوة الصغار. بل بدأت أفكر فيها أثناء القداس فى ذلك الشهر ، بصورة متقطعة فى الحقيقة ، ومع ذلك باستبعاد أشياء أخرى أيضا.

كلّ هذا أُهدِى إلىّ الآن بواسطة فم چوزيه دياس ، الذى وَشَى بى إلىّ. غفرتُ له كل شىء – الشرّ الذى قاله ، والشرّ الذى فعله ، وكل ما قد يترتّب على هذا أو ذاك. فى تلك اللحظة الواحدة ، لم تكن الحقيقة الأزلية أعلى شأنا منه ، لا ولا الكائن الأزلى ، ولا كلّ بقية القوى الأزلية. أحببتُ كاپيتو ! أحبّتنى كاپيتو ! وأخذتْ رِجْلاىَ تجيئان وتروحان ، وقفتا ، ترتجفان ، متلهّفتيْن على أن تنفرجا لتمتطيا العالم. هذا الاختلاج الأول للسائل ، هذا الاكتشاف من جانب الوعى لنفسه – لم أنس ذلك أبدا. لم أعرف أبدا أىّ إحساس مشابه لأقارنه به. ربما لأنه كان يخصّنى ؛ لأنه كان الأول.

١٣ - كاپيتو

فجأة سمعتُ صوتا يصرخ من داخل البيت المجاور:

« كاپيتو ! »

وفى الحديقة:

« ماما ! »

ومرة أخرى من البيت:

« تعالى ! »

لم أستطع أن أمسك نفسى. حملتنى رِجْلاىَ ثلاث سلّمات إلى أسفل أدّتْ بى إلى الفناء ، وجعلتنى أمام فناء البيت المجاور مباشرة. كانت هذه عادتهما فى الأصيل ، وفى الصباح أيضا. ذلك أن الأرجُل أشخـاص أيضـا ، لا تكـادّ تقلّ عن الأذرع ، وهى تراقب نفسهـا عندما لا يرشدها الرأس بأفكاره. وصلتْ رِجْلاىَ إلى أسفل الجدار. هناك بوّابة موصلّة فى فتحة كانت أمى جعلتهم يفتحونها عندما كنّا كاپيتو وأنا صغيرين. لم يكن للبوّابة مفتاح ولا كالون: كانت تُفتح بالدفع من ناحية وبالجذب من الأخرى ، وكانت تُقفل بثقل حَجَر معلّق على حبل. كانت تخصّنا بصورة كاملة تقريبا. وعندما كنّا طفلين كنّا نقوم بزيارات رسمية بالطَّرْق على جانب وبأن يتم استقبالنا على الآخر بانحناءات كثيرة. عندما كانت دمُى كاپيتو تسقط مريضة ، كنتُ أنا طبيبها. كنت أدخل فناءها بعصاً تحت ذراعى لمحاكاة العصا التى كان يحملها الدكتور چوان داكوستا. كنت أقيس نبض المريضة وأطلب منها أن تخرج لسانها. « إنها صمّاء ، الطفلة المسكينـة ! » ، كانت كاپيتو تقول. عندئذ كنت أهرش ذقنى ، مثل الدكتور ، وأنتهى بوصف دُود العلَق أو دواء مقىّء: كان هذان هما العلاج المألوف لدى الدكتور.

« كاپيتو ! »

« ماما ! »

« توقّفى عن حَفْر الحُفَر فى الحائط ! تعالى ».

كان صوت أمها الآن قريبا ، وكأنه يأتى من الباب الخلفى. أردتُ أن أدخل الفناء ، لكن رِجْلىّ ، اللتين كانتا نشيطتين جدا منذ قليل ، تسمّرتا فى الأرض. بذلتُ جهدا ، دفعتُ البوابة ودخلتُ. كانت كاپيتو قُرْب الحائط على الجانب الآخر ، مستديرة إليه ، تنقش فيه بمسمار. ضوضاء البوابة جعلتْها تنظر حولها. عندما رأتنى ، أسندت ظهرها إلى الحائط ،

كأنما لتُخفى شيئا ما. مشيت نحوها. ربما بدا على وجهى تعبير جديد ، لأنها جاءت إلىّ وسألتنى بقلق:

« ماذا جرى لك ؟ »

« لى ؟ لا شىء ».

« لا ، لا ، هناك شىء ».

أردتُ أن ألحّ على أنه لا شىء هناك ، لكننى لم أستطع أن أحرّك لسانى. كنتُ كلّى آذانا وقلبا ، قلبا كان هذه المرة بالتأكيد سيقفز عبْر فمى. لم أستطع أن أرفع عينىّ عن تلك المخلوقة - فى الرابعة عشرة ، طويلة ، ناضرة ، يحتويها فستان بفتة كان نصف باهت. استرسل شعرها الثقيل وراء ظهرها فى ضفيرتين رُبط طرفاهما معا ، حسب موضة تلك الفترة. كانت سمراء ، ذات عينيْن صافيتين واسعتين ، وأنف طويل مستقيم ، وفم دقيق ، وذقن مستدير. كانت يداها ، رغم الأعمال غير اللائقة ، مُعْتَنًى بهما جيدا: لم تكونا تفوحان برائحة أنواع الصابون واللوسيونات الفاخرة ، لكنهما - مغسولتيْن بماء الآبار والصابون العادى - كانتا خاليتيْن من كل عيب. كانت تلبس حذاء من القماش ، رخيصا وقديما ، وكانت خاطتْه بنفسها بغُرز قليلة.

« ماذا جرى لك ؟ » ، كرّرَتْ.

« لا شىء » ، قلتُ أخيرا متلعثما.

وأضفتُ: « إنه خبر ».

« خبر عن ماذا ؟ »

فكرتُ فى أن أقول لها أننى سأدخل المعهد الدينى وألاحظ الانطباع الذى يتركه هذا عليها. إذا أطرقت أسفا ، سيكون هذا لأنها أحبتنى حقا ؛ وإلاّ فسيعنى هذا أنها لم تحبّنى. لكن كل هذا الحساب كان غامضا وسريعا. أحسست أننى لا أستطيع

الكـلام بوضـوح ؛ عينـاى إلى حـدّ مـــا ...

« حسنـا ؟ »

« أنت تعرفين .. ».

عندئذ نظرتُ إلى الحائط ، إلى المكان الذى كانت تنقشه بالمسمار ، تكتب أو تحفر حُفَراً فيه ، كما وصفتْ أمها. رأيتُ بعض الخطوط العريضة ، وتذكّرتُ الحركة التى أتت بها لتُغطّيها. قرّرْتُ أن أنظر عن قرب أكثر ، خطوتُ خطوة. أمسكت بى كاپيتو ، لكنها ، إما لأنها خشيت أن أنصرف ، أو لتمنعنى بطريقة أخرى ، جرت إلى الأمام وبدأت تمحو الكتابة. كان ذلك أشبه بصبِّ زيت على نار رغبتى فى قراءة ماكان مكتوبا هناك.

١٤ - النقش

كلُّ ما رويتُه فى نهاية الفصل السابق كان من فعْل لحظة واحدة. ما تلا ذلك كان أسرع مع ذلك. قفزتُ إلى الأمام ، وقبل أن تتمكّن من كشط الحائط ، قرأتُ اسميْنا ، محفوريْن بمسمار ومُرَتّبَيْن هكذا:

بنتو

كاپيتولينا

استدرتْ إليها ، خفضتْ كاپيتو عينيها إلى الأرض. رفعتْهما ، ببطء ، ووقفنا يحملق كلّ منا فى الآخر ... اعتراف الأطفال ، أنتَ تستحقّ دون شك صفحتين أو ثلاث صفحات ، لكننى ينبغى أن أندفع مسرعا. الحقيقة أننا لم نقل شيئا: الحائط تكلّم نيابةً عنا. لم نتحرّك. أيدينا هى التى أخذت تمتدّ ، قليلا قليلا ، الأيدى الأربع كلها ، أمسكت ببعضها ، أحكمت قبضتها ، ذابت كلّ واحدة فى الأخرى. لم أسجّل

الساعة الدقيقة لتلك البادرة. كان ينبغى أن أفعل. أشعر بالحاجة إلى مذكرة مكتوبة فى نفس تلك الليلة ، وربما كنت أوردتُها هنا بأخطائها الإملائية. لكنْ لم يكن لمثل هذه المذكرة أن تُكتب. كان ذلك هو الفارق بين الباحث والمراهق. كنتُ أعرف قواعد الكتابة ، دون أن أرتاب فى قواعد الحبّ ؛ كانت لدىّ طقوس العربدة الأمريكية اللاتينية ، وكنتُ بريئا فيما يتعلق بالنساء.

لم نسحب أيدينا ، لا ولا هى سقطتْ ، مُتعبة وناسية. التقتْ عيوننا ، ثم نظرتْ بعيدا ، وبعد أن جالت حولنا عادت لتَغْرِق كلٌّ عين فى أعماق الأخرى. هكذا وقفتُ أمامها ، أنا قسيس المستقبل ، وكأنى أقف أمام مذبح ، وكان جانب من وجهها الرسالة والآخر البشارة. فمها كأس القربان المقدّس وشفتاها طبق القربان المقدّس. لم يكن باقيا سوى أن نتلو القدّاس الجديد ، بلغة لاتينية لا يتعلّمها أحد ، إنها اللغة الكونية للبشر. لا تعتبرنى مدنسًا للمقدّسات ، قارئى الورع ؛ سوف تمحو طهارة النية كلّ ما قد يكون غير قابل إلى حدّ ما للعلاج فى أسلوبى. وقفنا هناك بداخلنا منتهى السعادة. أيدينا وحّدت أعصابنا ، وخلقتْ من المخلوقيْن واحدا – ومن ذلك-الواحد ساروفيم. استمرت عيوننا تقول أشياء بلا نهاية ، إلاّ أنّ الكلمات فى فمينا لم تحاول أن تتجاوز شفاهنا ؛ عادت إلى القلب ، صامتة كما جاءت ... .

١٥ - صوت آخر مفاجىء

صوت آخر مفاجىء ، لكنه هذه المرة صوت رجل:

« هل تلعبان < الحكمة > ؟ »

كان والد كاپيتو: كان عند الباب الخلفى ، إلى جانب زوجته. أنزلنا

أيدينا بسرعة ووقفنا مذهولَيْن. ذهبت كاپيتو إلى الحائط وبمسمار ، وبمظهر لا مبالٍ ، أزالت اسمَيْنا.

« كاپيتو ! »

« بابا ! »

« كُفِّى عن تدمير الجبس الذى على حائطى ».

كشطتْ كاپيتو فوق الكشط لتمحو الكتابة تماما. أتى پادْوا إلى الفناء ليرى ما كان يجرى ، لكن بنته كانت بدأت فى تلك اللحظة شيئا آخر ، بدأتْ فى رسم بروفيل قالت أنه صورة له ؛ وكان من الممكن أن يكون بنفس السهولة له أو لأمها. جعله يضحك ؛ كان ذلك كلّ ما هو مطلوب. بالإضافة إلى ذلك ، أتى إلينا بلا غضب ، كلُّه رقّة ، رغم الوضع الملتبس ، أو الأقلّ من الملتبس ، الذى فاجأنا فيه. كان رجلا مكتنزا ، قصيرا ، قصير الرجلَيْن والذراعَيْن ، محدودب الكتفَيْن ؛ ومن هنا اللقب **السلحفاة** الذى كان چوزيه دياس منحه إيّاه ، لا أحد غيره فى بيتنا كان يصفه بذلك ، فقط تابعنا.

« هل كنتُما تلعبان < الحكمة > ؟ » ، سأل.

نظرتُ إلى بُرعم شجرة بَيْلَسان إلى جانبى. أجابت كاپيتو بالنيابة عنّا كلَيْنا.

« نعم ، يا سنيور ؛ لكن بنتينيو يضحك على الفور ، لا يمكنه الامتناع عن الضحك ».

« لم يكن يضحك عندما رأيتُه ».

« ضحك فى المرّات الأخرى ؛ لا يمكنه الامتناع. هل تودّ أن ترى ، يا بابا ؟ »

ثم بمظهر جادّ ، أدارت تحديقها إلىّ ودَعَتْنى إلى اللعبة. والخوف جادّ بطبيعة الحال ؛ كنتُ لا أزال تحت التأثير الذى أحدثه وصول پادْوا.

لم أستطع أن أضحك ، ولايهم كم كان عليّ أن أفعل ، لأجعل إجابة كابيتو صحيحة. تعبتْ كابيتو من الانتظار ، أدارت وجهها بعيدا ، وقالت أننى لم أضحك هذه المرّة لأن أباها كان موجودا. حتّى حينئذ لم أضحك. هناك أشياء يتعلّمها المرء متأخرا. كان ينبغى أن يُولد المرء بها ليفعلها مبكّرا. والمبكر أفضل دون شك من المتأخّر بصورة مفتعلة. بعد أن دارت دورتيْن ، ذهبت كابيتو لتتحدّث إلى أمها ، التى كانت لا تزال عند الباب ، وتركتْنا ، أباها وأنا ، مسحوريْن بها. قال أبوها ، ناظرا وراءها ثم عائدا ينظر ناحيتى ، بصوت ملىء بالرقّة:

« من يظنّ أن هذه البنت الصغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها ؟ تبدو فى السابعة عشرة. أمك بخير ؟ » استمرّ ، معطيا إياى كلّ انتباهه.

« نعم ».

« لم أرها منذ عدّة أيام. كنت أودّ أن أغلب الدكتور « مَرْسْ » ، لكننى لم أتمكّن – بكل العمل الذى آتى به إلى البيت معى من المكتب. كنت أظلّ أكتب كلّ ليلة. إنه كافٍ لدفع شخص إلى اليأس – موضوع يستحق تقريرا. هل رأيت طائرى الجاتورامو ؟ إنه هناك بالداخل. كنتُ فى طريقى لآتى بالقفص. تعال لترى ».

ربما كان من السهل تصديق أن رغبتى كانت صفرا ، دون أن أكون مُطالَبا بأن أحلف بالسماء والأرض. كانت رغبتى هى أن أذهب وراء كابيتو وأخبرها الآن بالمشكلة التى تتربّص بنا ؛ لكن أباها كان أباها ، ومازاد الطين بلة أنه كان يحبّ الطيور بوجه خاصّ. كان يقتنيها من مختلف الأنواع ، والألوان ، والأحجام. كان الفناء الذى فى وسط البيت مُحاطا بأقفاص عصافير الكنارى التى كانت تحدث ضجّة صاخبة بغنائها. كان يُقايض الطيور مع هواة آخرين ، ويشتريها ، ويصطاد

بعضها فى فناء بيته هو بنصب الفخاخ. وعندما تُصاب بمرض كان يعتنى بها وكأنها بشر.

١٦- المدير المؤقت

كان پادْوا موظفا فى إحدى مصالح وزارة الحربية. لم يكن يكسب الكثير لكن زوجته كانت تنفق القليل ، وكانت المعيشة رخيصة. إلى جانب ذلك ، كان البيت الذى يعيش فيه ، وكان من دَوْرين مثل بيتنا (وإنْ كان أصغر) ، ملكا له. اشتراه بالجائزة الكبرى التى كسبها بنصف ورقة فى يانصيب ، عشرة كونتُوات * كاملة. كانت فكرة پادْوا الأولى ، عندما كسب الجائزة ، أن يشترى جوادا أصيلا ، وعقداً من الماس لزوجته ، وقطعة من الأرض لمدفن أبدى للأسرة ، وأن يطلب بعض الطيور من أوروبا ، الخ. لكن زوجته ، دونا فورتوناتا تلك التى كانت هناك عند الباب الخلفى تتحادث مع ابنتها – طويلة وناضرة مثل الابنة ، نفس الرأس ، نفس العينين الصافيتين– كانت زوجته هى التى قالت له أن أفضل شىء هو أن يشتروا البيت وأن يدّخروا ما يتبقّى ليوم أسود. تردّد پادْوا وقتا طويلا ؛ فى النهاية كان عليه أن يستسلم لإلحاح أمى ، التى كانت دونا فورتوناتا لجأت إليها طالبة العون. لم تكن تلك المرة الأولى التى نفعتْها فيها أمى وقت الحاجة: ذات مرة أنقذتْ أمّى حياة پادْوا. استمعْ ، فالقصة قصيرة.

كان على مدير المصلحة التى عمل فيها پادْوا أن يسافر شمالا فى مهمّة. أصبح پادْوا ، إما بحق قانونىّ على الخلافة أو بتعيين خاصّ ، قائما بأعمال المدير ، بالمكافآت الشرفيّة الخاصّة بذلك. هذا التبدُّل فى

---

* كونتو = ١،٠٠٠،٠٠٠ ريس: فالمجموع ١٠،٠٠٠ ميلريس (ميلريس = ١،٠٠٠ ريس –المترجم) – تعليق الطبعة الإنجليزية

الحظّ أصابه بدُوار. كان ذلك قبل زمن العشرة كونتُوات. لم يكتف بإصلاح حال ملبسه ومأكله. اندفع فى نفقات غير ضرورية: قدّم مجوهرات إلى زوجته ، ذبح خنزيرا رضيعا فى العطلات ، شوهد فى المسرح ، بل ذهب إلى حدّ الأحذية الجلدية المصقولة. عاش بهذه الطريقة اثنين وعشرين شهرا ، مفترضا أن يكون قيامه المؤقت بأعمال المدير أبديا. ذات يوم فى الأصيل أتى إلى بيتنا ، مكتئبا ومذهولا. كان على وشك أن يفقد مركزه: كان المدير الدائم عاد فى ذلك الصباح. طلب پادْوا من أمى أن ترعى التعيستين اللتين كان يتركهما ؛ لم يكن بوسعه أن يتحمّل هذه الكارثة ، كان عقد العزم على أن يقتل نفسه. كلّمته أمى بلطف ، لكنه لم يُصغ إلى شىء.

« لا ، يا سنيورة ، لن استسلم لمثل هذا الإذلال. أهبط بأسرتى ، أتقهقر ... حسمت أمرى: سأقتل نفسى ! كيف أخبر زوجتى وطفلتى بهذا البؤس ؟ والآخرون ؟ ماذا سيقول الجيران ؟ وأصدقائى ؟ والجمهور؟ »

« أىّ جمهور ، يا سنيور پادْوا ؟ أوقفْ كل هذا. كُنْ رجلا. تذكّرْ أن زوجتك ليس لها سواك ... وماذا سيحلّ بها ؟ حسنا ، رجلا ... كُنْ رجلا ، تعال ! »

مسح پادْوا عينيه وذهب إلى بيته ، حيث عاش متمدّدا عدّة أيام دون أن يقول كلمة ، أو محبوسا فى حجرته ، أو فيما عدا ذلك فى الحديقة ، قُرْب البركة التى كوّنتْها البئر ، وكأن فكرة الموت ظلّت تلحّ فى داخله. وبّخته دونا فورتوناتا:

« چوانزينيو ، هل أنت طفل رضيع ؟ »

لكنه تحدّث كثيرا عن الموت فكانت خائفة وذات يوم أسرعت لتتوسّل إلى أمى لترى ما إذا كان يمكنها أن تنقذ زوجها من الانتحار. وجدتْه أمى بجوار البئر وقالت له أنه ينبغى أن يعيش. « أية حماقة هذه

ليفكر فى أنـه سيلحق به الدمار بسبب منحة أقلّ وفقدان مركز مؤقّت ؟ لا ، يا سنيـور ، لابدّ أن يكون رجـلا ، أبا لأسرة ، أن يكون مثل زوجته وابنته ...» أطاع پادْوا ؛ قال أنه سيحاول أن يجد القوة ليستجيب لرغبة أمى.

« رغبتى ، لا ! إنه واجبك ».

« حسنا إذن ، الواجب ؛ لست غافلا عن كونه كذلك ».

فى الأيام التى تلت ذلك ، استمرّ فى الالتصاق بالحائط وهو يدخل البيت أو يغادره ، كما ظلّ ينظر إلى الأرض. لم يكن الرجل الذى أبلى قبّعته يخلعها تحية للجيران ، مرحا ، مرفوع الرأس. لم يكن حتـى نفـس الرجل الذى كانه قبل الإدارة المؤقتة. مرّت الأسابيع: كان الجرح يندمل. بدأ پادْوا فى الاهتمام بأشياء حول البيت ، وفى العناية بطيوره الصغيـرة ؛ كان ينـام بهدوء ليـلا ، وفى الأصيـل كان يتحـادث ويرقب ما يجرى فى الشارع. عاد صفاؤه ؛ ومعه أتى المرح فى يوم أحد ، فى صورة صديقيْن أتيا ليلعبـا الهويست* بثلاثة لاعبين على مبـالغ رهـان صغيرة. سـرعان ما كان يضحك ، ويمزح ، واستعاد مظهره المألوف: كان الجرح اندمل.

بمضىّ الوقت نشأت ظاهرة شيّقة. بدأ پادْوا يتكلّم عن إدارته المؤقتة ، ليس فقط بلا أسف على مكافآتها والإذلال عند فقدها ، بل حتى بزهو وكبرياء. انتهت إدارته إلى تغدو هجرة يؤرّخ بها إلى الأمام وإلى الوراء.

« خلال الفترة التى كنتُ فيها مديرا » أو:

« آه ، نعـم ، أتذكرّ ، كان ذلك قبـل إدارتـى ، قبلهـا بشـهر أو

* الهويست : لعبة ورق – المترجم

شهرين ... والآن انتظـرْ ؛ بدأتْ إدارتـــى ... هذا صحيح ، قبـل ذلك بشــهر ونصف ؛ كان قبل ذلك بشـهر ونصف لا أكثر ». أو من جديد:

« هكذا تماما ، كنتُ مديرا لمدة ستة أشهر .. ».

كان ذلك هو المذاق المتخلّف عن الأمجاد المؤقتة. وزعم چوزيه دياس أنه غروره الأزلىّ ؛ لكن الأب كابرال ، الذى كان يُرجع كل شىء إلى الكتــاب المقدّس ، قــال أن الجار پانْوا قدّم مثلا على درس إليفاز لأيوب: « لا ترفض تأديب القدير. هو يجرح وهو يشفى ».

١٧ - الـدود

« هو يجرح وهو يشفى ! » فيما بعد ، عندما اتّفق أن عرفتُ أن رُمح أخيل أيضا كان يداوى الجرح الذى يحدثه ، تولّدت لدىّ رغبة عابرة فى كتابة رسالة حول هذه المشكلة. ذهبتُ إلى حدّ التقاط كُتُب قديمة ، كُتُب ميتة ، كُتُب مدفونـة ، وأن أفتحها ، وأقارنهـا ، لكى أقتفـى أثـر النصّ والمعنى ، وأكتشف الأصل المشترك للوحى الوثنى والفكر الإسرائيلى. بل اقتفيتُ حتى أثر الدود فى هذه الكُتُب علّهُ يخبرنى بما فى النصوص التى كان يقضمها.

« سيدى العزيز » ، أجابت دودة طويلة سمينة ، « نحن لا نعرف شيئا على الإطلاق عن النصوص التى نقضمها ، كما أننا لا نختار النصوص التى نقضمها ، كما أننا لا نحبّ أو نكره ما نقضم : نحن نقضم ».

لم أخرج منها بأكثر من ذلك. كلّ باقى الدود ، وكأنه تبادل الكلمة فيما بينه ، ردّد نفس اللازمة. ربما كان هذا الصمت الحذر بخصوص النصوص التى كان يقضمها طريقة أخرى إضافية لقضم الشىء المقضوم.

١٨ - خطة

لا الأب ولا الأم جاء يُزعجنا عندما تحادثنا ، كاپيتو وأنا ، وحيدين فى حجرة الجلوس ، عن المعهد الدينى. وهى تثبّت عينيها علىّ ، أرادت كاپيتو أن تعرف ماذا كان الخبر الذى أزعجنى إلى ذلك الحدّ. عندما أخبرتُها صار وجهها أبيض كالشمع.

« لكننى لن أفعل » ، طمأنتها بسرعة ، « لن أدخل أىّ معاهد دينية. لن أذهب ، لن يجديهم الإلحاح ؛ لن أذهب ».

فى البداية لم تقل كاپيتو شيئا. سحبتْ عينيها ، وأدارتهما إلى دخيلة نفسها ، وأبقتْها بالإنسانيْن مُبهميْن ولا يريان. كان فمها مفتوحا قليلا. كانت أشبه بشخص فارقتْه الحياة. عندئذ - لأعطى قوة لتأكيداتى - بدأتُ أحلف أننى لن أغدو قسّيسا. فى تلك الأيام حلفتُ يميناً مُغلَّظة ، أودعتُها الحياة والموت. حلفتُ بساعة موتى - ألاّ تُدركنى رحمة الرب فى ساعة موتى إنْ ذهبت إلى المعهد الدينى. لم يبدُ على كاپيتو لا التصديق ولا عدم التصديق: لم يبدُ أنها سمعتْ. كانت مثل تمثال من خشب. أردتُ أن أناديها باسمها ، أن أهزّها ، لكن الشجاعة خانتنى. هذه المخلوقة التى لعبتْ معى ، لهتْ ، رقصتْ ، وأعتقد حتى أنها نامت معى ، تركتنى الآن مكتوف الذراعين وجبانا. وأخيرا عادت إلى نفسها ، لكن وجهها كان شاحبا ، وانفجرت منها هذه الكلمات العنيفة الغاضبة:

« إنها مدفأة لمقاعد الكنيسة ! بابا مقدّس ! قملة كنيسة ! »

أصابنى ذهول. كانت كاپيتو مُغرمة بأمّى ، وأمّى بها ، إلى حدّ أننى عجزت عن فهم مثل هذا الانفجار. صحيح أنها أحبّتْنى أيضا ،

و بالطبع أكثر ، أو أفضل ، أو بطريقة أخرى – وهذا سبب كافٍ لتفسير الاستياء الذى سبّبه لها تهديدٌ بالفراق ؛ لكنْ تلك النعوت البذيئة ، أَنْ تسبَّ أمى سبًّا شنيعا ، وبوجه خاصّ أن تسبَّ التقاليد الدينية التى هى تقاليدها أيضا. هى أيضا كانت تذهب إلى القدّاس ، وثلاث أو أربع مرّات أخذتها أمى فى عربتنا القديمة ، و أهدتها مسبحة ، و صليبا ذهبيا ، وكتاب الصلوات ... أردتُ الدفاع عنها ، لكن كاپيتو لم تعطنى أىّ فرصة ، و ظلّت تدعوها مدفأة مقاعد الكنيسة وقملة كنيسة بصوت مرتفع جدا خشيتُ أن يسمعه أبوها وأمها. لم أكن رأيتها قبل ذلك أبدا غاضبة إلى ذلك الحدّ ؛ بدا وكأنها عقدت عزمها على أن تقول كل شىء لكل شخص. كزّتْ على أسنانها ، هزّتْ رأسها ... و فى رُعبى وقلقى أخذتُ أكرّر حلف أيْمانى ، وعدتُ بأن أذهب فى تلك الليلة ذاتها لأعلن أنه لا شىء فى هذا العالم يمكنه أن يجعلنى أدخل المعهد الدينى.

« أنتَ ؟ أنتَ ستدخل ».

« لا ، لن أدخل ».

« سترى ما إذا كنتَ ستفعل أم لا. »

سكتتْ. وعندما بدأتْ تتكلّم من جديد كانت تغيّرتْ ؛ لم تكن بعدُ كاپيتو المألوفة ، بل تقريبا. كانت جادة ، وغير مضطربة ، وتكلّمت بهدوء. أرادت أن تعرف الحديث الذى كان جرى فى بيتنا. أخبرتُها بالأمر كلّه ، فيما عدا الجزء الذى يتّصل بها.

« وما هى مصلحة چوزيه دياس فى طرح هذا الموضوع » ، سألتْ أخيرا.

« لا أعرف شيئا عن ذلك ؛ لم يكن ذلك إلاّ لخلق متاعب. إنه شخص سافل ؛ لكن انتظرى فقط ، سيدفع ثمن هذا. عندما أُصبح سيّد البيت ، سيُطرَد إلى الشارع. سترَيْن ، لن أدعه يبقى دقيقة واحدة. ماما طيّبة معه

أكثر مما ينبغى ؛ وهى تعطيه أهمية أكبر كثيرا مما يستحقّ ، بل بكتْ فيما يبدو ».

« چوزيه دياس ؟ »

« لا ، ماما ».

« بكتْ ، لماذا ؟ »

« لا أعرف ؛ فقط سمعتُهم يقولون لها ألاّ تبكى ، وأنه ليس هناك ما يدعو للبكاء ... أخيرا قال أنه آسف ، وأتى قادما من الحجرة ؛ عندئذ تركتُ ركنى كيلا يضبطونى ، وجريتُ خارجا إلى الڤراندة. لكن انتظرى فقط ، سأجعله يدفع الثمن ! »

هززتُ قبضتى ، ونطقتُ بتهديدات أخرى. عندما أتذكّر الآن هذه التهديدات ، لا أجد أننى كنتُ سخيفا: المراهقة والطفولة ليستا ، من هذه الناحية ، سخيفتين ؛ وهذه إحدى مزاياهما . ذلك المرض ، أو الخطر ، يبدأ فى بداية الرجولة ، ويتزايد مع النضج ، ويصل إلى أقصى مداه فى الشيخوخة. أما فى الخامسة عشرة فهناك حتى نوع من الكياسة فى إطلاق تهديدات كثيرة وعدم تنفيذ أىٍّ منها .

كانت كاپيتو تتأمّل. لم يكن التأمُّل شيئا نادرا بالنسبة لها ؛ كان بإمكان المرء أن يتعرّف عليه بتضييق عينيها . سألتْ عن بعض الملابسات الإضافية ، الكلمات المحدّدة لهذا الشخص أو ذاك ، واللهجة التى قيلتْ بها . لأننى لم أكن راغبا فى أن أخبرها بنقطة بداية الحديث ، التى كانت كاپيتو نفسها ، عجزتُ عن أن أنقل إليها المغزى الكامل للحديث. كان اهتمام كاپيتو موجّها الآن إلى دموع أمى ؛ لم يكن بإمكانها أن تفهمها . فى نفس الوقت أقرّتْ أنه لا شك فى أنه لم يكن من الخطأ أن ترغب أمى فى أن تجعلنى قسّيسا ؛ كان نَذْرا منذورا منذ عهد بعيد وكان عليها ، وهى التقيّة الورعة ، أن تفى به. أراحنى أن أرى أنها كفّرتْ بذلك طوعا

عن الإهانات التى انطلقت منها قبل ذلك بقليل ، إلى حدّ أننى أمسكت بيدها وضغطتُ عليها بشدّة. ضحكتْ كاپيتو ولم تسحب يدها. عندئذ بدأ الحديث يغفو وينام. كُنّا انتقلنا إلى جوار النافذة. تاجر زنجى متجوّل ، كان ينادى منذ بعض الوقت على حلوى جوز الهند فى الشارع فى الخارج ، توقّف وسأل:

« سينيازينيا تريد **كوكادا** (حلوى جوز الهند) اليوم ؟ »

« لا ، » أجابت كاپيتو.

« **كوكادينيا** حلوة جدا ».

« انصرفْ » قالتْ بلطف.

« أعطنى منها ! » قلتُ أنا ، ومددتُ يدى إلى أسفل. اشتريتُ قطعتيْن ، لكن كان علىّ أنا أن آكلهما كليهما ؛ رفضتْ كاپيتو. أدركتُ أننى ، حتّى وأنا غارق فى أزمة ، أحتفظ داخل روحى برُكن منعزل **للكوكادا** ؛ قد يكون من السهل أن نعرف ما إذا كان هذا ميزة أو عيبا ، لكنها ليست اللحظة المناسبة لمثل هذه التحديدات. رفضتْ محبوبتى ، رغم أنها بالغة الاتّزان وصافية الفكر ، أن تسمع أىّ شىء عن الحلويات ، فدعْنا نترك الأمر عند ذلك ، والواقع أنها كانت مغرمة جدا بالحلويات. أمّا أغنية البائع المتجوّل التى كان الرجل يغنّيها هناك فى الشارع ، أغنية أصائل الماضى ، المألوفة لجيراننا ولطفولتنا:

« ابكى ، يا بنت يا صغيرة ، ابكى
ليس معك أىّ نقود ، ابكى ».

فبدا أنها تضايق كاپيتو. لم يكن اللحن هو السبب ، لأنها كانت تحفظه عن ظهر قلب واعتادت منذ الأزمنة القديمة أن تردّده خلال ألعابنا الطفولية ، تضحك ، وتقفز ، وتتبادل الأدوار معى ، تبيع تارة ، وتشترى تارة أخرى حلوى لم تكن موجودة. أعتقد أن الكلمات ، التى قُصد بها وخز

غرور الأطفال ، هي التي ضايقتها حينئذ ، لأنها قالت لي بعد ذلك بقليل:
« لو كنتُ غنيّة ، لفررْتَ ، ولركبْتَ سفينة ورحلتَ إلى أوروبا ».

بعد أن قالت ذلك ، أخذت تراقب عينيَّ ، لكنني أعتقد أنهما لم تقولا لها شيئا ، أو أنهما شكرتاها فقط على حسن النية. كان الدافع ودّيا فتغاضيتُ عن غرابة المغامرة.

كما ترى ، كان لدى كاپيتو ، وهي في الرابعة عشرة ، أفكار جريئة -أقلّ جرأة بكثير من تلك التي أتتْها فيما بعد ؛ لكنها كانت جريئة في مجال التصوُّر فحسب. أمّا في الممارسة فكانت أفكارا هادفة ، ملتوية ، فضوليّة ، وكانت تحقّق الهدف المنشود ، ليس في قفزة واحدة بل من خلال سلسلة من القفزات الصغيرة. لا أدرى ما إذا كنت قادرا على التعبير عن نفسي بوضوح. تخيّلْ خطة كبرى يتمّ تنفيذها بوسائل بالغة الضآلة. لهذا ، دون أن تتخلّى عن رغبتها المبهمة والافتراضية في إرسالي إلى أوروبا – لوكانت كاپيتو قادرة على تحقيقها ، ما كانت لتجعلني أركب متن سفينة بخارية وأفرّ: كانت ستُطلقني على صفّ من القوارب يمتدّ من هنا إلى هناك ، وفيما يبدو أنني ذاهب إلى فورت لاجه* فوق جسر عائم ، كنتُ سأذهب فوقه في الواقع إلى بوردو ، وكانت ستترك أمي تنتظر على الرمال. كانت تلك هي الطبيعة الغريبة لشخصية صديقتي الصغيرة. فليس من المدهش أن تعارض كاپيتو مشاريعي للمقاومة الصريحة ، وأن تلجأ بدلا منها إلى أساليب أرقّ – المفعول البطيء للوساطة ، التعهّدات – الإقناع اليومي الرقيق – وأن تفحص سلفا الأشخاص الذين قد نعتمد عليهم. رفضتْ الخال كوزمه. كان شخصا عديم الأهمية ؛ فحتى إذا كان لم يوافق على رَسْمي قسّيسا فإنه لم يكن قادرا على اتّخاذ خطوة لمنعه.

---

* في ميناء ريو دي چانيرو – تعليق الطبعة الإنجليزية

ابنة العم چوستينا كانت أحسن منه ، وأحسن حتى مما كان يمكن للأب كابرال أن يكون ، بسبب سلطته ، لكن لم يكن من المنتظر من الأب أن يعمل ضدّ الكنيسة ، ما لم أعترف أنا بأننى لا أحسّ بالنداء ...

« سأعترف .. ».

« نعم ، لكن لابد أن يخرج ذلك إلى العلن ، والطريق الآخر أفضل. چوزيه دياس .. ».

« ما شأن چوزيه دياس ؟ »

« قد يكون عونا لنا ».

« لكنه هو الشخص الذى ذكرٌ ...»

« لا يهمّ ، » واصلت كاپيتو ، « سيقول الآن شيئا آخر. إنه يحبك للغاية. لا تكن وديعا معه. كل ما فى الأمر بالنسبة لك ألاّ تجبُن ، وضّح له أنك ستكون السيّد ذات يوم ، وضّح له أنك عقدت العزم. اجعلْه يفهم أن هذا ليس معروفا منه. امتدحْه أيضا ؛ إنه يحبّ أن يُمتدَح. دونا جلوريا تهتمّ بما يقول ؛ لكن ليس هذا هو الشىء الرئيسى. الشىء الرئيسى هو أنه ، لأنه سيكون تابعا لك ، سيتكلّم بدفء أكثر من أىّ شخص آخر ».

« لا ، لا أظنّ ذلك ، يا كاپيتو ».

« إذن اذهبْ إلى المعهد الدينى ».

« لا ، لن أفعل أبدا ».

« ماذا ستخسر إنْ حاولت ؟ فلنحاولْ ؛ افعلْ ما أقول. دونا جلوريا يمكن أن تتخلّى عن خطتها ؛ وإنْ لم تفعل ، سنفعل شيئا آخر – لايزال هناك الأب كابرال. هل تذكُر كيف حدث أنْ ذهبتَ إلى المسرح للمرة الأولى ، منذ شهرين ؟ كانت دونا جلوريا ضدّ ذلك ، وكان ذلك كافيا لچوزيه دياس ؛ لكنه هو كان يريد الذهاب ، فألقى خطبة – هل تذكُر ؟ »

« أذكُر: قال أن المسرح مدرسة لآداب السلوك ».

« نعم ، وتحدّث طويلا إلى أن أذعنتْ أمك أخيرا ودفعتْ لكما أنتما الاثنين ... واصلْ ، اطلبْ ، أعْطِ الأوامر. انظرْ ، قل له أنك تريد الذهاب إلى سان باولو لدراسة القانون ».

ارتجفتُ فَرَحا. كانت سان باولو ستارا رقيقا من الممكن إزاحته جانبا ذات يوم ، بدلا من الجدار السميك لما هو روحيّ وأبديّ. وعدتُ بأن أتكلّم مع چوزيه دياس بالعبارات المقترحة. كررتْها كاپيتو ، وأكدّت بعضها على أنها ذات أهمية من الدرجة الأولى ؛ ثم امتحنتْنى فيها لتطمئنّ إلى أننى فهمت ولن أخلط بينها. ثم ألحّتْ على أننى ينبغى أن أطلب بأدب لكن بصورة عارضة كما يطلب المرء كوبا من الماء من شخص ملُزم بإحضاره. وأنا أروى هذه التفاصيل لأشرح كيف كان صباح صديقتى الصغيرة ؛ وسرعان ما سيأتى الأصيل ، ومن الصباح ومن الأصيل سيُصنع اليوم الأول ، كما فى سفر التكوين ، حيث صُنعت سبعة أيام متتابعة.

١٩ - مهما كانت الظروف

عندما وصلتُ إلى البيت كان الوقت ليلا. كنت أمشى بسرعة ؛ لكن ليس بالسرعة التى لا أجد معها وقتا للتفكير مليّا فى العبارات التى سأتكلّم بها مع التابع. قمت بصياغة الطلب فى رأسى ، واخترتُ الكلمات التى سأستخدمها واللهجة التى سأقولها بها - شىء ما بين ما هو جافّ وما هو ودّىّ. فى الحديقة قبل دخول البيت ، كرّرتُها لنفسى ، ثم بصوت مرتفع ، لأرى ما إذا كانت وافية بالغرض وما إذا كانت تتماشى مع توجيهات كاپيتو: « لابدّ أن أتكلّم معك غدا ، مهما كانت الظروف. اخترْ المكان ، وأخبرْنى فى وقت لاحق ». نطقتُ بها ببطء ، وحتى ببطء أكثر كلمـات مهمـا كانت الظروف ، كأنّما لتأكيدهـا. كرّرتُها مرة

أخرى ووجدتها جافة أكثر مما ينبغى ، وفظّة تقريبا ، بل وقحة حقا من صبىّ لرجل أكبر منه. فكّرتُ فى اختيار غيرها ، ثم تردّدت.

أخيرا قلت لنفسى أن الكلمات ستكون ملائمة ؛ الشىء الهام هو قولها بلهجة لا تثير الضيق. والدليل أننى عندما كرّرتُها مرة أخرى ، خرجتْ بلهجة التوسُّل تقريبا. كان من الضرورى فقط ألاّ أترفّع أكثر مما ينبغى وكذلك ألاّ أكون رقيقا أكثر مما ينبغى ، بل بين بين. « الواقع أن كاپيتو على حقّ ، » هكذا فكّرتُ. « البيت بيتى ، وهو ليس سوى تابع ... لكنه ماهر ، ويمكنه أن يعمل جيدا جدا من أجلى ، وأن يقلب خطط أمى رأسا على عقب ».

٢٠ - ألف صلاة ربّانية وألف صلاة للعذراء

رفعتُ عينىّ إلى السماء ، التى أخذتْ تُعتم ، لكن ليس لأرى ما إذا كانت غائمة أم صافية. وإنما إلى السماء الأخرى رفعتُ روحى ؛ إلى ملاذى ، إلى صديقتى:

« نَذَرْتُ أن أصلّى ألف صلاة ربانية وألف صلاة للعذراء إذا رتّب لى چوزيه دياس ألاّ أذهب إلى المعهد الدينى ».

كان المقدار هائلا. السبب هو أننى كنتُ مثقلا بالفعل بنُذُور لم أفِ بها. كان النذر الأخير بمائتىْ صلاة ربانية ومائتىْ صلاة للعذراء إن لم تُمطر السماء فى أصيل بعينه فى يوم خروجٍ إلى سانتا تريزا. لم تُمطر السماء لكننى لم أتلُ الصلوات. ومنذ الزمن الذى كنتُ فيه صبيا صغيرا ، كنتُ اعتدْتُ أن أسأل السماء أفضالها مقابل الصلوات التى سأتلوها ، إذا مُنحتُ ما طلبتُ. كنتُ أتلو الصلوات الأولى وأؤجّل الأخرى ، وبالتناسب

مع ازديادها كانت تُنْسَى. وصلتُ إلى الأعداد: عشرين ، ثلاثين ، خمسين. ودخلتُ على المئات ثم فى الآلاف. كانت طريقة لرشوة الإرادة الإلهية بمقدار الصلوات ؛ وإلى جانب ذلك ، كأن كل نذر جديد يُنْذَر ويُحلف عليه مع إضمار فكرة الشطب على الدين القديم. لكنْ كيف نقضى على الكسل الذى يجلبه المرء معه من المهد ولا يشعر بأنه يتناقص مع الحياة ! السماء ستُسْدِى إلىّ المعروف ؛ وسوف أؤجّل السداد. أخيرا غرقتُ فى حساباتى.

« ألف ، ألف ، » كرّرت لنفسى.

عندئذ ، كان حجم الفائدة ضخما ، ليس أقل من خلاص أو هلاك وجودى بأسره. ألف ، ألف ، ألف ! كنتُ بحاجة إلى مقدار يكفى لسداد كافة المتأخّرات. ربما تضايق الرب للغاية لإهمالى ورفض أن يُصغى إلىّ بدون نذر بمبلغ كبير من المال ... أيها الشخص الجادّ ، ربما أضجرتك هموم طفل ، إنْ لم تجدها سخيفة. فهى لم تكن هموما رفيعة. كنتُ فكّرتُ تفكيرا عميقا فى طريقة لمحو دينى الروحىّ. لم أجد أىّ عملة أخرى يمكن بها ، مع الاحترام الواجب لرغبتى ، سداد الدين بكامله وإقفال دفاتر حسابات ضميرى دون عجز. أن أتلو مائة قُدّاس ، أو أصعد إلى مُرْتَقَى نوسّا سنيورا دا جلوريا على ركبتىّ لأسمع قدّاسا ، أو أذهب إلى الأراضى المقدّسة - كلّ ما كانت الإماء المسنّات قُلن لى عن النُّذور الشهيرة خطر على البال دون أن يُثير إعجابى. كان من الصعب أن تتسلّق تلاً على ركبتيْك: ستصيبهما بالكدمات ، بالضرورة. والأراضى المقدّسة بعيدة. وقد تتعدّد القداديس ؛ وربما أمكننى مرة أخرى أن أرهن روحى ...

٢١ - ابنة العم جوستينا

فى القراندة وجدتُ ابنة العم چوستينا تذهب وتجىء. جاءت إلى السلّم وسألتنى أين كنتُ.

« كنتُ هناك ، أتحادث مع دونا فورتوناتا ، ولم أنتبه إلى الوقت. الوقت متأخّر ، أليس كذلك ؟ هل سألتْ ماما عنّى ؟ »

« سألتْ ، لكننى قلت لها أنك عُدْتَ بالفعل. »

أذهلتنى الكذبة ، ليس أقلّ من الاعتراف الصريح بها. ليس لأن ابنة العم چوستينا كانت تتكلّم بالألغاز: كانت تقول بصراحة لبطرس الشرّ الذى تعتقده فى بولس ، ولبولس ما تعتقده فى بطرس ؛ لكن اعترافها بأنها كذبت بدا لى شيئا جديدا طريفا. كانت امرأة فى الأربعين ، نحيلة ، شاحبة ، ذات فم متعجرف وعينين فضوليّتين. جعلتها أمى تعيش معنا من باب العطف وكذلك لدوافع أنانية ، ذلك أنها رغبتْ فى أن تكون لها رفيقة من النساء ، وفضّلت قريبةً على غريبة.

تمشّيْنا عدة دقائق فى القراندة ، فى ضوء الفانوس الضخم. أرادت أن تعرف ما إذا كنتُ نسيتُ مشاريع أمى الكنسية ، وعندما قلتُ « لا » سألتنى عن حقيقة مَيْلى إلى حياة قسّيس. أجبتُ مراوغا:

« حياة القسّيس رائعة جدا ».

« نعم ، هى رائعة ؛ لكن ما سألتُ عنه هو ما إذا كنتَ تحبّ أن تكون قسّيسا ، » هكذا أوضحتْ ضاحكة.

« أحبّ أىّ شىء تريده ماما ».

« ابنة العم جلوريا متلهّفة للغاية على رَسْمك قسّيسا ، لكنْ حتى لو لم تكن كذلك ، هناك شخص بالداخل سيضع الفكرة فى رأسها ».

« مَنْ ؟ »

« مَنْ ! مَنْ يمكنه أن يكون ؟ ليس الخال كوزمه: إنـه لا يبـالى بالأمر ؛ و لستُ أنا أيضا ».

« چوزيه دياس ؟ » استنتجتُ.

« بالطبع ».

قطَّبْتُ جبينى مستفهما ، وكأننى لم أعرف شيئا. أكملتْ ابنة العم چوستينا نبأها الهام بالقول أنه فى نفس ذلك الأصيل ذكّر چوزيه دياس أمى بنذرها القديم.

« ابنة العم جلوريا يمكنها ، بمضىّ الأيام ، أن تنسى نذرها ؛ لكن كيف يمكنها ذلك فى وجود شخص إلى جانبها دائما يثرثر حول المعهد الدينـى، والخُطَب التى يلقيها ، ومدائحه للكنيسـة ، وحيـاة القسّيس كـذا وكيت ، كل شـىء وكأنـه وحده الذى يمكنه أن يقول ذلك ، وأثّر هذا فى الجو ... انظرْ ، هو لا يفعل ذلك إلاّ لخلق المتاعب ، ذلك أنه لا يزيد تديُّنا عن ذلك الفانوس. نعم ، هذا صحيح ، اليوم أيضا. لا تبُح بأىّ سرّ تعرفه... اليوم فى الأصيل تكلَّم بطريقة لا يمكنك أبدا أن تتصوَّرها ...»

« لكن هل طرح ذلك على نحو مفاجىء تماما ؟ » سألتُ هذا السؤال لأرى ما إذا كانت ستقول شيئا عن وشايته حول ممارستى للحبّ مع البنت جارتنا.

لم تقل شيئا عن ذلك ، فقط أتتْ بحركة مبهمة وكأنها تلمِّح إلى أن هناك شيئا آخر لا يمكنها أن تقوله. مرة أخرى نصحتْنى بألاّ أبوح بما أعرف ، ولخّصتْ رأيها السىء فى چوزيه دياس ، وكان سيئا للغاية -شخص مثير للمتاعب ، وأنانىّ ، ومتملّق متطفّل ، وهو ، رغم المظهر الخادع لتهذيبه ، جلف سوقىّ. قلتُ بعد ثوانٍ قليلة:

« ابنة العم چوستينا ، هل أنت مستعدّة لأن تفعلى شيئا ؟ »

« ما هو؟ »

« هل يمكنكِ ... افترضى أننى لا أريد أن أكون قسّيسا ... هل يمكنك أن تسألى ماما .. ».

« ليس ذلك ، » قاطعتْنى بسرعة. « هذا الأمر أصبح مترسّخا بقوة فى رأس ابنة العم جلوريا ، لا شىء فى العالم سيجعلها تغيّر قرارها – الزمن وحده. كنتَ لا تزال صبيّا صغيرا ، وكانت أخبرت به فعلا كلّ دائرة أصدقائنا ، وحتّى معارفنا. أنْ أذكّرها ، أبدا ، ذلك أننى لا أعمل على شقاء الآخرين ؛ لكن أنْ أطلب منها أن تفعل شيئا آخر ، لن أفعل هذا أيضا. أمّا إذا سألتْنى ، حسنا ! إذا قالت لى: < ابنة العم چوستينا ، ما رأيك **أنت** ؟> ، سيكون ردّى: < ابنة العم جلوريا ، أعتقد أنه إذا أراد أن يكون قسّيسا ، دعيه يذهب إلى المعهد الدينى ؛ لكنْ إذا لم يُردْ ، دعيه يبتعد. > هذا ما ينبغى أن أقول ، وما سأقول ، إذا طلبتْ نصيحتى فى وقت من الأوقات. لكنْ أنْ أذهب وأتكلّم معها دون أن تسألنى – هذا ما لن أفعل ».

٢٢ - أحاسيس شخص آخر

لم أخرج منها بأكثر من ذلك ، وفى النهاية ندمتُ على أننى تكلّمت. كان ينبغى أن أتبع نصيحة كاپيتو. بعد ذلك ، وأنا أوشك على المضىّ إلى داخل البيت ، استَبْقَتْنى ابنة العم چوستينا دقائق أخرى قليلة ، فَتحدّثتْ عن الحرارة وعيد الحَبَل* القادم ، وعن خُطَبى القديمة ، وأخيرا عن كاپيتو. لم تقل أىّ شىء سىء عنها ؛ بالعكس ، لمّحتْ إلى أنها قد تغدو فتاة مليحة. أنا ، الذى كنتُ أعتبرتُها جميلة فعلا ، كنتُ سأصرخ بأنها

* عيد الحَبَل بلا دنس: عيد كاثوليكى (٨ديسمبر) – المترجم.

أجمل مخلوقة على الأرض ، إنْ لم يجعلنى الخوف كتوما. مع ذلك ، عندما بدأت ابنة العم چوستينا تمتدح حسن سلوكها ، ورزانتها ، وطباعها ، وتفانيها فى حبّ والديْها ، والحبّ الذى كانت تكنّه لأمى - كلّ ذلك ألهبنى إلى حدّ أننى امتدحتُها بدورى. عندما كان ذلك بدون كلمات ، كان يتم بإيماءة موافقة على كل تأكيد من تأكيدات چوستينا ، وبلا شك بالابتهاج الذى لابد أنه أضاء وجهى. ولم أنتبه إلى أننى أكدت بذلك الوشاية التى سمعتُها من چوزيه دياس فى ذلك الأصيل فى حجرة الجلوس - إنْ لم تكن ارتابت فعلا فى شىء قبل ذلك. لم أفكّر فى هذا إلاّ وأنا فى الفراش. عندئذ فقط أدركتُ أن عينىْ ابنة العم چوستينا بدا أنهما تحسّان بى وأنا أتكلّم ، أنهما تُصغيان إلىّ ، وتشمّان رائحتى ، وتذوقان طعمى - أنهما تقومان بوظائف كلّ الحواسّ. لم يكن من الممكن أن تكون هناك غيرة: بين صبىّ فى مثل عمرى وأرملة فى الأربعين لم يكن هناك مكان للغيرة. على أىّ حال ، خفّفتْ بعد قليل امتداحها لكاپيتو ، بل حتى أبدت قليلا من الملاحظات التى تنتقص من قدرها. قالت أنها خبيثة بعض الشىء وأن لها طريقة فى النظر إليك من تحت جفنيْها. مع ذلك ، لا أعتقد أنها كانت الغيرة. إننى أعتقد فى الواقع ... نعم ... نعم ، أعتقد أن الأمر كان هكذا. أعتقد أن ابنة العم چوستينا وجدت فى مشهد أحاسيس شخص آخر إحياءً مُبهما لأحاسيسها هى. والمتعة يمكن ارتشافها أيضا من شفتيْن تحكيان.

٢٣ - توجيـه الإنـذار

« ينبغى أن أتكلّم معك غدا ، مهما كانت الظروف. اخترْ المكان ، وأخبرنى فى وقت لاحق ».

أنا واثق أن چوزيه دياس وجد طريقتى فى الكلام غير مألوفة. لم تكن اللهجة آمرة جدا كما خشيتُ ، لكن الكلمات كانت كذلك. كما أن عدم توجيهى أسئلة ، وبلا رجاء مهذّب ، وبلا تردُّد ، كما كان يليق بصبىّ ، وكما كان مألوفا منى - كل ذلك أعطاه دون شك فكرة عن شخص متغيّر وعن موقف متغيّر. كان ذلك فى الصالة ، ونحن ندخل لتناول الشاى فى تلك الليلة - جاء چوزيه دياس وهو يسير منطلقا ممتلىء النفس بوالتر سكوت الذى كان يقرأه آنذاك على أمى وابنة العم چوستينا. كان يقرأ بالوزن والإيقاع. كانت القلاع والمنتزهات تخرج من فمه أضخم وأوسع ، وكانت البحيرات أغزر ماءً ، وكانت « قبة السماء الزرقاء » تضمّ عدة آلاف أكثر من النجوم المتألّقة. وعندما يقرأ الحوار كان يغيّر الأصوات ، بحيث كانت تغدو خشنة أو رفيعة قليلا حسب جنس المتكلّم. وكان يحاكى ، بتغيير اللهجة ، رقّتها وغضبها.

بعد أن قال لى تصبح على خير ، فى الڤراندة ، غمغم: « غداً فى الشارع. علىّ أن أقوم ببعض المشتريات ، يمكنك أن تذهب معى ، سأستأذن ماما. هل لديك درس غدا ؟ »

« أخذتُ درسى اليوم ».

« حسنا. لن أسألك ما الأمر ؛ أنا واثق أنه أمر هام وخصوصىّ ».

« نعم ، يا سنيور ».

« إلى الغد ».

تمّ كلّ شىء على ما يرام. لم يحدث سوى تغيير واحد بسيط: كانت

أمى تعتقد أن الطقس أدفأ مما ينبغى فلم توافق على ذهابى سيرا على الأقدام ؛ وأخذنا الأتوبيس من أمام الباب.
« لا فرق ، » قال لى چوزيه دياس ، « يمكننا أن ننزل عند بوابة المنتزه العام ».

٢٤ - أمّ وخـــادم

كان چوزيه دياس يعاملنى بالعناية الرقيقة لأمّ وبمجاملات خادم. كان أوّل ما فعل عندما كبرتُ بما يكفى للخروج بمفردى هو التخلّص من خادمى: أصبح هو خادمى وأخذ يرافقنى فى الشارع. كان يعتنى بأشيائى فى البيت ، بكتبى ، وأحذيتى ، وصحتى ، ونُطقى. فى الثامنة من عمرى ، كانت جُمُوعى تفتقر أحيانا إلى النهايات الدقيقة: كان يصحّحها ، بنصف جدّيّة ، لإعطاء قوة الإقناع للدرس وبنصف ضحك اعتذارا عن التصحيح. بهذه الطريقة قدّم العون لعمل مُدرّسى الابتدائى. فيما بعد ، عندما كان الأب كابرال يعلّمنى اللاتينية ، والدين ، والتاريخ المقدّس ، حضر الدروس ، وأبـدى أفكارا كنسيـة ، وأخيرا سـأل الأبَ: « أليس صحيحا أن صديقنا الصغير يتقدّم تقدّما رائعا ؟ » دعانى « طفلا عبقريا » ؛ وقال لأمى أنه عرف من قبل أطفالا كانوا بالغى الذكاء لكننى تفوّقت عليهم جميعا ، فضلا عن أننى ، بالقياس إلى عمرى ، امتلكتُ بالفعل صفات خُلُقية متينة. ورغم أننى لم أدرك تماما المعنى الكامل لهذا القسط الأخير من المدح ، استمتعت بهذا القسط من المدح: كان قسطا من المدح.

٢٥ - فى المنتزه العام

دخلنا المنتزه العام. وجوه مُسنّة ، ووجوه أخرى شاحبة ، أو بلا هدف فحسب ، هنا وهناك على طول الممرّ الذى يؤدّى من البوابة إلى الحديقة. مضينا نحو الحديقة. بينما كنّا نسير ، ولكى أشجّع نفسى ، تحدّثتُ عن الحديقة:

« مضى زمن طويل منذ كنتُ هنا ، ربّما سنة ».

« معذرة ، » قاطعنى ، « لم يمض أكثر من ثلاثة أشهر منذ كنتَ هنا مع جارنا پادْوا . ألا تتذكّر ؟ »

« هذا صحيح ، لكننا نتجوّل فقط ...»

« طلب من أمك أن تسمح له بأن يأخذك معه ، ووافقت هى ، لأنها طيبة ، مثل أمّ الربّ. لكنْ اصغ إلىّ ، مادمنا نتحدث الآن فى هذا الموضوع ، لا يليق بك أن تتمشّى فى الشارع مع پادْوا ».

« لكننى ذهبت معه مرّات ومرّات ...»

« عندما كنتَ أصغر. كنتَ طفلا ، كان لا بأس بذلك ، كان يمكن اعتباره خادما . لكنك تكبر لتصبح شابّا ، وهو يغدو أكثر أُلفة طول الوقت. فى النهاية ، لن تميل دونا جلوريا إلى ذلك. آل پادْوا ليسوا سيّئين تماما . كاپيتو ، رغم تلكما العينيْن اللتين أعطاهما الشيطان إيّاها ... هل لاحظت قطّ عينيْها تلكما ؟ عينا غجرية - منحرفتان وخبيثتان. حسنا ، رغم عينيْها كان من الممكن أن تكون مقبولة ، لولا غرورها وحديثها الناعم. ياه ، ما أنعم لسانها ! دونا فورتوناتا تستحقّ الاحترام ، وأنا لا أنكر أنه هو قد يكون أمينا ، وله وظيفة جيدة ، ويملك البيت الذى يقيم فيه ، لكن الأمانة والاحترام ليسا كافييْن ، فالمزايا الأخرى تفقد قيمتها ، إذا أخذنا فى الاعتبار رفاق السوء الذين يعاشرهم. پادْوا يميل إلى

الأشخاص الأجلاف. وإذا تعارف مع شخص جلف سيء الخلق فإنهما يصبحان صديقيْن حميميْن. أنا لا أقول هذا لأننى أكرهه ، ولا لأنه يتحدث عنّى ويسخر منّى ، كما سخر فى ذلك اليوم من كَعْبَىَّ الرثَّيْن ...»

« معذرة ، » قاطعتُ. تمهّلتُ فى مشيتى ، « لم أسمع منه أبدا أىّ شيء ينتقص من شأنك ، يا سنيور. بالعكس ، ذات يوم منذ وقت غير بعيد ، قال لشخص فى حضورى ، أنك < رجل موهوب ويمكنك أن تتكلّم مثل عضو فى مجلس النواب > ».

ابتسم چوزيه دياس بابتهاج ، لكنه بذل جهدا هائلا ، وأوقف الابتسام ، ثم مضى يقول:

« أنا لا أدين له بشكر على ذلك. هناك آخرون ، أنبل أصلا ، شرّفونى برأيهم السامى. ولا شيء من هذا ينأى به عن أن يكون كما قلتُ عنه ».

كُنّا بدأنا نمشى من جديد ، ومضينا إلى الحديقة وأخذنا نتطلّع إلى البحر..

« أُدرك أنك لا تبغى سوى سعادتى ، » قلتُ بعد دقائق قليلة.

« ماذا أيضا ، يا بنتينيو ؟ »

« فى تلك الحالة ، سأطلب منك معروفا ».

« معروفا ؟ أُؤْمر ، أمرك ، ماهو ؟ »

« ماما ... »

لفترة من الوقت لم يكن بإمكانى أن أنطلق بالباقى ، رغم أنه لم يكن كثيرا ، ورغم أننى كنت حفظته عن ظهر قلب. مرة أخرى سأل چوزيه دياس ما هو ، وهزّنى برقّة ، ورفع ذقنى وثبّت عينيه علىّ ، قلقا ، تماما كما فعلتْ ابنة العم چوستينا فى المساء السابق.

« ما لماما ؟ ماذا عن ماما ؟ »

« ماما ترغب فى أن أكون قسّيسا ، لكننى لا يمكن أن أكون قسّيسا » ، قلتُ أخيرا.

تصلّب چوزيه دياس ، مصعوقا.

« لا يمكننى ، » واصلتُ كلامى ، مصعوقا ليس أقلّ منه ، « لا أملك أىّ موهبة لذلك ، ليس لدىّ أىّ مَيْل إلى حياة قسّيس. أنا مستعد لعمل أىّ شىء تريده هى ؛ ماما تعرف أننى سأفعل أىّ شىء قالته لى. أنا مستعدّ لأن أكون أىّ شىء تريده ، حتى سائق أتوبيس. قسّيسا ، لا ، لا يمكننى أن أكون قسّيسا. المهنة رائعة ، لكنْ ليس لى ».

كلّ هذه الخطبة لم تتدفق منى هكذا ، دفعة واحدة ، فى دفقة طبيعية ، ومكتملة ، كما قد تبدو على الصفحة المطبوعة ، بل مُمزَّقةً ، مُغمغَمةً ، بصوت كان ضعيفا وخائرا. مع ذلك ، أصغى إليها چوزيه دياس مذعورا. ولا شك فى أنه لم يكن حسب حسابا لمقاومتى ، مهما تكن ضعيفة ؛ لكن ما أفزعه أكثر أيضا كان هذا الختام:

« إننى أعتمد عليك ، يا سنيور ، أنقذْنى ».

انفتحت عينا تابعنا فجأة ، وتقوّس حاجباه ، أما الابتهاج الذى توقعتُه وأنا أختاره حاميا فلم يتجلّ فى اختلاجة واحدة. كان وجهه بأسره غير متلائم مع ذهوله. لا شك فى أن موضوع حديثى كشف له عن شخص جديد ؛ وأنا لم أتعرّف على نفسى. لكن الكلمات الأخيرة هى التى حملت قوّة فريدة. كان چوزيه دياس مذهولا. وعندما عادت عيناه إلى أبعادهما المعتادة:

« لكن ماذا يمكننى أن أفعل ؟ » سأل.

« الكثير. أنت تعرف أن كل شخص فى بيتنا يُقدّر رأيك. ماما تطلب نصيحتك كثيرا ، أليس كذلك ؟ الخال كوزمه يقول أنك شخص موهوب ... »

« مكارم أخلاق ، » ردّ بالمثل ، وتملّق ، « أفضال من أشخاص أفاضل يستحقّون كلّ ما ... ألم أقل لك ! لا أحد سيسمعنى أقول فى يوم من الأيام أقلّ شىء ضدّ أشخاص كهؤلاء. لماذا ؟ لأنهم نبلاء وأفاضل. أمك قديسة ، خالك أنبل نبيل. عرفتُ عائلات ممتازة: لا يمكن لعائلة منها أن تُضارع عائلتكم فى نبل المشاعر. الموهبة التى يجدها خالك فىّ - أعترف بأننى أملكها ، لكنها واحدة فحسب - إنها موهبة تمييز ما هو جيّد وجدير بالإعجاب والتقدير ».

« لا شك فى أن لديك أيضا موهبة حماية أصدقائك - مثلى أنا ».

« كيف يمكننى أن أساعد ، يا ملاك السماء ؟ لا يمكننى أن أقنع أمك بالعدول عن مشروع كان ، بالإضافة إلى النُّذُر ، طموحها وحلمها على مدى سنوات عديدة. حتى إنْ كان ذلك بإمكانى ذات يوم ، فقد فات الأوان. أمس فقط شرّفتْنى بأنْ قالت لى: ‹ چوزيه دياس ، يجب أن أُدخل بنتينيو المعهد الدينى › ».

ليس الجُبْن بالعملة الحقيرة كما يصوّرونه. لو لم أكن خائفا ، لكان من المحتمل ، بالسخط الذى أحسستُ به ، أن أنفجر وأصفه بأنه كاذب ؛ لكنْ كان سيصبح من الضرورى فى هذه الحالة أن أعترف بأننى كنت أسترق السمع ، وكان أحد التصرُّفيْن سيتعادل مع الآخر. أكتفيتُ بالإجابة بأن الأوان لم يفُتْ.

« لم يفُتْ الأوان ؛ لا يزال هناك وقت إذا أردتَ ».

« إذا أردتُ ! ماذا أريد غير ذلك ، غير أن أخدمك ؟ فيم يمكننى أن أرغب سوى أن تكون سعيدا ، كما تستحقّ ؟ »

« حسنا إذن ، لا يزال هناك وقت. انظرْ ، ليس ذلك كسلا. أنا مستعدّ لأن أفعل أىّ شىء. إذا رغبتْ أمى فى أن أدرس القانون ، سأذهب إلى سان باولو .. ».

٢٦ - القانون جميـــل

فوق وجه چوزيه دياس مرّ شىء أشبه بالتأمُّل فى فكرة – فكرة أبهجتْه فوق العادة. ظلّ صامتا لحظات قليلة. كنتُ أثبّتُ عينىّ عليه ؛ وأدار هو عينيه نحو الميناء. وعندما أصررتُ قال:

« فات الأوان ، لكنْ لأثبت أنه ليس هناك نقص فى الاستعداد من ناحيتى ، سأكلّم أمك. لا أعد بالنجاح فى استمالتها ، لكننى سأبذل قصارى جهدى ؛ سأقذف بكل نفسى فى هذا الموضوع. حقًّا وصدقا ، ألا تريد أن تكون قسّيسا ، القانون جميل ، يا ولدى العزيز ... يمكنك الذهاب إلى سان باولو ، أو إلى پيرنامبوكو ، أو حتى إلى أماكن أبعد. هناك جامعات جيدة فى بلدان أخرى. اذهبْ إلى القانون ، إذا كانت هذه رسالتك. سأكلّم دونا جلوريا ، لكنْ لا تعتمد علىّ وحدى ؛ تكلّم مع خالك ».

« أعتقد أننى ينبغى أن أفعل ».

« اطلبْ العون من الرب أيضا – من الرب ومن العذراء المقدّسة ، » قال مشيرا إلى السماء.

كانت السماء مغطّاة بسحب خفيفة. فى الجوّ ، قرب الساحل ، طارت طيور كبيرة سوداء فى دوائر ، كانت تحوّم ، أو تنقضّ ، وهى ترفرف بأجنحتها ، فتغمس أرجلها فى الماء ، وترتفع من جديد لتهبط مرة أخرى. لكن لا الظلال السوداء للسماء ولا الرقصات الرائعة للطيور جذبت أفكارى بعيدا عن مُحامىّ. بعد أن أجبت بأننى سأفعل ، أضفتُ:

« الرب سيفعل ما تشاء أنتَ ، يا سنيور ».

« لا تجدِّفْ. الرب سيّد كل الأشياء. إنه ، بنفسه وفى نفسه ، الأرض والسماء ، الماضى ، والحاضر ، والمستقبل. صَلِّ ليمنحك السعادة ، كما أفعل أنا ... ما دُمْتَ تحسّ بأنه لا يمكنك أن تكون قسّيسا

وتفضّل القانون... القانون جميل ، دون أيّ إساءة إلى اللاهوت ، الذى هو أفضل من كل شىء آخر ، كما أن الحياة الكنسية هى أقدس حياة. لماذا لا تسافر إلى الخارج لتدرس القانون ؟ أفضل شىء هو أن تذهب فى الحال إلى جامعة ما ، وفى نفس الوقت الذى تدرس ، سافرْ وارتحلْ. يمكن أن نذهب معا ؛ نرى بلدانا أجنبية ، نسمع اللغة الإنجليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، والأسبانية ، والروسية ، وحتى السويدية. من المحتمل ألاّ يكون بإمكان دونا جلوريا أن تذهب معك ؛ حتى إن كان بإمكانها ، فهى لن ترغب فى أن ترعى شئون العمل ، والأوراق ، وتفاصيل القبول فى الجامعة ، والإقامة ، ولا السفر معك من مكان إلى آخر ... ياه ! القانون هو الأجمل ! »

« وافقتَ ، إذن ستطلب من ماما ألاّ تدخلنى المعهد الدينى ؟ »

« سأطلب ، لكن الطلب لا يعنى الحصول على موافقتها. يا ملاك قلبى ، لو كانت الرغبة فى الخدمة تساوى القدرة على الأمر ، لكُنّا هناك ، لكُنّا على ظهر السفينة. آه ، لا يمكنك أن تتخيّل ما هى أوروبا ! ياه ! أوروبا ... »

رفع قدمه ، ودار دورة راقصة على قدمه الأخرى. كان أحد طموحاته أن يعود إلى أوروبا. تحدّث عنها مرارا لكنه لم ينجح أبدا فى إغراء أمى ، أو خالى ، مهما كان ما امتدح كثيرا مناخها ومفاتنها ... ولم يكن حسب حساب هذه الإمكانية للذهاب معى والبقاء هناك خلال دراستى الطويلة المديدة.

« نحن على ظهر السفينة بالفعل ، يا بنتينيو ، نحن على ظهر السفينة ! »

٢٧- فى المدخل

فى مدخل المنتزه ، مدّ شحّاذ يده إلينا. واصل چوزيه دياس سيره ، لكننى فكّرت فى كاپيتو وفى المعهد الدينى. أخرجتُ من جيبى قطعتيْن نقديّتيْن وأعطيتهما للشحاذ. قبّل الشحاذ القطعتيْن النقديّتيْن. طلبتُ منه أن يصلّى من أجلى ، من أجل أن أحقّق كلّ أمنياتى.

« نعم ، أيّها التقىّ الورع ».

« اسمى بنتو ، » أضفتُ ذلك لأنوّره.

٢٨- فى الشارع

كان چوزيه دياس راضيا إلى حدّ أنه تغيّر من رجل اللحظات الخطيرة ، مثلما كان بين الناس ، إلى رجل متوثّب خفيف الحركة. لوّح بيديه ورجليه ، تكلّم عن كل شيء ، أوقفنى أمام كل واجهة دكان أو إعلان مسرح. روى لى حبكة مسرحيات عديدة ، ألقى علىّ مونولوجات شعرا ، قام بكل مهامه وأغراضه ، دفع حسابات ، جمع إيجارات ؛ ولنفسه اشترى ورقة يانصيب فئة واحد على عشرين. وأخيرا أزاح الرجل المتوتّرالرجل الرقيق ، ورجع إلى حديثه البطيء المتأنّى ، مع استخدام صيغ التفضيل العليا. لم أفهم أن التغيّر كان طبيعيّا ؛ وخشيتُ أن يكون غيّر رأيه ، وحاولتُ أن أتودّد بالكلمات والحركات الرقيقة ، إلى أن ركبنا الأتوبيس.

٢٩- الامبراطور

فى الطريق ، قابلْنا الامبراطور ، الذى كان قادما من مدرسة الطبّ. توقّف الأتوبيس الذى كنا نركبه ، مثل كل المركبات الأخرى. نزل الركّاب ووقفوا برؤوس عارية فى الشارع إلى أن مرّت المركبة الامبراطورية. عندما عُدْتُ إلى مقعدى ، عُدْتُ معى بفكرة رائعة ، فكرة أن أذهب لأرى الامبراطور ، وأن أخبره بكل شىء وأن أطلب منه أن يتدخّل. لن أبوح لكابيتو بهذه الفكرة. قلتُ لنفسى: « إذا طلب جلالته ، ستُذعن ماما ».

فى تلك اللحظة رأيتُ الامبراطور يُصغى إلىّ ، مفكّرا ، وأخيرا قال « نعم » ، أنه سيذهب ليكلّم أمى ؛ قبّلتُ يده باكيا ، وحالما أصل إلى البيت ، سأترقّب إلى أن أسمع وقع حوافر الجياد – الحرس الامبراطورى. إنه الامبراطور ! إنه الامبراطور ! سيجرى كل شخص إلى النافذة ليراه يمرّ ، لكنه لن يمرّ ، ستقف المركبة عند بابنا. الامبراطور يترجّل ويدخل. هياج عظيم فى الحىّ: « الامبراطور دخل بيت دونا جلوريا ! ما الأمر ؟ ماذا عسى أن يكون ؟ » تخرج أسرتنا لاستقباله ؛ ستكون أمّى هى الأولى وتقبّل يده. عندئذ يطلب الامبراطور من أُمى ، بابتسامات عريضة ، داخلا صالة الاستقبال ، أو غير داخل – لا أتذكّر تماما ، فالأحلام مشوّشة غالبا – ألاّ تجعلنى قسّيسا ، وهى تَعِدُ ، مادحة وطائعة ، بألاّ تفعل.

« الطبّ – لماذا لا تجعلينه يدرس الطبّ ؟ »

« مادامت هذه مشيئة جلالتك ... »

« اجعليه يدرس الطبّ. إنها مهنة ممتازة ، ولدينا أساتذة ممتازون هنا فى المدينة. ألم تذهبى أبدا إلى مدرستنا ؟ إنها مدرسة جميلة. لدينا

بالفعل دكاترة من الدرجة الأولى ، جديرون بأن يقفوا كتفا إلى كتف مع أعظم الأطباء فى العالم. الطبّ علم عظيم ؛ إنه لشىء عظيم أن يكون المرء قادرا على منح الصحة للآخرين ، على تمييز الأمراض ، ومقاومتها ، والقضاء عليها. لابدّ أنك أنتِ نفسك رأيت معجزات ، يا سنيورة. مات زوجك ، لكن مرضه كان قاتلا ، كما أنه لم يكن يعتنى بصحته ... إنها مهنة ممتازة ؛ أرسليه إلى مدرستنا. افعلى هذا من أجلى ، هه ؟ هل أنت مستعدّ ، يا بنتينيو ؟ »

« إذا كانت ماما مستعدّة ... »

« أنا مستعدّة ، يا بنىّ. جلالته يأمر ».

ثم يمدّ الامبراطور يده مرة أخرى لنُقبّلها ، ويخرج برفقتنا جميعا ، والشارع يمتلىء بالناس ، والوجوه تتزاحم على النوافذ ، ويسود صمت رهيب. يدخل الامبراطور المركبة ، وينحنى ، ويأتى بإشارة وداع ، وهو لايزال يقول: « الطبّ ، مدرستنا ! » وتنطلق المركبة وسط حسد الجيران والشكر الجزيل من أسرتنا.

كلّ هذا رأيتهُ وسمعتُه. لا ، إن خيال أريوستو ليس أكثر خصوبة من خيال الأطفال والعشّاق ، لا ولاتحتاج هذه الرؤية للمستحيل إلى أكثر من ركن فى أتوبيس. ابتهجتُ للحظات ، ولنقلْ لدقائق ، إلى أن تلاشت الحدود الفاصلة وأعادتنى إلى الوجوه غير الحالمة لزملائى الرُكّاب.

٣٠ - القربان المقدّس

لابدّ أنك فهمت الآن أن نصيحة الامبراطور الخاصّة بالطب لم تكن إلاّ من وحى القليل من رغبتى فى مغادرة ريو دى چانيرو. فأحلام اليقظة أشبه ما تكون بالأحلام الأخرى ، وهى تنسج نفسها على منوال ميولنا

وذكرياتنا. فلأذهبْ ، عند الحاجة ، إلى سان باولو ، أمّا أن أذهب إلى أوروبا... إنها بعيدة جدًا ، ببحر عريض وامتداد طويل للزمن. عاش الطبّ! ينبغى أن أُقْضِى بهذه الآمال إلى كاپيتو.

« لابدّ أنهم يُخرجون القربان المقدّس الآن ، » قال شخص من ركّاب الأتوبيس ، « إننى أسمع الجرس ؛ نعم ، أعتقد أنه فى سانتو أنطونيو دوس پو بريس. قِفْ ، يا كمسارى ! »

جذب الكمسارى الحبل الذى كان مُتّصلا بذراع السائق ، فتوقّف الأتوبيس ، ونزل الرجل. هزّ چوزيه دياس رأسه هزتين سريعتين ، أمسك بذراعى وأنزلنى معه. نحن أيضا سنرافق القربان المقدّس. والواقع أن الجرس كان يدعو المؤمنين إلى ذلك الطقس الملىء بأقصى المتعة. كان هناك بالفعل عدد من الأشخاص فى حجرة المقدّسات. كانت تلك هى المرة الأولى التى وجدت نفسى فيها بين تلك الصُّحبة الوقورة. أطعتُ التوجيهات ، فى البداية بارتباك ، لكنْ فى الحال بإحساس بالرضا ، ليس حُبّا فى الطقس فى المقام الأول ، بل لأنه منحنى دور رجل. وعندما بدأ قَيِّم الكنيسة فى توزيع الأردية الكهنوتية ، اندفع إلى الداخل شخص مبهور الأنفاس ؛ كان ذلك جارى پادْوا. هو أيضا سيرافق القربان المقدّس. لمحنا ، وأتى إلينـا ليتكلم معنـا. أتى چوزيه دياس بحركة انزعاج ، ولم يكد يردّ على تحيّته ، وظلّ ينظر إلى القسّيس ، الذى كان يغسل يديْه. بعد ذلك ، عندما كان پادْوا يتحدّث مع قَيِّم الكنيسة بصوت خفيض ، أسرع إليهما چوزيه دياس ؛ وفعلت أنا نفس الشىء. كان پادْوا يتوسّل إلى قَيِّم الكنيسة ليأذن له بأن يحمل قائما من قوائم المظلّة. طلب چوزيه دياس واحدا أيضا.

« هناك واحد فقط لم يُؤخذ بعد ، » قال قَيِّم الكنيسة.

« حسنا ، ذلك الواحد إذن ، » قال چوزيه دياس.

« لكننى طلبت أوّلاً ، » أصرّ پادْوا.

« أنت طلبتَ أوّلاً ، لكنك دخلت أخيرا ، » ردّ چوزيه دياس.

« لكننى كنتُ هنا من قبل. أنت تحمل شمعة ».

استمرّ پادْوا ، رغم فزعه من چوزيه دياس ، يطلب القائم بصوت خفيض ، مكتوم. وجد قَيِّم الكنيسة طريقة لحلّ المشكلة: تعهّد بأن يجعل واحدا من حَمَلة المظلّة الآخرين يتخلّى عن قائمه لپادْوا ، الذى كان معروفا فى الأبرشية ، شأنه فى ذلك شأن چوزيه دياس. تمّ ذلك ، لكن چوزيه دياس أفسد حتى هذه التسوية. لا ، عندما رأى أن هناك قائما آخر مُتاحا ، طلبه لى ، « الطالب الحديث فى المعهد الدينى » هو الأجدر بأن يكون هذا التشريف من نصيبه. غدا وجه پادْوا شاحبا كالشموع. كان ذلك وضعا لقلب أبٍ فى امتحان عسير. قَيِّم الكنيسة الذى كان يعرفنى جيدا لأنه كان يرانى هناك مع أمى أيام الأحد ، سألنى بفضول ما إذا كنتُ طالب معهد دينى حقًا.

« ليس بعد ، لكنه سيكون ، » أجاب چوزيه دياس ، وهو يغمز لى بعينه اليسرى. ورغم الغمز ، أغضبنى ذلك.

« حسنا ، سأتنازل عنه لعزيزنا بنتينيو ، » تنهّد والد كاپيتو.

من ناحيتى ، وددت لو تركتُه يحتفظ به. تذكّرتُ أنه اعتاد أن يرافق القربان المقدس حتى النهاية وأنه كان يحمل شمعة دائما ؛ لكنه نجح آخر مرّة فى الحصول على أحد قوائم المظلّة. كان الشرف الخاصّ الذى يلازم المظلّة يتمثل فى أنها كانت تغطى القسّيس ؛ أمّا الشمعة فكان أىّ شخص يصلح لها. إنه هو الذى أخبرنى بكل هذا ، وكان يملؤه زهو ورِع ومرح وهو يفعل ذلك. وهذا سرّ الاهتياج الذى دخل به الكنيسة. كانت هذه ستكون المرّة الثانية التى يحمل فيها المظلّة ، وكان هذا هو السبب فى أنه ذهب مباشرةً ليطلب ذلك. ثم لا شىء ! كان عليه أن يعود إلى الشمعة

المعتادة. حالة أخرى لانهيار القيام المؤقت بعمل: كان على المدير أن يعود إلى وظيفته القديمة ... أردتُ أن أعطيه قائمي لكن تابعنا منعني من هذا التصرُّف الشهم فطلب من قيِّم الكنيسة أن يضعنا ، هو وأنا ، عند القائميْن الأماميّيْن حتى نفتح الطريق للمظلّة.

بالأردية الكهنوتية ، بالشموع موزّعةً ومضاءة ، بالقسّيس ووعاء الخبز المقدّس مستعدّيْن ، بقيِّم الكنيسة بنبات الزُّف والجرس فى يديه ، انطلق الموكب الدينى إلى الشارع. عندما وجدت نفسى أمسك بأحد القوائم وأمرّ بين صفّيْن من المؤمنين ، الراكعين ، استُثيرت مشاعرى. كان بادْوا يقضم شمعته بمرارة. هذا تعبير مجازى ؛ لكننى لا أستطيع التفكير فى طريقة أكثر حيوية لأصف ألم ومهانة جارى. لكننى لم أستطع أن أنظر إليه طويلا جدا ، ولا إلى التابع الذى سار بمحاذاتى رافعا رأسه عاليا وكأنه هو ذاته ربّ الجنود. وماهى إلاّ برهة قصيرة حتى أحسستُ بالتعب ، وتدلّى ذراعاى ؛ ولحسن الحظ كان البيت قريبا ، فى شارع سينادو.

كانت المرأة المريضة مسلولة ، كانت سيّدة مترملة. وكانت لها ابنة فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة تبكى عند باب حجرتها. لم تكن الفتاة جميلة ، وربما لم يكن فيها أىّ شىء يجذب على الإطلاق: تدلّى شعرها دون تمشيط ، وجعّدت الدموع عينيها. مع ذلك ، كان المشهد ناطقا وأسر قلبى. تلقّى القسّيس اعتراف المرأة المريضة ، وناولها القربان المقدّس والزيت المقدّس. ازداد نحيب الفتاة وأحسست أن عينىّ تدمعان ، فابتعدتُ. ذهبتُ إلى نافذة. يا للمسكينة ! الحزن فى حدّ ذاته يُعْدِى ؛ وامتزج بأفكارأمى فأثّر فىّ أكثر ، وعندما انتهيتُ إلى التفكير فى كاپيتو أحسستُ برغبة شديدة فى البكاء. خرجتُ إلى الصالة وسمعتُ شخصا يقول لى:

« لا تَبْكِ هكذا ! »

ذهبتْ معى صورة كاپيتو ، وخيالى ، الذى كان منحها الدموع قبل ذلك بدقيقة ، ملأ الآن فمها بالضحك ؛ رأيتُها تكتب على الحائط ، تتكلّم معى ، تدور بذراعيها فى الهواء ؛ وسمعتُ اسمى بوضوح بنغمة حلوة أسكرتنى. الشموع المضاءة ، الحزينة للغاية فى ظلّ تلك الظروف ، ارتدت مظهر تألُّق زفاف. ما هو تألُّق زفاف ؟ لا أدرى ؛ كان شيئا هو النقيض للموت ، وبقدر ما يمكننى أن أفهم ، نقيض الموت هو الزفاف. اجتاحنى هذا الإحساس الجديد إلى أن أتى إلىّ چوزيه دياس وهمس فى أذنى :

« لا تكشّرْ هكذا ! »

استعدتُ وقارى بسرعة. حان وقت الانصراف. التقطتُ قائمى. ولمّا كنت أعرف المسافة بالفعل – وكنا عائدين الآن إلى الكنيسة ، الأمر الذى جعلها تبدو أقلّ – تناقص وزن القائم إلى حدّ كبير. إلى جانب ذلك ، فالشمس هناك فى الخارج ، والحيوية فى الشارع ، والأولاد الذين فى عمرى والذين كانوا يراقبون بحسد ، والأتقياء الذين أتوا إلى النوافذ أو ركعوا فى المداخل ، كلّ ذلك ملأ روحى ببهجة غريبة.

على العكس من ذلك ، بدا پادْوا مُهانا أكثر فأكثر. رغم أننى كنتُ أحتلّ مكانه ، لم يستطع أن يعزّى نفسه بالشمعة ، الشمعة البائسة. على أنه كان هناك أيضا آخرون يحملون شموعا ، وكانوا يحتفظون بصعوبة بالرزانة الواجبة : لم يكونوا يختالون فى مشيهم ، لكنهم فى الوقت ذاته لم يكونوا حزينين. وكان بمقدور المرء أن يلاحظ أنهم يسيرون بزهو واعتزاز.

٣١ - فضول كابيتو

كانت كابيتو تُفضّل أىّ شىء على المعهد الدينى. بدلا من أن تكتئب تحت تهديد فراق طويل ، أعلنتْ أنها ستكون راضية إذا نجحت فكرة أوروبا. وعندما قصصتُ عليهاحلمى الامبراطورى :

« لا ، يا بنتينيو ، فلندع الامبراطور فى سلام » ، قالت ، « فلنعلّق أملنا فى الوقت الحالى على وعد چوزيه دياس. متى سيتكلّم مع أمّك ؟ »

« لم يحدّد اليوم ؛ وعد بأنه سيرى ، وبأنه سيتكلّم فى أسرع وقت ممكن ، وبأننى ينبغى أن أسأل الرب العون ».

طلبت منّى كابيتو أن أعيد على مسامعها كل إجابات التابع ، وتغيّرات إيماءاته ، وحتى دورته الراقصة على قدم واحدة ، هذه الدورة التى لم أكد أذكرها. سألَتْ عن اللهجة التى تكلّم بها. كانت مدقّقة ويقظة. وبدا أنها تفكر فى الأمر كله مليّاً مع نفسها. أو ربما أمكن القول أنها كانت تفحص ، وتصنّف ، وتضع فى ملفات داخل ذاكرتها كل شىء قُلْتُه لها. ربما كانت هذه الصورة أفضل من الأخرى ، لكن لاشىء يظلّ أفضل. كابيتو هى كابيتو ، أىْ مخلوقة خاصّة جدا ، كانت امرأة أكثر مما كنتُ أنا رجلا. إنْ كنتُ لم أقل هذا من قبل ، فها أنا أقوله الآن. إنْ كنتُ قلتُه ، فها أنا أكرّره على أىّ حال. هناك مفاهيم ينبغى طبعُها طبْعاً فى روح القارىء بقوة التكرار.

كانت أيضا الأكثر فضولا. وفضول كابيتو يملأ صفحة كاملة. كان فضولها متباين الأنواع ، القابلة للتفسير وغير القابلة ، المفيدة وكذلك غير المفيدة ، حول موضوعات خطيرة وأخرى تافهة ؛ كانت تُحبّ معرفة كل شىء. فى المدرسة حيث تعلّمتْ من سنّ السابعة القراءة ، والكتابة ، والحساب ، واللغة الفرنسية ، والدين ، وأشغال الإبرة ، لم تتعلّم ، على

سبيل المثال ، شُغْل الدنتيلا ؛ لهذا السبب ذاته طلبتْ من ابنة العم جوستينا أن تعلّمها ذلك. وإذا كانت لم تتعلّم اللاتينية مع الأب كابرال ، فذلك لأن الأب ، بعد أن اقترح عليها ذلك على سبيل المزاح ، انتهى إلى القول أن اللاتينية لم تكن لغة للبنات الصغيرات. اعترفت لى كاپيتو ذات يوم بأن هذا السبب ألهب رغبتها فى أن تتعلّمها. وعلى سبيل التعويض ، قرّرت أن تدرس الإنجليزية مع أستاذ عجوز كان صديقا ورفيقا فى لعبة الهويست لأبيها ؛ لكنها فشلت. وعلّمها الخال كوزمه الطاولة.

« دعينى أغلبك « مَرْساً » صغيرا ، يا كاپيتو ، » كان يقول لها.

كانت كاپيتو تُطيع ، وكانت تلعب بسهولة ، وانتباه ، وكذلك – ولا أدرى ما إذا كان يمكننى أن أقول – بحبٍّ. ذات يوم وجدتُها ترسم اسكتشا بقلم رصاص ؛ كانت تخطّ الخطوط الأخيرة ، وطلبتْ منى أن أنتظر لأرى ما إذا كان يشبهه. كان عبارة عن بورتريه لأبى ، منسوخا من اللوحة الزيتية المرسومة على القماش والتى احتفظتْ بها أمى فى حجرة الجلوس ، وهو البورتريه الذى عندى الآن. لم يكن نموذجا للكمال: بالعكس ، كانت العينان جاحظتين ، وكان الشعر يتألّف من دوائر صغيرة الواحدة فوق الأخرى. لكننى ، آخذا فى الاعتبار أنها لم تكن تعرف مبدأً واحدا من مبادىء ذلك الفن وأنها رسمتْه من الذاكرة فى غضون ثوانٍ قليلة ، وجدتُه عملا كبير القيمة – ولعلك تأخذ فى اعتبارك شبابى ومشاعرى المتعاطفة. مع ذلك ، من رأيى أنه كان يمكنها أن تتعلّم الرسم بسهولة ، كما تعلّمتْ الموسيقى بعد ذلك بكثير. كان سبق لها أن وقعت فى حبّ البيانو الذى فى بيتنا ، وكان قطعة خردة لا قيمة لها ، ولم يكن أكثر من مجرّد شىء للذكرى. اعتادت أن تقرأ رواياتنا ، وأن تتصفّح كُتُبنا عن أعمال الحَفْر: أرادت أن تعرف أشياء عن الأطلال ، الناس ، الحملات العسكرية ، الاسم ، القصة ، المكان. أعطاها جوزيه دياس هذه النُّتَف من

المعلومات بمظهر اعتداد بالمعرفة الواسعة. لم تكن معرفته الواسعة أكثر مهابة بكثير من طبّ الهوميوباثيا الذى أتى به معه من المناطق النائية.

ذات يوم أرادت كابيتو أن تعرف شخصيات الصوُر التى فى حجرة الجلوس. أخبرها التابع ، بإيجاز ، وإنْ تأنّى قليلا عند يوليوس قيصر ، بهتافات التعجّب واللاتينية:

« قيصر ! يوليوس قيصر ! رجل عظيم ! و

« *Tu qouque Brute ? »

لم تجد كابيتو بروفيل قيصر وسيما ، لكن أعماله ، التى سردها چوزيه دياس ، فازت منها بإيماءات الإعجاب. بقيتْ فترة طويلة وهى تُدير وجهها نحوه. رجل استطاع أن يفعل كلّ شىء ! رجل كان بوسعه أن يعطى امرأة لؤلؤة قيمتها ستة ملايين من السّسْتيرسات !

« وكم يساوى السّسْتيرس ؟ »

چوزيه دياس ، الذى لم تكن قيمة السّسْتيرس حاضرة فى ذهنه ، أجاب بحماس :

« إنه أعظم رجل فى التاريخ ! »

أضاءت لؤلؤة قيصر عينىْ كابيتو. كانت هذه المناسبة هى التى سألتْ كابيتو فيها أمى لماذا لم تعد تلبس مجوهرات البورتريه : كانت تشير إلى ذلك الذى فى حجرة الجلوس ، بجوار ذلك الخاصّ بأمى ؛ بدا فيه عقد ضخم ، وإكليل للرأس مرصّع بالجواهر ، وقرْطان.

« إنها مجوهرات مترمّلة ، مثلى أنا ، يا كابيتو ».

« متى لبِسْتِها آخر مرة ؟ »

« كان ذلك فى احتفالات التتويج ».

---

* حتى أنتَ، يا بروتس ؟ (باللاتينية فى الأصل) – المترجم.

« أوه ، أخبروني ما هو التتويج ! »

كانت تعرف من قبل ما قاله لها والداها ، لكنها ربّما ارتابت في أنهما كانا يعرفان أكثر مما حدث في الشارع. كانت تريد أن تعرف ماذا جرى في الكنيسة الامبراطورية وفي قاعات الرقص. كانت كابيتو وُلدتْ بعد هذه الاحتفالات الشهيرة بوقت طويل. ولمّا كانت سمعت عبارة سنّ الرشد تُذكر مرارا ، أصرّت ذات يوم على أن تعرف ماذا كان ذلك الحدث. أخبروها ، وكان من رأيها أن الامبرطور كان على حق في رغبته في اعتلاء العرش في سنّ الخامسة عشرة. كلّ شيء كان موضوعا لفضول كابيتو: الأثاث العتيق الطراز ، الأشياء القديمة حول البيت ، العادات ، قصص إتاجوايْ ، طفولة وشباب أمي ، قول مأثور من هنا ، ذكرى من هناك ، مَثَل قديم من هنالك ...

٣٢ - عينان مثل مدّ البحر

كلّ شيء كان موضوعا لفضول كابيتو. مع ذلك ، كانت هناك حالة لستُ واثقا فيما يتعلّق بها ما إذا كانت تعلّمتْ أو علّمتْ ، أو فعلتْ الأمريْن معا - كما فعلتُ أنا. سأحكي عنها في الفصل التالي. أما في هذا الفصل فلن أقول إلاّ أنني بعد الاتفاق مع التابع بأيام قليلة ، ذهبتُ لأرى صديقتي الصغيرة. كان ذلك في العاشرة صباحا. لم تنتظر دونا فورتوناتا ، التي كانت في الحديقة ، حتى لأسأل عن ابنتها.

« إنها في حجرة الجلوس تمشّط شعرها ، » قالت لي. « اذهبْ بهدوء وخوِّفْها ».

ذهبتُ بهدوء ، لكن قدمي أو المرآة أفشتْ سرّي. ربّما لم تكن المرآة ، ذلك أنها كانت مرآة ضئيلة الحجم تمّ شراؤها مقابل **باتاكا**

واحد (معذرة على رخص ثمنها) من بائع إيطالى متجوّل ؛ كان لها إطار غليظ وكانت معلّقة بسلسلة رفيعة على الحائط بين النافذتيْن. إذا لم تكن هى ، فلا بد أنها كانت قدمى. إحداهما أو الأخرى ، ذلك أننى لم أكد أدخل الغرفة حتى طار المشط ، الشعر ، وهى كلّها ، فى الهواء ، وكان كلّ ما سمعتُ هذا السؤال:

« هل حدث شىء ؟ »

« لا ، » أجبتُ ، « فقط جئت لأراك قبل أن يأتى الأب كابرال ليعطينى الدرس. كيف كان نومك ؟ »

« رائع. ألم يتكلم چوزيه دياس بعد ؟ »

« لا ، فيما يبدو »

« لكن متى سيتكلّم ؟ »

« قال أنه يعتزم اليوم أو غدا أن يفتح الموضوع – لكن تدريجيا – سيتحدث كثيرا جدا ليتحسّس الموضوع. فيما بعد سيدخل فى صميم الموضوع. يريد أن يرى أوّلاً ما إذا كانت ماما مصمّمة على عزمها ... »

« لكنها مصمّمة ، إنها مصمّمة » ، قاطعتْ كاپيتو. « ولو لم يكن من الضرورى أن يتحدّث معها أحد فى الموضوع الآن وإلى الأبد ، لما تكلّمنا معه. لا أعرف ما إذا كان لچوزيه دياس نفوذ كبير إلى هذا الحدّ. أعتقد أنه سيبذل كل ما فى وسعه ، إذا كان يشعر أنك لا تريد حقا أن تصبح قسّيسا ، لكنْ هل سيكون قادرا على النجاح ؟ ... إنها تُصغى إليه ؛ أيضا ، إذا ... أوه ، يا للجحيم ! كُنْ حازما معه ، يا بنتينيو ».

« سأكون. بدأ فى الكلام اليوم ».

« تحلف على ذلك ؟ »

« أحلف على ذلك ! دعينى أرى عينيك ، يا كاپيتو ».

كنتُ تذكّرتُ التعريف الذى أعطاه لهما چوزيه دياس ، « عينا

غجرية ، منحرفتان وخبيثتان ». لم أكن أعرف ماذا تعنى « منحرفتان » ، لكننى كنت أعرف ماذا تعنى « خبيثتان » ، وأردتُ أن أرى ما إذا كان من الممكن وصفهما بذلك. سمحتْ لى كابيتو بأن أنظر إليها ، وأن أفحصهما. سألتْ فقط ما الأمر ، وما إذا كنتُ لم أرهما أبدا من قبل. لم أجد فيهما شيئا غير مألوف ؛ كان لونهما ورقّتهما صديقيْن قديمين لى. أعتقد أن طول تأمّلى أعطى كابيتو فكرة أخرى عن قصدى : تصورّتْ أن ذلك ذريعة كىْ أنظر عن قرب ، بعينىّ المستطيلتين ، غير المضطربتيْن ، واقعتيْن فى شرك عينيها. والحقيقة أننى أرجعتُ إلى هذا واقع أن عينيها أخذتا تزدادان اتّساعا ، اتّساعا وإبهاما ، وبتعبيرٍ ...

ياعشّاق النحو والصرف ، أعطونى مقارنة دقيقة وشاعرية لأصف تلكما العينين ، عينىْ كابيتو. لا أجد صورة أنقل بها – دون أن أحطّم سُمُوّ أسلوبى – ماذا كانتا وماذا فعلتا بى. عينان مثل مدّ البحر ؟ نعم ، مثل مدّ البحر. هذا ما كانتاه. كان فيهما سائل مّا خفىّ ويشعّ قوةً جاذبا كل شىء إلى داخلهما ، كموجة تنحسر عن الشاطىء عندما يكون التيار ثقيلا تحت سطح الماء. لكى لا يجرفنى المدّ تعلّقتْ عيناى بأجزاء أخرى ، مجاورة ، بأذنيْها ، بذراعيها ، بشعرها الذى انسدل على كتفيْها ؛ لكن حالما بحثتُ عن إنسانىْ عينيها مرة أخرى ، أخذت الموجة الآتية منهما تتّسع ، فاغرة فاها ، مظلمة ، مهدّدة بأن تبتلعنى ، بأن تسحبنى ، بأن تجرّنى إلى داخلها. كم دقيقة قضيْنا فى تلك اللعبة ؟ وحدها ساعات السماء يمكنها أن تكون رصدت تلك المدّة من الزمن التى كانت لا نهائية لكنْ قصيرة الأمد. والأبديّة لها ساعاتها: رغم أنها بلا نهاية ، فهى تريد أن تعرف كم تدوم الأفراح والآلام. لابدّ أنها تُضاعف متعة السعداء فى الفردوس بأن يعرفوا مدى العذاب الذى يعانيه أعداؤهم فى الجحيم. ومقدار المتعة التى ينعم بها خصومهم فى الفردوس يُضاعف عذاب أولئك

الذين حلّت عليهم اللعنة فى الجحيم. هذا عذاب فات على دانتى الإلهىّ ؛ لكننى لست مهتمًا بأن أعدّل على الشعراء فى هذه اللحظة. وإنما كنتُ وصلت إلى نقطة أن أروى كيف أنه ، فى نهاية وقت غير محدّد ، أمسكتُ بشعر كابيتو ، لكنْ هذه المرة بيدىّ ، وقلتُ لها - لأقول شيئا - أننى سأمشّطه لها إن شاءت.

« أنتَ ؟ »

« أنا ».

« ستعقّده تماما ».

« إذا عقّدتُه ، يمكنك أن تحلّيه فيما بعد ».

« لِنَرَ إذن ما يمكنك أن تفعل ».

٣٣ - تضفير الضفيرتيْن

أدارت كابيتو ظهرها لى وواجهتْ المرآة. أخذتُ شعرها ، وجمعتُه ، كلّه معا ، وبدأتُ أسرّحه بالمشط ، من جبينها إل نهاية أطرافه ، والتى وصلت إلى خصرها . كان ذلك غير ملائم وكابيتو واقفة. لا تَنْسَ أنها كانت أطول منى بدرجة لا تُذكَر ، لكنها مع ذلك كانت بنفس الطول ... طلبتُ منها أن تجلس.

« اجلسى هنا ، سيكون ذلك أفضل ».

« لنَرَ الحلاّق العظيم ، » قالت بضحكة. واصلتُ تمليس شعرها بعناية فائقة ، وفرقته إلى قسميْن متساوييْن ، لأصنع الضفيرتيْن. لم أصنعهما فى الحال ، ولا بسرعة بالغة ، كما قد يظنّ الحلاّقون المحترفون ، بل ببطء ، ببطء شديد ، وأنا أستمتع بملامسة تلك الخيوط الثقيلة التى كانت جزءاً منها. كان العمل يتعثّر ، أحيانا لعدم الإتقان ،

وأحيانا عمدا ، لكى أحُلّ ما كان تمّ عقده لأعقده من جديد. كانت أصابعى تمرّ برفق على عنقها أو على كتفيْها المغطّاتيْن بقماش قطنى ، وكان الإحساس حُلوا. لكننى وصلت أخيرا إلى نهاية شعرها ، رغم ما تمنَّيْتُ من أن يكون بلا نهاية. لم أتضرّع إلى السماء أن يكون فى طول شعر أورورا ، لأننى لم أكن عرفت بعدُ هذه الآلهة التى قدّمها إلىّ الشعراء القدماء فى وقت لاحق ؛ لكننى كنت أتوق إلى أن أمشّطه طوال الدهور والدهور ، لأنسج ضفيرتيْن تلُفّان اللانهاية بطولهما عددا لا يحصى من المرات. وإذا كان هذا يبدو مغالاة فى التوكيد ، أيها القارئ التعيس ، فذلك لأنك لم تمشّط أبدا شعر فتاة ، ولا وضعتَ أبدا يديْك المراهقتيْن على الرأس الغضّ لحورية ... حورية ! أنا كلّى أساطير. حتّى من قبل ، عندما كنت أتكلّم عن عينيْها اللتيْن مثل مدّ البحر ، كتبتُ اسم ثيتيس* – ثم شطبتُه. لنشطب الحورية أيضا. ولنقلْ فقط ، المخلوقة المحبوبة ، وهى كلمة تشمل كافة الاحتمالات ، المسيحية والوثنية. أخيرا أنجزتُ الضفيرتيْن. أين كان الشريط لأربط الطرفيْن معا؟ فوق المنضدة ، كان قطعة بائسة من خرقة مجعّدة. ضممتُ طرفىْ الضفيرتيْن ، ربطتُهما بعقدة ، وضعتُ اللمسات الأخيرة على العمل – أُرخى هنا ، أملّس هناك ، إلى أن هتفتُ:

« ها هو ! »

« كيف حاله ؟ »

« انظرى فى المرآة »

بدلا من الذهاب إلى المرآة ، ماذا تظنّ أن كاپيتو فعلتْ ؟ لا تنْسَ أنها كانت جالسة وظهرها إلىّ. أمالتْ كاپيتو رأسها إلى الوراء إلى

* ثيتيس : فى الأساطير الإغريقية ' آلهة بحرية، ابنة نيريه وأم أخيل – المترجم

أقصى حدّ فكان عليّ أن أسنده بيديّ ؛ كان ظهر الكرسى واطئا. ثم انحنيتُ عليها ، وجها لوجه ، لكنْ بالمقلوب ، وعينا الواحد منا فى محاذاة فم الآخر. توسّلتُ إليها أن ترفع رأسها ، خشية أن تصيبها دوخة ، أو تؤذى رقبتها. بل حتى قلت لها أنها تبدو قبيحة ؛ لكن ذلك السبب لم يحرّكها.

« اعتدلى فى جلستك ، يا كاپيتو ! »

لم تفعل. لم ترفع رأسها ، وبقينا على ذلك النحو ، ينظر كلّ منا إلى الآخر ، إلى أن أتتْ بحركة بشفتيْها. أدنيتُ شفتىّ ، و ...

كان الإحساس بالقبلة هائلا ومفاجئا: نهضت كاپيتو بسرعة من فوق كرسيِّها ؛ تراجعتُ مبتعدا إلى الحائط ، بنوع من الدُّوار ، صامتا ، وعيناى مظلمتان. عندما صَفَتْ رؤيتى وجدتُ كاپيتو تُثبِّت عينيها على الأرض. لم أجازف بالكلام. لو فعلتُ ، لما عرفتُ ماذا أقول. كنتُ مأخوذا ، مذهولا ، لم أجدْ أىّ حركة ، أو أىّ دَفعة ، تخلعنى من الحائط فتحرّرنى وتُرسلنى إليها بألف كلمة دافئة مُلاطفة ... لا تسخر من أعوامى الخمسة عشر ، أيها القارىء الناضج قبل الأوان. ففى السابعة عشرة ، كان ديه جريبه (وناهيك بديه جريبه) لم يبدأ بعدُ فى التفكير فى الاختلاف بين الجنسيْن.

٣٤ - رَجُــــل!

سمعنا خُطَى فى الصالة : كانت دونا فورتوناتا. هدّأتْ كاپيتو نفسها بكلّ سرعة ، بكلّ سرعة إلى حدّ أنها ، عندما ظهرت أمها فى المدخل ، كانت تهزّ رأسها وتضحك - لا أثر لشحوب ، لا ارتعاشة ارتباك - ضحكة صافية ، طبيعيّة ، فسرّتْها بهذه الكلمات المرحة:

« ماما ، انظرى ماذا فعل هذا السيد الحلاّق بشعرى ؛ طلب أن يكمل تمشيطه ، وهذه هى النتيجة. انظرى إلى الضفيرتيْن ! »

« ما لهمـا ؟ » أجابت أمهـا بلُطف. « شعـرك يبـدو على ما يرام ، لا أحد سيخمّن أنه من صُنع شخص لم يمشط شعرا من قبل أبدا ».

« ماذا ، مـامـا ؟ هـذا ؟ » احتجّت كاپيتـو وهى تحلّ الضفيرتيْن.

« أوه ، ماما ! »

ثم بتعبير نزق جذاب كانت تبدو به أحيانا ، أخذتْ المشط ومشّطت شعرها وبدأت تضفره من جديد. وصفتْها دونا فورتوناتا بأنها حمقاء وطلبت منى ألاّ أهتمّ بذلك ، وقالت أن ذلك ليس سوى حماقة ابنتها. نظرتْ إلينا بحنان ، إلىّ ثم إليها. ثم خطر على بالها شكّ أو شكّان ، فيما أعتقد. وعندما رأتنى صامتا ، دائخا ، ألتصق منكمشا بالحائط ، ارتابت فى أنه ربما كان بيننا شىء ما أكثر من تمشيط الشعر ، وابتسمتْ وتظاهرتْ بأنها لم تلاحظ....

أنا أيضا أردتُ أن أتكلّم ، لأخفى حالة مشاعرى ، واستدعيتُ بعض الكلمات من الداخل هناك ، فجاءت فى الحال ، لكنْ متزاحمة ، وملأتْ فمى بحيث لم يعد بإمكان كلمة واحدة منها أن تخرج. قُبلة كاپيتو أقفلت فمى. لم ينجح هتـاف تعجُّب واحد ، ولا مجرّد أداة تعريف أو تنكير ، رغم الشجاعة التى هاجمتْ بها الكلمات ، فى اختراق أسنانى. ثم غمغمتْ كلّ الكلمات ، وهى تنسحب إلى قلبى: « هنا شخص لن يترك أىّ أثر كبير فى العالم ، إذا سيطرتْ عليه أدقّ انفعالاته ».

وهكذا ، عندما فُوجئنا بأمها ، كنّا اثنيْن ومختلفيْن: كانت تُخفى بكلماتها ما أعلنه بصمتى. أخرجتنى دونا فورتوناتا من حيرتى بقولها أن أمى أرسلت تطلبنى لدرس اللاتينية ؛ كان الأب كابرال ينتظرنى. كانت فرصـة للإفلات. قلتُ وداعا ومضيتُ إلى الصالة. وأنا فى طريق

الانصراف ، سمعتُ الأم توبِّخ الابنة ، ولم تقل الابنة شيئا .

جريْتُ إلى حجرتى والتقطتُ كُتُبى ، لكننى لم أذهب إلى حجرة الدرس ؛ جلستُ على الفراش واسترجعتُ تمشيط شعر كابيتو والباقى. أخذتُ أرتجف ، مرّت بى لحظات فقدتُ فيها الوعى بنفسى وبالأشياء من حولى - بدا وكأننى أوجد بعيدا فى مكان ما ، بطريقة ما. عُدْتُ إلى نفسى من جديد ، رأيتُ الفراش ، الجدران ، الكتب ، الأرضيّة ، سمعتُ صوتا ما فى الخارج ، مُبهما ، قريبا ، بعيدا جدا ، وعندئذ تلاشى كلّ شىء ، وأحسستُ فقط بشفتىْ كابيتو ... بشفتىْ كابيتو تمتدّان إلى شفتىّ ، وبشفتىّ تصلان إلى شفتيْها ، وأحسستُ بالشفاه تتّحد. وفجأة ، دون وعى ، دون تفكير ، نطقتُ بهاتين الكلمتين:

« أنا رجل ! »

تصوّرتُ أنهم سمعونى لأنهما انطلقتا بصوت مرتفع. جريْتُ إلى باب حجرتى. لم يكن هناك أحد بالخارج. عُدْتُ ، وبصوت خفيض كرّرتُ أننى رجل. حتى فى هذه اللحظة لا يزال صداه فى أُذُنىّ. كان الرضا الذى أحسستُ به هائلا. لم يشعر كولومبوس برضا أكبر عندما اكتشف أمريكا ، ومعذرة للابتذال فى تقدير مدى الصلة: كلّ مراهق يحمل فى داخله عالَما غير مكتشَف ، أمير بحر وفجراً فى أكتوبر*. قمتُ باكتشافات أخرى فيما بعد ؛ لم يبهرنى أىٌّ منها بنفس القدر. وشاية چوزيه دياس كانت أثارتنى ، وكذلك درس شجرة جوز الهند العجوز ؛ ومشهد اسميْنا محفوريْن فى الحديقة جعلنى أرتجف ، وكما رأيتَ: أىٌّ من هذه الأشياء لم يُضارع الإحساس بالقبلة. وربما كانت تلك الأشياء الأخرى أكاذيب أو وهماً. رغم أنها حقيقية ، لم تكن سوى عظام الحقيقة ،

---

* إشارة إلى فجر ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ عندما لمح كريستوف كولومبوس

ولم تكن لحمها ولا دمها. حتى أيدينا ، وهى تتلامس ، وهى تتشابك ، وهى تذوب الواحدة فى الأخرى ، لم يكن بوسعها أن تقول كلّ شىء.

« أنا رجل ! »

عندما كرّرتُ هذا للمرة الثالثة ، فكّرتُ فى المعهد الدينى ، لكنْ كما يفكر المرء فى خطرٍ مرّ ، فى شرٍّ تمّ تفاديه ، فى كابوسٍ زال. كلّ أعصابى أخبرتنى أن الرجال ليسوا قساوسة. كان دمى من نفس الرأى. مرة أخرى أحسستُ بشفتىْ كاپيتو. ربما أكون أسهبت أكثر مما ينبغى فى الحديث عن ذكريات التقبيل ؛ لكن الاشتياق هو نفس ذلك الشىء: إنه استعادة ذهاب وإياب الذكريات القديمة. وبين كلّ ذكرياتى من تلك الفترة ، أعتقد أن هذه الذكرى هى الأحلَى ، الأعذب ، الأكمل – الذكرى التى كشفتنى لنفسى تماما. لدىّ ذكريات أخرى ، رحبة وعديدة ، حُلوة أيضا ، من أنواع شتى ، بعضها ذكريات عقلية ، قويّة على نحو مماثل ، عندما صرتُ رجلا ناضجا أيضا ، لكن الأثر الذى تركتْه فى نفسى كان أقلّ.

٣٥ - أمين السجلات البابوى

أخيرا أخذتُ كُتُبى وجريْتُ إلى درسى. لم أجْر ، على وجه الدقّة ؛ وقفتُ فى منتصف الطريق ، أفكّر مليًا فى أن الوقت لابدّ تأخّر جدا وربما قرأوا شيئا فى نظراتى. اتّجهتْ نيّتى إلى أن أكذب ، أن أدّعى أننى أُصبْتُ بنوبة دُوار ؛ لكن الفزع الذى كان سيسبّبه ذلك لأمى جعلنى أرفض الفكرة. فكّرت فى النّذْر بدزينات من الصلاة الربانية ؛ لكنْ كان لدىّ نَذْر متأخّر ، معروف وشيك ... لا ، فلأنتظرْ لأرى. واصلتُ سيرى. سمعتُ أصواتا مرحة تُثرثر بجلبة. وعندما دخلتُ حجرة الجلوس ، لم يُؤنّبنى أحد.

كان الأب كابرال تسلّم رسالة فى المساء السابق من السفير البابوى ؛ ذهب ليراه وعلم منه أنه صدر منذ وقت قصير مرسوم بابوى بتعيينه أمين سجلّات بابويًا. هذا التشريف من البابا أسعده سعادة بالغة ، كما أسعد كلّ أسرتنا. ظلّ الخال كوزمه وابنة العم چوستينا يردّدان اللقب بإعجاب. كانت المرة الأولى التى يقع فيها على أسماعنا ، التى كانت معتادة على الكهنة ، والمونسينييرات ، والأساقفة ، والقاصدين الرسوليين ، والسفراء البابويّين ؛ لكن ما هو أمين السجلّات البابوى ؟ أوضح الأب كابرال أنه ، إذا شئنا الدقة ، ليس منصبا فى الإدارة البابوية ، بل لقبه.

رأى الخال كوزمه نفسه نشوان مع رفيقه القديم فى ورق اللعب وظلّ يردّد: « أمين بابـوى ». استدار إلىّ ، وقال: « جهّز نفسك ، يا بنتينيو ! ربما انتهيت **أنت** إلى أن تصبح أمينا بابويًا ».

أصغى كابرال برضا إلى تكرار اللقب، وما كان منه إلاّ أن وقف ، وخطا خطوات قليلة ، وابتسم ، ودقّ دقّة إيقاعية خفيفة على غطاء علبة النُّشُوق. ضاعف حجم اللقب ، إن جاز القول ، عظمته ، لكنه جعله أطول من أن يُوضع قبل اسمه. كان هذا التفكير الأخير تفكير الخال كوزمه. سارع الأب كابرال إلى إضافة أنه ليس من الضرورى استخدام اللقب كله: كان يكفى أن يُدعى الأمين كابرال ، بافتراض أن البابوىّ أمر بديهىّ.

« الأمين كابرال ».

« نعم ، هذا هو ، الأمين كابرال ».

« لكنْ ، سيدى الأمين » ، هكذا بدأتْ ابنة العم چوستينا ، لتعتاد استخدام اللقب ، « هل يُلزمك هذا بالسفر إلى روما ؟ »

« لا ، يا دونا چوستينا ».

« لا ، إنه مجرّد اللقب ، » لاحظتْ أمي.

« مع ذلك ، هذا لا يمنع ، » قال كابرال ، الذى واصل تأملاته ، « هذا لا يمنعنى ، فى حالات الإجراءات الأكثر رسمية ، فى البلاغات العامة ، الرسائل الرسمية ، الخ.. ، من استخدام اللقب بكامله: أمين السجلات البابوى. أما فى الاستعمال العادى فالأمين يكفى ».

« طبعا ! » وافقوا جميعا.

چوزيه دياس ، الذى دخل بعدى مباشرة ، أثنى على ذلك التشريف ، وذكّر ، بهذا الصدد ، بالمراسيم السياسية الأولى لپيوس التاسع ، الآمال الكبرى لإيطاليا... لم يتابع أحد الموضوع. كان موضوع الساعة هو مدرّسى العجوز للغة اللاتينية. أدركتُ ، متخلّصا من قلقى ، أننى ينبغى أن أهنّئه بدورى ، وقد مسّ إطرائى قلبه ليس أقلّ من إطراء الآخرين. ربّتَ على خدّى بطريقة أبويّة ، وانتهى إلى منحى إجازة. كانت سعادة كبرى لقاء ساعة واحدة. قبلة وإجازة ! وأتصوّر أن وجهى قال الكثير ، ذلك أن الخال كوزمه وصفنى ، وبطنه تهتزّ ، بأننى كلب مرح.

قطع چوزيه دياس مرحنا: « لا ينبغى أن يمرح المرء بشدّة فى كسل. ستكون اللاتينيّة ضرورية له مع ذلك ، **حتى إذا لم يصبح قسّيسا أبدا** ».

بهذا عرفتُ رَجُلى. كانت تلك هى الكلمة الأولى ، البذرة التى أُلقيتْ فى الأرض ، هكذا ، بصورة عارضة ، كأنما لتعتاد عليها آذان أسرتنا.

ابتسمتْ لى أمى ، ابتسامة مفعمة بالحب والحزن ، لكنها أجابت فى الحال: « سيكون قسّيسا ، قسّيسا رائعا وسيما ».

« لا تنسىْ ، يا أختى جلوريا ، أمينا أيضا. أمينا بابويّا ».

« الأمين سنتياجو ، » ردّد كابرال مؤكّدا.

لا أدرى على وجه التحديد ما إذا كانت نية مدرّس اللاتينية هى أن

يعوّد نفسه على استعمال لقبه مع اسم آخر. ما أعرفه حقا هو أنني عندما سمعتُ اسمى مرتبطا بذلك اللقب اجتاحتنى رغبة عارمة فى أن أسبّ وألعن. لكن الرغبة فى هذه الحالة كانت بالأحرى فكرة ، فكرة بلا لسان ظلّت صامتة خرساء ، تماما مثل أفكار أخرى بعد ذلك بدقائق قليلة... لكن هذه الأفكار يلزمها فصل خاص. فلنصلْ بهذا الفصل إلى نهايته بالقول أن مدرّس اللغة اللاتينية تكلّم لبعض الوقت عن رَسْمى قسّيسا ، وإنْ كان ذلك بلا اهتمام كبير. كان يحاول أن يتحدّث عن شىء آخر لكى يبدو غافلا عن مجده الخاصّ ، لكنه هو كان الشىء الذى بهره فى تلك المناسبة. كان رجلا عجوزا نحيلا ، يتّصف بصفات حميدة. كان يتّصف أيضا بقليل من العيوب. كان أبرز هذه العيوب وَلَع بالطعام الجيّد ، لكن هذا لا يعنى على وجه الدقة أنه كان شرها. كان يأكل قليلا لكنه كان يقدّر تقديرا عاليا ما هو ممتاز ونادر ، ولم يكن مطبخنا ، وإن كان بسيطا ، فقيرا كمطبخه تماما. لهذا ، عندما طلبتْ منه أمى يبقى معنا لنتغدّى ونحتفل ، ربّما كانت النظرة التى قَبِل بها ذلك نظرة أمين ، لكنها لم تكن بابويّة. لينال رضا أمى ، ركّز علىّ من جديد ، واصفاً مستقبلى الكنسىّ ، طالباً أن يعرف ما إذا كنتُ سأدخل المعهد الدينى حينئذ ، فى السنة القادمة ، عارضاً أن يكلّم « مولانا الأسقف » — وانطلق الجميع يصيحون: « الأمين سانتياجو ».

٣٦- فكرة بلا رِجلَيْن وفكرة بلا ذراعَيْن

تركتُهم بحجّة أنني ذاهب لألعب ، وانصرفتُ لأستغرق في التفكير في مغامـرة الصباح. كان ذلك أفضل ما يمكنني أن أفعل ، بدون اللاتينية ، وحتى باللاتينية. بعد خمس دقائق قرّرتُ أن أجرى إلى البيت المجاور ، فأُمسك بكاپيتو ، وأحلّ ضفيرتيْها ، وأضفرهما من جديد ، وأُنهى العمل فيهما بتلك الطريقة المحدّدة ، والفم على الفم. هذا هو ، انطلقْ ، فلنذهبْ... فكرة ! لا أكثر ! فكرة بلا رِجْلَيْن ! الرِّجْلان الأخريان لم ترغبا لا فى الجرى ولا فى المشى. لم تتحركا إلاّ بعد ذلك بكثير بخُطى متمهّلة فحملتانى إلى بيت كاپيتو. عندما وصلتُ ، وجدتُها فى حجرة الجلوس ، نفس حجرة الجلوس ، تجلس على أريكة ، فى حِجْرها وسادة ، تخيط بهدوء. لم تنظر إلىّ فى وجهى ، بل بطرف العين وبخوف ، أو إنْ كنتَ تفضّل أسلوب التابع ، بانحراف وبخبث. ظلّت يداها ساكنتيْن ، بعد أن غرزتْ الإبرة فى الثوب. وقفتُ عند الجانب الآخر من المنضدة ، ولم أعرف ماذا أفعل. مرة أخرى ، هجرتنى الكلمات التى جئتُ بها. بهذه الطريقة أضعنا دقائق طويلة عديدة ، إلى أن تركتْ خياطتها تماما ، ونهضتْ ، وانتظرتْنى. ذهبتُ إليها ، وسألتُها ما إذا كانت أمها قالت شيئـا. أجابت « لا ». أثارت شفتاها فىّ ، وهى تُجيب ، بادرة اقتراب. على أية حال ، تراجعتْ كاپيتو قليلا إلى الوراء.

عندئذ كان الوقت حان لأمسك بها ، فأجذبها إلىّ وأقبّلها... فكرة ! فكرة بلا ذراعيْن ! ذراعاى أنا تدلّيا رخْويْن وميّتيْن. لم أكن أعرف شيئا من التوراة. لو عرفتُ ، لكان من المحتمل أن يدفعنى روح الشيطان إلى أن أمنح اللغة الصوفية لنشيد الأنشاد مغزى مباشرا وطبيعيا. عندئذ كان

لابدّ لى أن أطيع النشيد الأول: « لِيضعْ شفتيْه على شفتىّ وليقبّلنى بقبلات فمه ». وفيما يتعلّق بالذراعيْن ، اللذيْن كانا هامديْن فى حالتى ، كان يكفى أن أنفّذ الآية: ٦ من الأصحاح: ٢ « يساره تحت رأسى ويمينه يعانقنى ». هنا ، يا إخوانى ، ترون التسلسل التاريخى للإيماءات. لم تكن المسألة سوى مسألة وضعها موضع التنفيذ. مع ذلك ، حتى لو كنتُ عرفتُ النصّ ، كان موقـف كاپيتو فى تلك اللحظة بالغ الانكماش إلى حدّ أننى لا أدرى ما إذا كان علىّ أن أظلّ ساكنا بلا حراك. وفى غضون ذلك ، كانت هى التى حرّرتنى من ذلك الموقف.

٣٧ - الروح ملىء بالأسرار

« هل كان الأب كابرال ينتظر منذ وقت طويل ؟ »

« لم يكن لدىّ درس اليوم. حصلتُ على إجازة ».

شرحتُ لها سبب الإجازة. أخبرتُها أيضا كيف تحدّث الأب كابرال عن دخولى المعهد الدينى ، وساند قرار أمى ، وقلتُ بعض الأشياء البذيئة عنه. فكّرتْ كاپيتو قليلا ، ثم سألتْ ما إذا كان ينبغى لها أن تذهب وتقدّم تهانيها للأب ، فى ذلك الأصيل ، فى بيتنا.

« بالتأكيد ، لكنْ لماذا ؟ »

« أبى أيضا سيرغب فى الذهاب طبعا ، لكنْ من الأفضل له أن يذهب إلى بيت الأب ، سيكون ذلك أكثر لياقة. لكنْ ليس لى ، نظرا لأننى سيدة شابة تقريبا » ، وأنهتْ كلامها بضحكة.

شجّعتْنى الضحكة. بدت كلماتها سخرية من نفسها ، حيث أننى ، منذ الصباح ، كنتُ أرى أنها صارت امرأة وأننى صرتُ رجلا. أحسستُ أن نكتتها ساحرة ، ولأكون صادقا عقدتُ العزم على أن أُثبت لها أنها

غدتْ سيدة شابة تامة النضج. أمسكتُ بيدها اليمنى بخفّة ، ثم بيدها اليسرى ، ووقفتْ هكذا مذهولا ومرتجفا. كانت فكرة بذراعيْن. رغبتُ فى أن أجذب يدىْ كابيتو لأجبرها على أن تأتى وراءهما ، لكن الفعل لم يكن استجاب بعدُ لرغبتى. مع ذلك ، أحسستُ أننى قوىّ وجسور. لم أكن أقلّد أحدا. لم أكن اختلطت كثيرا مع أولاد أكبر منى ربما كانوا سيرشدوننى بحكايـات الحب. لم أكن سمعتُ أبـدا عن اغتصـاب لوكريشيـا. وبقدر ما يتعلق الأمر بالرومان ، لم أكد أعرف أكثر من أنهم كانوا يتكلمون حسب قواعد الأب بيريرا للنحو والصرف وأنهم كانوا من مُواطنى بيلاطس البنطى. لا أنكر أن نهاية تمشيط الشعر ذلك الصباح كانت خطوة كبرى على طريق رحلة عاشق ، لكن البادرة فى تلك اللحظة كانت مناقضة تماما لهذه الجديدة. فى الصباح أحنتْ رأسها إلى الوراء ؛ والآن كانت تنكمش مبتعدة عنى. لم تختلف المجازفتان بهذا الخصوص فقط. هناك نقطة أخرى ، رغم ما بدا أنه تكرار ، كان هناك اختلاف صارخ.

أعتقد أننى أتيتُ بحركة لأجذبها إلىّ. لن أُقسم على هذا. كنت أزداد اهتياجا بمزيد من الابتهاج إلى حدّ أننى لم أكن واعيا تماما بكلّ تصرّفاتى. لكننى أستنتج أن هذا كان هو الحال ، لأنها تراجعتْ إلى الوراء وحاولتْ أن تنتزع يديْها من يدىّ. عندئذ ، ربما لأنها لم تستطع أن تتراجع أكثر ، وضعتْ إحدى قدميها أمامها لترتكز عليها ، وتراجعت إلى الوراء بصدرها. هذه الحركة هى التى أجبرتنى على أن أتشبّت بيديْها بقوة. أخيرا أصاب الإنهاك صدرها فاستسلم لكن رأسها ظلّ رافضا أن يستسلم ، ومرتدّا إلى الوراء أبطل كل محاولاتى ، ذلك أننى كنت فى هذه اللحظة أقوم بمحاولات ، أيها القارىء العزيز. ولمّا كنتُ غير مطّلع على درس نشيد الأنشاد ، لم يخطر ببالى أن أمدّ يدى اليسرى وأضعها تحت رأسها. إلى جانب ذلك ، تفترض هذه الحركة سلفا اتّفاق الإرادتيْن ، لكن

كاپيتو ، التى كانت تقاومنى فى تلك اللحظة ، كانت ستستغلّ تلك الحركة لتنتزع نفسها من يدى الأخرى وتفلت منى تماما. وقفنا ثابتَيْن فى هذا الصراع ، دون صوت ، فرغم الهجوم والدفاع لم نتخلّ عن الحذر الضرورى للحيلولة دون أن يسمعنا أحد فى البيت: الروح ملىء بالأسرار. أعرف الآن أننى كنت أجذبها. ظلّ رأسها يتراجع إلى الوراء إلى أن أصابه الإرهاق بدوره ؛ لكنْ عندئذ جاء دور الفم. بدأ فم كاپيتو حركة عكسية لحركتى ، ذاهبا إلى ناحية عندما كنت أبحث عنه فى الناحية الأخرى. ظللنا فى هذا التوازُن نترنّح إلى الوراء وإلى الأمام دون أن تغدو جسارتى أكثر قليلا ، وكان الأكثر قليلا يكفى ...

عندئذ سمعنا طرْقاً وصياحا على الباب الأمامى. كان ذلك والد كاپيتو. كان عـاد من المكتب مبـكرا قليــلا ، كما كــان يفعـل أحيانـا. « افتحى ، ناناتا ! كاپيتو ، افتحى الباب ». فى ظاهر الأمر كانت هذه المجازفة أشبه بمجازفة الصباح ، عندما فاجأتْنا أمها ، لكنْ فى ظاهر الأمر فقط. كانت فى الواقع مختلفة تماما. خُذْ فى اعتبارك أنه فى الصباح كان كل شىء انتهى وكانت خُطى دونا فورتوناتا إشارة لنا لنهدّىء نفسنا. أما فى تلك اللحظة فكنّا نتصارع بأيدٍ مشتبكة ، ولا شىء كان بدأ أصلا.

سمعنا الترباس ينفتح: كانت أم كاپيتو تفتح الباب. لأننى أرى أننى أقدّم اعترافا كاملا ، سأقول هنا دون لفّ أو دوران أننى لم أجد الوقت لأترك يدىْ حبيبتى. فكّرتُ فى ذلك. كنتُ أوشك أن أفعل ذلك ، لكن كاپيتو ، قبل أن يكون بإمكان أبيها أن يدخل الحجرة ، أتتْ بحركة لم يكن فيها أىّ أمل ، وضعتْ فمها على فمى ، ومنحتْ طوعا ما كانت رفضت أن تمنحه قسرا. إننى أكرّر : الروح ملىء بالأسرار.

٣٨ - « يا إلهى ، يا لها من مباغتة ! »

بعد قليل أتى پادْوا عَبْرَ الصالة إلى حجرة الجلوس ، وكانت كاپيتو تقف وظهرها إلىّ ، منحنية على ما كانت تخيط ، كأنما لتجمعه ، وكانت تسأل بلهجة طبيعية:

« لكنْ ، يا بنتينيو ، ما المقصود بالأمين اليابوى ؟ »

« حسنا ، بارك الرب فيكما ! »

« يا إلهى ، يا لها من مباغتة تطالع بها شخصا ! »

عندئذ تمخّضت المجازفة عن نفس الشىء. وإذا كنتُ رويتُ المجازفتيْن اللتين وقعتا منذ أربعين عاما ، كما حدثتا تماما ، فذلك لأبيِّن أن كاپيتو كانت سيِّدة نفسها ليس فقط فى حضور أمها ؛ فأبوها لم يكن يفزعها حتى أكثر قليلا. وفى غمرة موقف تركنى معقود اللسان ، كانت تثرثر بأكبر سذاجة فى العالم. ويقينى هو أن قلبها لم يكن يدقّ لا أسرع ولا أبطأ. زعمتْ أنها بُوغتتْ ، واصطنعتْ مظهرا نصف مقدّس ؛ لكننى ، أنا الذى كنت أعرف القصة بكاملها ، رأيتُ أنه مظهر زائف ، وحسدتُها. أتتْ مباشرةً إلى أبيها الذى كان يُصافحنى ويسألنى عما كانت تعنى ابنته بحديثها عن الأُمناء اليابوييِّن. كرّرت له كاپيتو ما كانت سمعتْه منى وقالت أن من رأيها أن يذهب لتهنئة الأب فى بيته ، وأنها ستذهب إلى بيتى. ثم خرجت إلى الصالة ، وهى تجمع عدّة خياطتها ، ونادتْ بطريقة صبيانية: « ماما ، الغداء ، عاد بابا ».

٣٩ - النّداء

كان الأب كابرال فى تلك الساعة الأولى للمجد التى يكون فيها لأتفه التهانى وقع قصائد الشعر. ويأتى وقت يتلقّى فيه الرجل اللامع المدح وكأنه ثناء معهود ، بوجه خالٍ من التعبير ، ودون شكر. ونشوة الساعة الأولى أفضل ؛ فتلك الحالة الروحية التى ترى فى مَيْل نبتة مع الريح ولاءً وإجلالَ فلورا الكونية ، تجلب أحاسيس أكثر حميمية وأكثر رقّة من أىّ شىء آخر. وسمع كابرال كلمات كاپيتو بسعادة بلا حدود.

« شكرا ، يا كاپيتو ، شكرا جزيلا. أنا سعيد بأنك أيضا مسرورة. بابا بخير ؟ وماما ؟ لا حاجة إلى السؤال عنك ؛ ذلكما الخدّان المتورّدان يتكلّمان بنفسهما. وما أخبار صلواتنا ؟ »

على كلّ الأسئلة ، أجابت كاپيتو إجابات فورية وسليمة. كانت تلبس فستانا صغيرا لطيفا وكانت تلبس أفضل حذاء لديها. لم تدخل بأُلفتها المعهودة ، بل تأنّتْ لحظة عند باب الحجرة قبل أن تذهب لتقبّل يد أمى ، ويد الأب. وفيما كانت تمنح الأخير ، مرتيْن فى غضون خمس دقائق ، لقب الأمين ، ألقى چوزيه دياس ، لكى يكون فى طليعة المسابقة ، خطبة قصيرة على شرف « القلب الأبوى والنبيل لپيوس التاسع ».

« أنت خطيب عظيم ، » قال الخال كوزمه ، عندما أنهى خطبته.

ابتسم چوزيه دياس دون أن ينتبه إلى الإهانة. أكّد الأب كابرال مديح التابع ، لكنْ بدون صيَغ تفضيله. أضاف چوزيه دياس إلى ذلك أن الكاردينال ماستاىْ كان بكلّ وضوح مُعَدًا للتاج البابوى المثلّث منذ البداية. وانتهى ، وهو يغمز لى ، إلى القول:

« النداء هو كلّ شىء. المنزلة الكنسية هى غاية الكمال ، بشرط أن يصل إليها القسّيس مكرّسا لها من مهده. إذا لم يشعر بالنداء ، أعنى

نداءً مخلصا وصادقا ، ربما كان من الأفضل لشاب أن يدرس الإنسانيات ، التى هى أيضا مفيدة ومُشرِّفة ».

تحدّاه الأب كابرال بسرعة: « النداء شىء عظيم ، لكن قوة الرب غالبة. قد لا يكون لرجل أىّ ميل إلى الكنيسة ، بل قد يضيق بها ، وذات يوم يكلّمه صوت الرب وينتهى إلى أن يكون رسولا. انظرْ إلى القديس بولس ! »

« لا أنكر ذلك ، لكن ما أقوله شىء مختلف. ما أقوله هو أنه من الممكن تماما للمرء أن يخدم الرب ، وأن يخدمه بكل معنى الكلمة ، دون أن يكون قسّيسا ، هناك فى العالم. أهذا ممكن أم غير ممكن ؟ »

« ممكن ».

« حسنا إذن ! » صاح چوزيه دياس وهو ينظر حوله بزهو الانتصار. « بدون النداء ، لا يمكنك أن تكون قسّيسا جيدا ؛ وفى كلّ مهنة مشرِّفة يمكن للمرء أن يخدم الرب ، كما ينبغى أن نفعل جميعا ».

« صحيح تماما ، لكن النداء لا يبدأ بالضرورة فى المهد ».

« وهو رجل ، هذا أفضل ».

« يمكن لصبىّ بلا أى ميل إلى الحياة الكنسية أن ينتهى إلى أن يكون قسّيسا جيدا للغاية. كل شىء كما يقدّر الرب. لا أريد أن أقدّم نفسى كمثال ، لكن ها أنا ذا ، أنا الذى وُلدتُ بنداء إلى الطب. أبى فى العماد ، والذى كان مساعد أسقف سانتا ريتا ، ظلّ وراء أبى ليدخلنى المعهد الدينى ؛ ونزل أبى عند رأيه. حسنا ، يا سيدى ، اكتسبتُ ذلك الميل نحو دراساتى ونحو رفاقى من القساوسة ، بحيث انتهيتُ إلى رَسْمى قسّيسا . لكنْ افترضْ أن الأمر لم ينته إلى ذلك ، ولم يتغيّر ندائى ، ماذا كان سيحدث ؟ كنتُ سأدرس الموادّ المقرّرة فى المعهد الدينى والتى من المفيد أن نعرفها والتى يتم تدريسها على نحو أفضل فى تلك المعاهد ».

تدخّلت ابنة العم چوستينا فى الحديث: « ماذا ؟ هل من الممكن دخول المعهد الدينى دون التخرُّج قسّيسا ؟ »

أجاب الأب كابرال ب « نعم » ، بأن المرء يمكنه ذلك. ثمّ تكلّم ، مستديرا إلىّ ، عن ندائى ، الذى كان جليًا: كانت لُعَبى دائما أشياء كنسيّة ، وكنتُ أعشق الصلاة العامة. البراهين لم تبرهن شيئا. كان كل الأطفال فى زمنى أتقياء. أضاف كابرال أن قسّيس سان چوزيه ، الذى كان أخبره مؤخّرا بنَذْر أمى ، اعتبر مولدى معجزة ، و كان هو من نفس الرأى. كاپيتو ، التى كانت تتعلّق بأذيال أمى ، لم تُعِرْ النظرات القلقة التى أرسلتُها إليها أىّ التفات. لا و لا بَدَا أنها تُصغى إلى الحديث الذى دار حول المعهد الدينى ونتيجته ، ومع ذلك حفظتْ أغلبه عن ظهر قلب ، كما تأتّى لى أن أعرف فى وقت لاحق. مرّتين ذهبتُ إلى النافذة، على أمل أن تأتى هى أيضا ، وأن نبقى هناك، حميميْن ومنفرديْن إلى نهاية العالم ، إنْ كان له أن ينتهى فى وقت من الأوقات ، لكن كاپيتو لم تأتِ إلىّ. كان الوقت يقترب من عتمة المساء. حيّتْنا تحية الوداع.

« اذهبْ معها ، يا بنتينيو ، » قالت أمى.

« لا ، لا حاجة إلى ذلك ، يا دونا جلوريا ، » ضحكتْ ، « أنا أعرف الطريق. وداعا ، أيها السنيور الأمين... »

« وداعا ، كاپيتو ».

خطوتُ خطوة فى اتجاه عبور الحجرة. من الجلى أن ذلك كان واجبى ، ورغبتى ، وكانت كل بواعث شبابى وبواعث المناسبة تدفع إلى أن أعبر تلك الحجرة ، وأتبع جارتى عبْر الصالة ، وأنزل إلى الفناءيْن ، وأدخل الحديقة ، وأعطيها قبلة ثالثة ، وأتمنى لها أن تصبح على خير. لم ألتفت مطلقا إلى رفضها لأننى اعتبرتُه زائفا ، وخرجتُ إلى الصالة. لكن كاپيتو ، التى كانت تمشى بسرعة ، وقفتْ

وأومــــأت إلىّ أن أعـود. لم أُطعْها، ووصلتُ إليهــا.

« لا، لا تأت ! سنتكلم غدا ».

« لكننى أريد أن أخبرك ... »

« غدا ».

« اسمعى ! »

« لا، ابْقَ هنا ! »

تكلّمتْ بنعومة. أمسكتْ بيدى ووضعتْ إصبع يدها على شفتيْها. زنجيّةٌ، كانت أتتْ من الداخل لتُوقد فانوس الصالة الكبير، رأتْنا فى ذلك الوضع، مختفييْن تقريبا فى الظلال. ضحكتْ بتعاطف، وغمغمتْ، بصوت مرتفع بما يكفى لنسمع، بشىء لم أكدْ أميّزه لكننى لم أعجز مع ذلك عن فهمه. همستْ لى كاپيتو بأن الجارية ارتابت فى شىء ما وربما أخبرتْ الآخرين. مرةً أخرى أجبرتنى على البقاء، وبدأت تبتعد. ظللتُ بلا حراك، ثابتا، مثبّتا فى الأرض.

٤٠ - فـــرَس

متروكا وحدى، فكّرت بعض الوقت، واستغرقتُ فى حلم يقظة. سبق لك أن تعرّفت على أحلام يقظتى. أخبرتُك بذلك الخاص بالزيارة الامبراطورية. أخبرتُك بذلك الخاصّ ببناء هذا البيت فى إنچنيو نوڤو نسخةً طبق الأصل من بيت ماتاكاڤايّوس ... ظلّ الخيــال رفيــق وجـودى كلّه - نشيطا، سريعا، قلقا، وأحيانا جبانا وفزِعا، وفى أغلب الأحيان مستعدّا لأن يلتهم فى طريقه سهلاً فوق سهل. أعتقد أننى قرأتُ فى كتاب تاكيتوس أن الأفراس الايبيرية كانت تحبل من الريح. إنْ لم يكن هو، فلابدّ أنه مؤلّف قديم آخر ذلك الذى كان حريصا بما فيه الكفاية على أن

يحافظ على هذا المعتقد السخيف. وبهذا الخصوص كان خيالي فرسا ايبيريّة عظيمة: كانت أقلّ نسمة تمنحه مُهْرًا ينمو في الحال ليغدو بوسيفالوس* لكن دَعْنا نترك هذه التعبيرات المجازية التي هي جريئة ولا تتلاءم مع عمري الذي كان خمس عشرة سنة. دعنا نقرّر الحالة ببساطة. كان حلم يقظتي في تلك الساعة أن أعترف بعلاقتي الغرامية لأمي لكي أجعلها تعرف أنني لم أحسّ بالنداء الكنسيّ. الحديث الذي دار عن النداء عاد إليّ بكامله ، ورغم أنه ملأني رُعبا قدّم إليّ مخرجا في الوقت ذاتـه. :نعم ، هذا هو ، « فكّرتُ » ، « سأقول لماما أنني لا أحسّ بالنداء. سأعترف لها بممارستنا الحبّ. إذا شكّتْ في ذلك ، سأروي لها ما حدث في ذلك اليوم ، عن تمشيط الشعر ، والباقي ... »

٤١ - المقابلة الخاصة

جعلني « الباقي » أبقى وقتا أطول قليلا في الصالة ، مفكّرا. رأيتُ الدكتور چوان داكوستا يدخل ، وتمّ ترتيب منضدة لعبة الأومبر* كالمعتاد. خرجت أمي من حجرة الجلوس ، وعندما لمحتْني سألتْني ما إذا كنتُ وصّلْتُ كاپيتو إلى بيتها.

« لا ، يا سنيورة ، ذهبتْ وحدها ». ثم وأنا أقذف بنفسي تقريبا بين ذراعيها: « ماما ، أريد أن أقول لك شيئا ».

« ما هو ؟ » مذعورة تماما ، أرادت أن تعرف أين كان الألم ، في رأسي ؟ في صدري ، في معدتي ؟ جسّتْ جبهتي لتعرف ما إذا كانت أصابتني حُمّى.

---

* بوسيفالوس : حصان الاسكندر الأكبر – المترجم
* الأومبر . لعبة ورق – المترجم

« ليس بى أىّ ألم على الإطلاق ، يا سنيورة ».

« إذن ما هو ؟ »

« شىء ما ، يا ماما ... لكن ... انظرى ، من الأفضل بعد الشاى ، فيما بعد ... ليس شيئا سيّئا. أنتِ تفزعين من كل شىء ، يا ماما. ليس شيئا يدعو إلى القلق ».

« لا تشعر بمرض ؟ »

« لا ، يا سنيورة ».

« لكنك تشعر ، عادت إليك نزلة البرد. أنت تتظاهر حتى لا نُجبرك على أخذ الدواء لكنك مصاب ببرد ؛ أعرف ذلك من صوتك ».

حاولتُ أن أضحك ، لأثبت لها أنه لم يكن بى أىّ سوء. لم تكن الضحكة مقنعة. لم تكن لتتركنى أؤجّل سرِّى. أمسكتْ بى ، ساقتْنى إلى حجرة نومها ، أضاءت شمعة وأمرتْنى بأن أخبرها بكل شىء. سألتُها ، لكى أجد بداية ، متى سأدخل المعهد الدينى.

« فى بداية السنة ، بعد الإجازة ».

« سأذهب ... لأبقى ؟ »

« لتبقى ؟ »

« لن أعود إلى البيت أبدا ؟ »

« ستعود إلى البيت فى نهايات الأسابيع والإجازات. هذا أفضل. بعد رَسْمك قسّيسا ، ستأتى لتعيش معى ». مسحتُ عينىّ وأنفى. هدّأتْنى بلطف ، ثم قرّرتْ أن تؤنّبنى ، لكننى أعتقد أن صوتها ارتجف ، وبدا لى أن عينيها كانتا دامعتيْن. قلتُ لها أننى أيضا أحسّ بفراقنا. قالت أنه ليس فراقا ، بل مجرّد قَدْر من الغياب من أجل دراساتى ؛ الأيام القليلة الأولى فقط. وفى غضون فترة قصيرة أكون اعتدتُ على زملاء الدراسة والمدرّسين ، وأكون انتهيتُ إلى أن أحبّ حياتى معهم.

« أنا أحبك أنت فقط ، يا ماما ».

لم يكن هناك أيّ حساب فى هذه الإجابة ، لكننى كنتُ سعيدا بأننى قلتُ ذلك ، ليبدو أنها كانت حبى الأوحد ؛ كان من شأن ذلك أن يُحوّل ارتيابها عن كاپيتو. ما أكثر النوايا الشريرة التى تتسلّق على ظهر عبارة نقيّة وبريئة ، بعد أن تكون أخذت طريقها بالفعل ! ذلك يكفى لأن يجعل المرء يرتاب فى أن الكذب هو ، فى كثير من الأحيان ، لا إرادى شأنه شأن التنفُّس. من ناحية أخرى ، أيها القارىء الكريم ، لاحظْ أننى رغبتُ فى أن أحوّل الارتياب عن كاپيتو ، رغم أننى كنت أبحث عن أمى للغرض الواضح المتمثّل فى تأكيد مثل هذا الارتياب ؛ لكن التناقضات أصيلة فى هذا العالم. والحقيقة أن أمى كانت نقية نقاء أوّل فجر ، قبل الخطيئة الأولى. لم يكن بإمكانها حتى بالحدس البسيط أن تستنتج شيئا من آخر: أىْ ، لم تكن لتستنتج أبدا من معارضتى المفاجئة أننى كنت أختبىء فى الأركان مع كاپيتو ، كما كان قال چوزيه دياس. ظلّتْ صامتة دقائق قليلة ، ثم أجابت دون أىّ خداع أو تأكيد للسلطة إلى حدّ أن ذلك شجعنى على المقاومة ، على أن أكلّمها عن النداء الذى كان نُوقش فى ذلك الأصيل ، وعلى أن أعترف بأننى لم أحسّ به فى داخلى.

« لكنك اعتدت أن تريد أن تكون قسّيسا ، » قالت. « ألا تتذكّر كيف كنتَ تتوسّل للذهاب لمشاهدة طلاّب المعهد الدينى وهم يخرجون من سان چوزيه ، بأرديتهم الكهنوتية ؟ وعندما كان چوزيه دياس يناديك ب « قداستكم » كان من عادتك أن تضحك بابتهاج. كيف يمكن أن يكون ذلك الآن. أنتَ...؟ لا. لا أصدّق ذلك ، يا بنتينيو. ثمّ ... النداء ؟ لكن النداء يأتى مع العادة » ، وواصلتْ كلامها ، مكرّرةً الملاحظات التى كانت سمعتْها من شفتىْ مدرّسى للغة اللاتينية.

بينما كنتُ أسعى إلى النقاش معها ، أنّبتْنى ، ليس بحدّة لكن

بشىء من الحزم ، ومرةً أخرى أصبحتُ الابن المطيع. ثمّ تكلّمتْ بوقار وبإسهاب عن النذر الذى نذرتْه. لم تخبرنى بالملابسات ، ولا بالمناسبة ، ولا بالأسباب- هذه الأشياء التى لم أصل إلى معرفتها إلاّ بعد ذلك بكثير ، أعادت تأكيد الفكرة الرئيسية ، أىْ فكرة أن النذر كان لابدّ من الوفاء به ، وفاءً للربّ.

« ربّنا استجاب لصلاتى ، وأبقى على حياتك. لا ينبغى أن أكذب عليه أو أخذله ، يا بنتينيو. هناك أشياء لا يمكننا أن نفعلها دون ارتكاب خطيئة ، والرب ، الذى هو عظيم وجبّار ، لن يعفو عنى إن فعلت. لا ، يا بنتينيو ، أعرف أننى سأعاقَب ، سأعاقَب عقابا أستحقّه. إنه لشىء عظيم ومقدّس أن يصبح المرء قسّيسا. أنت تعرف كثيرين ، مثل الأب كابرال ، الذى يعيش بكلّ سعادة مع أخته. لى عمٌّ كان قسّيسا ، يُقال أنه فاته بالكاد أن يكون أسقفًا ... كُفَّ عن هذه الحيل الخبيثة ، يا بنتينيو ».

أعتقد أن العينيْن اللتين أدَرْتُهما إليها كانتا مليئتيْن باللوم إلى حدّ أنها غيّرتْ الكلمة بسرعة. حيلة ، لا ، لم يكن من الممكن أن تكون حيلة. كانت تعرف جيدا أننى أحبّها حبّا شديدا ولم أكن لأتظاهر بشىء لم أشعر به. النعومة – هى ما كانت تريد أن تقوله ، أننى ينبغى أن أكفّ عن أن أكون ناعما ، أننى ينبغى أن أكون رجلا فأؤدى واجبى ، إكراما لها ومن أجل روحى. كلّ هذه الأشياء ، وأشياء أخرى ، قيلتْ بشىء من التعلثم ، ولم يكن صوتها صافيا بل كان أجشَّ ومختنقا. لاحظتُ أن انفعالها اشتدّ مرة أخرى لكنها لم تتراجع عن موقفها ، وجازفتُ بسؤالها:

« لكن أيمكنكِ أن تتضرّعى إلى الرب أن يجعلك فى حِلٍّ من نَذْرك ، يا ماما ؟ »

« لا ، لن أتضرّع إلى الرب من أجل ذلك. هل جُنِنْتَ ، يا بنتينيو ؟ و كيف لى أن أعرف أن الرب جعلنى فى حِلٍّ من النذر ؟ »

« ربما فى حلم. أنا أحلم أحيانا بالملائكة والقديسين ».

« هـذا ما يحدث لى أيضا ، يا بنىّ ؛ لكن لا جدوى من ذلك ... تعالَ ، الوقت تأخَّر. لننزل إلى حجرة الجلوس. هل فهمت كل شىء ؟ فى الشـهر الأول أو الثـانى من السنـة القادمـة ، ستدخـل المعهد الدينى. ما أرجوه منك هو أن تلتفت إلى الكتب التى تدرسها ، بكل اجتهاد. سيبدو كل شىء على ما يرام ، ليس لك فقط ، بل أيضا للأب كابرال. وفى المعهد الدينى كلُّهم يتلهّفون على لقائك لأن الأب كابرال يتكلّم عنك بحماس ».

سارت نحو الباب. خرجنا كلانا. لكن قبل أن تعبُر عتبة الباب استدارت نحوى ، ورأيتُها تقريبا تُلقى بذراعيها حول رقبتى وتقول لى أننى لن أكون مجبرا على أن أكون قسيسا. كانت هذه رغبتها الأكثر عمقا ، عندما أخذ الوقت يقترب. كانت تبحث عن طريقة لسداد الدين الذى كانت استدانته ، كانت تبحث عن عملة أخرى تكون لها نفس القيمة ، أو أكثر ، ولم تجد أىّ عملة.

٤٢- كابيتو تفكّـر

فى اليوم التالى ذهبتُ إلى البيت المجاور ، بمجرّد أن كان ذلك بإمكانى. كانت كابيتو تودِّع صديقتيْن كانتا جاءتا لزيارتها ، هما پاوْلا وسانشا ، وهما فتاتان كانت عرفتْهما فى المدرسة الداخلية – الأولى فى الخامسة عشرة ، والأخيرة فى السابعة عشرة ، الأولى ابنة طبيب ، والثانية ابنة تاجر فى البضائع الأمريكية. كانت مكتئبة ، وكانت تربط منديلا حول رأسها. قالت لى أمها أن ذلك بسبب قراءتها أكثر مما ينبغى فى الليلة السابقة ، قبل وبعد الشاى ، فى حجرة الجلوس وفى الفراش ، إلى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل ، وبمصباح ليلىّ ...

« لــو كنتُ أضــأتُ شمعـة ، كنت ستغضبـين ، يا مامـا. أنا الآن على ما يرام ».

وبينما كانت تحلّ المنديل ، أشارت أمها بتردُّد إلى أن من الأفضل أن تتركه مربوطا على رأسها ، لكن كابيتو ردّت بأن ذلك ليس ضروريا ، وأنها تشعر بأنها أفضل.

بقينا وحدنا في حجرة الجلوس. أكّدتْ كابيتو قصة أمها ، وأضافت أنها قضت ليلة سيئة بسبب ما سمعتْه في بيتنا. أخبرتُها بما حدث لي ، الحديث مع أمي ، التماساتي ، دموعها ، وأخيرا إجاباتها النهائية الحاسمة: في غضون شهرين أو ثلاثة أشهر سأدخل المعهد الديني. ماذا نفعل إذن؟ أصغتْ كابيتو إليّ بانتباه شرِه ، ثم باكتئاب. عندما انتهيتُ تنفّستْ تنفُّسا ثقيلا ، وكأنها تُوشك على الانفجار من شدّة الغضب ، لكنها تمالكت نفسها.

حدث ذلك منذ وقت طويل إلى حدّ أنني لا يمكنني أن أذكر على وجه التأكيد ما إذا كانت بكتْ فعلا أم مسحتْ عينيها فحسب. أظنّ أنها مسـحت عينيها فحسب. عندما رأيتُ تلك البادرة ، أمسكتُ بيدها لأشجّعها ، لكنني أنا أيضا كنتُ بحاجة إلى تشجيع. غُصْنا في الأريكة وجلسنا نحملق في الهواء. لا ، أنا مخطيء ، كانت تحملق في الأرضيّة. فعلتُ نفس الشيء ، بمجرّد أن لاحظتُ ذلك... . لكنني أعتقد أن كابيتو كانت تنظر إلى الداخل ، إلى داخل نفسها ، فيما كنتُ أنظر حقّا وصدقا إلى الأرضية ، الشقوق الرثّة ، ذبابتيْن تمشيان بسرعة ، رِجْل كرسيّ محطّم. لم تكن أشياء كثيرة ، لكنها صرفت ذهني عن متاعبي. عندما عُدت إلى النظر إلى كابيتو ، وجدتُ أنها جلست صارمة وساكنة ، وفزعتُ إلى حدّ أنني هززتُها بلطف. عادت كابيتو إلى العالم ، وطلبتْ مني أن أقول لها مرة أخرى ما حدث بيني وبـين أمـي. أطعتُها ، فقط خفّفتُ

النصوص هذه المرة لكى لا أثير ضيقها. لا تصفنى بأننى مخادع ، صِفْنى بأننى مُشفق. صحيح أننى كنت أخشى أن أفقد كاپيتو إذا تلاشت كل آمالها ، لكنْ آلمنى أن أراها تُعانى. والآن فإن الحقيقة النهائية ، حقيقة الحقائق ، هى أننى ندمت فى تلك اللحظة على أننى تكلّمت مع أمى قبل أن يكون هناك أىّ عمل فعّال من جانب چوزيه دياس. وعندما أُنعم التفكير فى ذلك أجد أننى لم أكن وصلت فى الواقع إلى التحرّر من الأوهام لكننى كنت أدركتُ مع ذلك أنه كان أكيدا ، عاجلا أو آجلا. وكانت كاپيتو تفكّر ، تفكّر ، تفكّر ...

٤٣ - هل أنت خائف ؟

فجأة كفّتْ كاپيتو عن التفكير ، وثبّتتْنى فى مكانى بعينيها اللتين كانتا مثل مدّ البحر ، وسألتْنى ما إذا كنتُ خائفا.

« خائفا ؟ »

« نعم ، أريد أن أعرف ما إذا كنتَ خائفا ».

« خائفا من ماذا ؟ »

« من أن تُضرب علقة ، من أن يُلقَى بك فى السجن ، من الشجار ، من الانطلاق إلى الأمام ، من العمل ... »

لم أفهم. لو أنها قالت ببساطة ، « تعالَ نهرب ! » ربما كنت سأطيع وربما كنت لن أطيع. على أىّ حال كنت سأفهم. لكنْ أن تسأل سؤالا غامضا كذلك السؤال ، دون مقدمات – عجزتُ عن أن أتخيّل ماذا كانت تعنى.

« لكنْ ... لا أفهم. أُضْرَب عَلْقة ؟ »

« نعم ».

« ممّن ؟ من سيضربني ؟ »

أتت كاپيتو بحركة تدلّ على نفاد الصبر. لم تتحرك عيناها اللتان مثل مدّ البحر وبدا أنهما تكبران. لم أستطع أن أفهم بنفسى ، ولم أشأ أن أسألها مرة أخرى. أجهدتُ فكرى: كيف سيحدث أن أُضْرَب علْقة ؟ ولماذا ؟ ولماذا يُلْقَى بى فى السجن ؟ من سيُلْقى بى فيه ؟ ساعدْنى يارب ! بعيْن عقلى رأيتُ الْچوبى ، حفرة مظلمة كريهة الرائحة. ثم رأيتُ سفينة السُّجناء ، وثكنات باربونوس ، ودار الإصلاحيّة. كلّ هذه المؤسسات الاجتماعية العادلة لفتْنى فى سرّها ، ومع ذلك ظلّتْ عينا كاپيتو الشبيهتان بمدّ البحر تكبران وتكبران إلى أن طردتا هذه الأشياء الأخرى من فكرى تماما. كان خطأ كاپيتو أنها لا تتركهما تكبران إلى ما لا نهاية بدلا من تقليصهما إلى أبعادهما الطبيعية ومَنْحِهما حركتهما المعتادة.

عادت كاپيتو إلى نفسها القديمة ، وقالت لى أنها كانت تمزح فحسب ، فلا ينبغى أن أنزعج ، وبحركة كلها رشاقة ربّتتْ على خدّى ، وقالت مبتسمة:

« جبان !

« مَنْ ، أنا ؟ ... لكن ... »

« لا شىء ، يا بنتينيو. فَمَنْ ذا الذى سيضربك أو يُلقى بك فى السجن ؟ سامحْنى ، أنا نصف مجنونة اليوم. كنت أقصد بذلك مجرّد مزحة ».

« لا ، يا كاپيتو. لم تكونى تمزحين. فى وقت كهذا لا أحد منا يشعر برغبة فى المزاح ».

« عندك حقّ. جنونى فقط هو السبب. أراك فيما بعد ».

« ماذا تعنين ، < أراك فيما بعد > ؟ »

« الصداع يعاودنى. سأضع شريحة من الليمون على صدغى ».

فعلتْ كما قالت ، وربطتْ المنديل على جبهتها مرة أخرى. ثم خرجت معى إلى الفناء لتودّعنى. لكننا بقينا هناك دقائق أخرى قليلة ، وجلسنا على حافة البئر. هبّتْ ريح ، وكانت السماء ملبّدة بالغيوم. تكلّمت كاپيتو مرة أخرى عن فراقنا ، وكأنه واقع محتّم وأكيد. بدافع خوفى من نفس ذلك الشىء أخذت أبحث عن مبررات لأشجّعها. عندما كانت تكفّ عن الكلام كانت تخطّ على الأرض بعصا خيزران ، أُنُوفا وبروفيلات. منذ بدأتْ ترسم ، كانت تلك إحدى تسلياتها ؛ كان أىّ شىء يصلُح ورقا وريشة رسم. تذكّرتُ اسمَيْنا اللذيْن كانت حفرتْهما فى الحائط وأردتُ أن أفعل نفس الشىء على الأرض. طلبتُ منها الخيزرانة. لم تسمعْنى ، أو لم تُعْرنى أدنى اهتمام.

٤٤ - الطفل الأول

« ناولينى الخيزارنة. دعينى أكتب شيئا ما ».

نظرتْ كاپيتو إلىّ ، لكنْ بطريقة جعلتنى أفكّر فى تعريف چوزيه دياس: « منحرفتان وخبيثتان ». رفعتْ تحديقها دون أن ترفع عينيها. ثم بصوت خفيض ، سألتْ:

« أريد أن تقول لى شيئا ، لكنْ قلْ الحقيقة. لا تتراجعْ. يجب أن تتكلم بصراحة ».

« ما هو؟ تكلّمى ».

« إذا كان عليك أن تختار بينى وبين أمك ؟ مَنْ تختار ؟ »

« أختار ؟ »

أومأتْ برأسها موافقة.

« سأختار ... لكنْ لماذا أختار ؟ ماما لن تطلب

منــى أبــدا شيئـــا كهــذا ».

« قد لا تطلب منك ، لكننى أسألك. افترضْ أنك فى المعهد الدينى وتلقيتَ خبرا بأننى أموت ... »

« لا تقولى شيئا كهذا ! »

« ... أو بأننى سأقتل نفسى من أجل الحبّ إنْ لم تأتِ فى الحال ، وأمك لا تريدك أن تأتى ، قلْ لى ، هل تأتى ؟ »

« سآتى ».

« ضدّ أمر أمك ؟ »

« ضدّ أمر أمى ».

« تترك المعهد الدينى ، تترك أمك ، تترك كلّ شىء وتأتى لترانى أموت؟ »

« لا تتكلّمى عن الموت ، يا كاپيتو ! »

ضحكتْ كاپيتو ضحكة قصيرة لا لون لها تدلّ على عدم التصديق ، وبعصا الخيزران كتبتْ كلمة على الأرض. انحنيتُ ، وقرأتُ: كاذب.

كان كلّ ذلك غريبا إلى حدّ أننى لم أجد شيئا أقوله. لم أستطع أن أفهم سبب الكلمة المكتوبة ، كما كنتُ عجزتُ عن فهم الكلمات المنطوقة. لو كنتُ فكّرت فى إهانة ، كبيرة كانت أم صغيرة ، ربما كنتُ كتبتُ أيضا ، بنفس الخيزرانة ، لكننى عجزتُ عن التفكير فى أىّ شىء. كان رأسى مجرّد فراغ. فى نفس الوقت ، استبدّ بى خوف من أن أحدا قد يسمع أو يقرأ. مَنْ ، ونحن وحدنا ؟ كانت دونا فورتوناتا جاءت مرةً إلى الباب ، لكنها عادت إلى الداخل فى الحال. كانت العزلة كاملة. وأذكر أن بعض طيور السنونو مرّت فوق الحديقة ومضتْ فى اتجاه مورّو ده سانتا تريزا. ولا شىء آخر. من بعيد ، أصوات مبهمة مشوّشة ؛ فى الشارع وَقْع حوافــر ؛ من ناحيــة البيــت ، السّقسقــة الصاخبة لطيور ياذوا الصغيرة.

لا شىء أكثر ، أو فقط هذه الظاهرة الغريبة: النُّعت الذى كتبتْه كاپيتو لم ينظر إلىّ نظرة خبيثة من الأرض فحسب بل بدا لى أيضا أنه اهتزّ مع الهواء. عندئذ خطرت على بالى فكرة بغيضة: قلتُ لها أن حياة القسيس ، على أىّ حال ، ليست سيئة للغاية ، وأننى يمكن أن أوافق عليها دون أسف شديد. كانت طريقة صبيانية للردّ عليها بالضربات ؛ غير أنه كان يداعبنى أمل خفى فى أنها ستقذف بنفسها بين ذراعىّ ، غارقة فى الدموع. اكتفتْ كاپيتو بفتح عينيها على اتساعهما ، وأخيرا قالتْ:

« القسّيس شىء جيّد ، بلا أدنى شكّ. مع ذلك سيكون الكاهن أفضل ، بفضل الجوارب الأرجوانية. اللون الأرجوانى لون لطيف جدا. فكّر فى ذلك ، سيكون الكاهن أفضل ».

« لكن من غير الممكن أن يصبح المرء كاهنا قبل أن يكون قسّيسا أوّلاً ، » قلتُ ، وأنا أعضّ على شفتىّ.

« حسنا ، ابدأْ بالجوارب السوداء. فيما بعد ستأتى الجوارب الأرجوانية. ما أريد أن أطمئنّ عليه هو ألاّ يفوتنى أوّل قدّاس لك. أخبرْنى فى الوقت المناسب لأصنع فستانا على آخر موضة ، بجونلّة ذات أطواق وكورنيش كبير – لكنْ ربما تغيّرت الموضة عندئذ. لابد أن تكون لك كنيسة كبيرة ، كارْمو أوْ سان فرانسسكو ... »

« أوْ كانديلاريا ».

« أوْ كانديلاريا . أىّ واحدة منها ستكون مناسبة ، بشرط أن أسمع أوّل قدّاس لك. سأظهر بمظهر لائق. سيسأل الناس: « مَنْ هى تلك السيدة الشابة الجذّابة ، التى هناك ، ذات الفستان الجميل ؟ ».

« أوه ، إنها دونا كاپيتولينا ، سيدة شابة كانت تعيش فى شارع ماتاكاڤايّوس... »

« كانت تعيش ؟ هل تنوين الانتقال إلى مسكن آخر ؟ »

« مَنْ يدرى أين سيعيش غدا ؟ » قالت ذلك بلهجة مشوبة بشىء من الانقباض. ثم ، وهى تعود إلى تهكّمها:

« وأنتَ عند المذبح ، ترتدى رداءك الكهنوتى ، وعليه عباءة ذهبية اللون ، ترتّل ... **الصلاة الربانية** ... »

آه ! كم آسف على أنى لستُ شاعرا رومانسيا حتى أروى هذه المبارزة بالتعبيرات التهكّمية ! من طعناتى وطعناتها ، من رشاقة أحدنا وخفة حركة الآخر ، من الدم يتدفّق ، والغضب المحتدم فى الروح ، إلى طعنتى الأخيرة النافذة ، التى كانت هكذا:

« طبعـا ، يا كابيتو ، ستسمعين أول قدّاس لى ، لكن بشـرط واحـد ».

أجابت: « تفضّلْ قداستك بالكلام ».

« أتعدين بشىء واحد ؟ »

« ما هو؟ »

« قولى ما إذا كنتِ تعدين ».

« لن أعد دون أن أعرف ما هو ».

« فى الحقيقة هناك شيئان اثنان ، » واصلتُ الكلام ، لأن فكرة أخرى خطرت على بالى.

« اثنان ؟ قلْ لى ما هما ».

« الأول هو أن يكون اعترافك لى فقط ، أنا وحدى سأمنحك الكفّارة والغفران. الثانى هو ... »

« الأول أعد به ، » قالت كابيتو وهى ترانى أتردّد ، ثم أضافت أنها فى انتظار أن تسمع الثانى.

كم كلّفنى أن أنطق به ، وهل كان ينبغى ألاّ يخرج أبدا من شفتىّ ! ما كنتُ سمعـتُ مـــا سمعتُ ، ومــا كان تعيّـن علىّ أن أكتـب هنـــا

شيئـا قد يجـد المرء أن مـن الصعب تصديقـه.

« الثانى ... نعم ... هو هذا ... عِدِينى بأن أكون القسّيس الذى يتزوّجك ».

« مَنْ يتزوّجنى ؟ » قالت مقلّدة وهى ترتعش قليلا.

ثم أرخـتْ زوايتىْ فمهـا وهزّت رأسهـا. « لا ، يا بنتينيو » ، قالت. « هذا سيعنى الانتظار وقتا طويلا. أنت لن تصبح قسّيسا بين عشيّة وضحاها. هذا سيستغرق عدّة سنين... انظرْ ، سأعدك بشىء آخر: أَعِدُك بأنك ستقوم بتعميد طفلى الأول ».

٤٥ - هزّ رأسك ، أيها القارىء

هُزَّ رأسك ، أيها القارىء. قُمْ بكل إيماءات عدم التصديق الممكنة. بل اقذفْ بهذا الكتاب بعيدا ، إن لم يكن الملل منه دفعك إلى ذلك فعلا قبل الآن بكثير ؛ كل شىء ممكن. لكن إذا كنتَ فعلتَ ذلك الآن فقط ، وليس من قبل ، فأنا واثق من أنك ستلتقطه مرة أخرى وتفتحه على نفس الصفحة ، دون أن تؤمن بالضرورة بصدق المؤلِّف. مع ذلك ليس هناك ما هو أكثر دقّة. فهكذا بالضبط تكلّمتْ كاپيتو ، وبنفس هذه الكلمات. تكلّمتْ عن طفلها الأول وكأنه دُميتها الأولى.

فيما يتعلق بذهولى ، فرغم أنه كان كبيرا إلاّ أنه كان مختلطا بإحساس غريب. أحسستُ بسائل يتدفّق فى داخلى. ذلك التهديد بطفلٍ أوّل ، الطفل الأول لكاپيتو ، زواجها بالتالى من شخص آخر ، الفراق الذى لا رجعة فيه ، الضياع ، الإبادة ، حاصرنى كل ذلك إلى حدّ أننى لم أجد لا كلمة ولا حركة ، بل جلستُ مذهولا. ابتسمتْ كاپيتو ؛ ورأيتُ وليدها البِكْر يلعب على الأرض...

٤٦ - السـلام

يُصنع السلام كالحرب ، بسرعة. ولو كنتُ أنشُد المجد في هذا الكتاب ، لقلتُ أنني أنا الذى بدأتُ المفاوضات ؛ لكنْ لا ، إنها هى التى بدأتْها. فبعد ما سبق بلحظات قليلة ، وفيما جلستُ منكّسا رأسى ، أحنتْ هى أيضا رأسها لكنّ وعيناها تستديران إلى أعلى ، تنظران فى عينيّ، تركتُها تتوسّل إليّ. ثمّ قرّرتُ أن أنهض وأنصرف ، لكننى لم أنهض ، ولا عرفتُ ما إذا كان ينبغى أن أذهب. نظرتْ إليّ كابيتو بعينيْن كانتا فى منتهى الحنان ، وجعلتْنى حالتهما متضرّعا للغاية ، إلى حدّ أننى بقيت. دسستُ ذراعى حول خصرها ؛ أمسكتْ بأطراف أصابعى ، و...

مرة أخرى ظهرتْ دونا فورتوناتا في المدخل. لا أعرف لماذا ، ذلك أنها حتى لم تعطنى وقتا لانتزاع يدى ؛ اختفتْ فى الحال. ربما كان ذلك لمجرّد أن تُريح ضميرها ، مجرّد طقس ، مثل صلوات روتينية تُتْلَى بلا تَقْوَى ويُغمغم بها دفعة واحدة ، إلاّ أنْ كان ذلك لتُثبت لعينيها هى الواقع الذى همس لها به قلبها .... .

مهما يكن من شيء ، استمرّ ذراعى يطوّق خصر ابنتها ، وإنما هكذا صنعنا سلامنا. وكان أفضل ما فيه هو أن كلاًّ منا أراد أن يُلقى اللوم على نفسه ، وتضرّع كلٌّ منا طالبا صفح الآخر. بررتْ كابيتو تصرّفاتها بعدم نومها ، وصُداعها ، واكتئاب مزاجها ، وأخيرا « طَبْعها الردىء ». أما أنا ، الذى كنتُ أنفجر باكيا بسهولة فى تلك الأيام ، فأحسـستُ بعينيّ تغرورقان .... كان حبّا خالصا ، كان تأثيرَ آلام حبيبتى ، كان رقّةَ الصُّلح.

٤٧ - « السيدة خرجتْ »

« حسنا ، انتهى الأمر ، » قلتُ أخيرا ، « لكن فسِّرى لى شيئا واحدا. لماذا سألتنى ما إذا كنتُ خائفا من أن أُضْرَب علقة ؟ »

« لم يكن ذلك بلا سبب ، » قالت كاپيتو. ثم ، بعد شىء من التردُّد ، « لكن لماذا تزعج نفسك بذلك ؟ »

« هيا ، أخبرينى. هل كان ذلك بسبب المعهد الدينى ؟ »

« نعم ، كان كذلك. سمعتُ أنهم يَضربون هناك ... لا ؟ لا أصدّق هذا أيضا ».

كان التفسير مقبولا من جانبى ؛ ولم أتلقّ غيره. وإذا كانت كاپيتو ، كما أظن لم تقلْ الحقيقة ، فأنا مضطرّ إلى الاعتراف بأن ذلك كان لأنها لم تستطع أن تقولها ، وكان الكذب واحدا من أولئك الخدم الذين يسرعون إلى الرد على الزُّوّار بأن « السيّدة خرجتْ » ، عندما لا ترغب السيّدة فى التحدّث مع أى شخص. ولهذا التواطؤ لذّة ما. فالخطيئة المشتركة تجعل حالة الأشخاص المعنيِّين ، فى هذه اللحظة ، متساوية ، ناهيك بالبهجة التى ترتسم على وجه الزائر المخدوع ، وظهره وكتفيْه وهو ينصرف. ... أما الحقيقة فلم تكن خرجتْ ، كانت لا تزال فى البيت ، فى قلب كاپيتو ، تغفو نائمة فوق ندمها. والواقع أننى لم أبتعد حزينا أو غاضبا. وجدتُ الخادمة مهذّبة وآسرة ، أفضل من السيّدة.

جاءت الطيور السنونو الآن من الاتجاه المعاكس ، أو ربما لم تكن نفس الطيور. نحن الذين كنّا نفس الشخصيْن : جلسنا هناك نحسب حصيلة أوهامنا ، ومخاوفنا ، وكنا بدأنا فعلا فى حساب ذكرياتنا .

٤٨ - قسَم عند البئر

« لا ! » صِحْتُ فجأة.

« لا ماذا ؟ »

كنتُ أنعمتُ الفكر دقائق قليلة فى صمت فتوصلّتُ إلى فكرة ؛ كان صياحى عاليا إلى درجة أنه أفزع جارتى الصغيرة.

« لا ، لن يكون الأمر كذلك ! » واصلتُ القول. « يقولون أننا لسنا كبيريْن بما فيه الكفاية لأن نتزوّج ، وأننا طفلان ، طفلان رضيعان – هذا ما وصفونا به. حسنا ، لكن سنتيْن أو ثلاث سنوات تمرّ بسرعة. هل تُقسمين على شىء ؟ ستُقسمين على ألاّ تتزوّجى أحدا سواى ؟ »

أقسمتْ كاپيتو بلا تردّد ، بل رأيتُ خدّيها يتورّدان من فرط السعادة. أقسمتْ مرتيْن ثم مرة ثالثة.

« حتى إذا تزوّجتَ أخرى غيرى ، سأفى بقَسَمى ولن أتزوّج أبدا – فى أىّ وقت من الأوقات ».

« إذا تزوجّتُ أخرى غيرك ؟ »

« أىّ شىء يمكن أن يحدث ، يا بنتينيو. ربما وجدتَ فتاة أخرى تميل إليك ، وتقع فى حبك ، فتتزوّجها. مَنْ أنا بالنسبة لك حتى تتذكرنى فى وقت كهذا ؟ »

« لكننى أنا أيضا أقسم ! أنا أقسم ، يا كاپيتو ، أقسم بالرب العظيم أننى لن أتزوّج من غيرك. هل هذا كاف ؟ »

« كاف ، » أجابت. « لا أجرؤ على أن أطلب أكثر. نعم ، أنتَ أقسمتَ... لكنْ دعْنا نقسم بطريقة أخرى. دعنا نقسم أننا سنتزوّج من بعضنا ، مهما يحدث ».

أنتَ ترى الفارق. كان ذلك أكثر من اختيار زوج وزوجة ؛ كان

تأكيدا للزواج. كان بإمكان رأس محبوبتى أن يفكّر بوضوح وسرعة. والحقيقة أن الصيغة السابقة كانت قاصرة ، مانعة لا غير. كان من الممكن أن نغدو أعزبَ وعانسا ، كالشمس والقمر ، دون أن نحنث بقَسَمنا. كانت هذه الصيغة أفضل ، وكانت لها ميزة تقوية قلبى ضدّ التنصيب الكنسىّ. أقسمنا بالصيغة الثانية ، وأصبحنا سعيدَيْن إلى درجة أن كلّ خوف من الخطر اختفى. كنّا تقيَّيْن ؛ وكانت السماء شاهدة علينا. ولم أعد أخاف حتى من المعهد الدينى.

« إذا أصرّوا سأذهب ، لكننى سأنظر إليه على أنه معهد عادى. لن أصبح قسّيسا ».

فزعت كابيتو من فراقنا لكنها تقبّلتْ أخيرا هذه الخطّة باعتبارها الأفضل. لن نضايق أمى ، وسيأتى الوقت الذى يمكننا فيه أن نتزوّج. ومن ناحية أخرى فأىّ مقاومة من شأنها أن تؤكّد وشاية چوزيه دياس. لم يكن هذا التفكير تفكيرى بل كان تفكيرها.

٤٩ - شمعة فى أيام الآحد

بهذه الطريقة وصلنا ، بعد كلّ ذلك العناء ، إلى الميناء الذى كان علينا أن نلجأ إليه بلا إبطاء. لا تلُمْنا ، أيها المرشد اللعين ، فالقلوب لا يتمّ عبورها مثل البحار الأخرى فى هذا العالم. كُنّا راضييْن ؛ وبدأنا نتكلّم عن المستقبل. وَعَدْتُ عروسى بحياة هادئة وجميلة ، فى الريف أو خارج المدينة فحسب. لابدّ أن نعود إلى هنا مرة كل سنة. إذا كان مُقامنا سيكون فى ضواحى المدينة ، فلابد أن يكون بعيدا جدا حيث لا يزعجنا أحد. البيت ، فى رأيى ، لا ينبغى أن يكون كبيرا أو صغيرا ، بل وَسَطاً سعيدا. غرستُ حوله الزهور ، واخترتُ الأثاث ، وعربة صغيرة ، وكنيسة

خصوصية صغيرة. نعم ، لابدّ أن تكون لنا كنيسة خصوصية صغيرة رائعة ، مرتفعة ، من خشب شجر الچاكاراندا ، بتمثال لمريم العذراء. توقّفتُ عند هذه أكثر مما عند الباقى ، من جانب لأننا كُنّا متديّنيْن ، ومن جانب تعويضا عن رداء الراهب الذى كنتُ أوشك أن أُلقى به فى الأدغال؛ لكن كان لا يزال هناك جانب آخر أعزوه إلى نيّة خفية ولا واعية لإيقاع حماية السماء فى المصيدة. ولابدّ أن نضىء شمعة فى أيام الأحد ... .

٥٠ - حـدٌّ أوسـط

بعد ذلك بخمسة أشهر رحلتُ إلى معهد سان چوزيه الدينى. ولو كان بإمكانى أن أُحصى الدموع التى ذرفتُها فى مساء وصباح يوم رحيلى ، لوصل مجموعها إلى أكثر من كلّ الدموع التى ذُرفتْ منذ آدم وحواء. هناك مبالغة فى هذا ، لكن من الملائم أن أُغالى فى التأكيد من حين لآخر ، لأنتقم من شيطان الدقّة الذى يعذّبنى. ومع ذلك ، إذا اعتمدتُ على ذاكرة الإحساس وحسب ، فلستُ بعيدا عن الحقيقة : ففى الخامسة عشرة من العمر ، كلّ شىء لا نهائى. رغم أننى كنت مستعداً ، كانت معاناتى كبيرة. أمى أيضا عانتْ ، لكن فى أعماق نفسها. على أن الأب كابرال كان توصّل إلى حدّ أوسط : أن يُجرى اختبارا لندائى. فإذا لم أتبيّن نداءً إلى الكنيسة ، مع نهاية سنتيْن ، ينبغى أن أنخرط فى مهنة أخرى.

« النذور لابدّ من الوفاء بها ، لكن حسبما يشاء الرب. افترضى أن ربّنا حرم ابنك من هذه النزعة ، وأن الحياة فى المعهد الدينى لم تهبه الميل إليها كما وهبتنى ، سيعنى ذلك إذن أن المشيئة الإلهيّة تعترض. لم يكن بإمكانك ، يا سنيورة ، أن تضعى فى ابنك ،

حتى قبـل الميـلاد ، نـداءً حرمـه ربنـا منـه ... »

كان ذلك تنازلا من الأب. كان يمنح أمى عذرا مسبقًا بجعل التنازل عن الدَّيْن يأتى من الدائن. تألَّقتْ عيناها ، لكن شفتيها قالتا: « لا ». چوزيه دياس - لأنه لم يكن حقّق غايته فى السفر إلى أوروبا معى - تشبّثْ بالشـىء الأفضـل التـالى وأيّد « اقتراح السنيور الأمين » ؛ كلّ ما هنالك أنه بدا له أن سنة واحدة ستكون كافية.

« أنا واثق ، » قال ، وهو يغمز لى ، « من أنه فى غضون سنة واحدة سيكشف نداء عزيزنا بنتينيو إلى الكنيسة عن نفسه بكل وضوح وبصورة حاسمة. ومن المؤكد أنه سيغدو قسّيسا رائعا. ثم ، إذا لم يحدث ذلك خلال سنة... »

فيما بعد قال لى فيما بيننا: « اذهبْ لمدة سنة. السنة تمرّ بسرعة. فإذا لم تشـعر بأىّ ميْل إلى ذلك على الإطـلاق ، سيعنى ذلك أن الـربّ لا يريد ، كما يقول الأب ، وفى تلك الحالة ، يا صديقى الصغير ، خير علاج هو أوروبا ».

قدّمتْ إلىّ كاپيتـو نصيحـة مماثلة عندما أعلنتْ أمى رحيلى الذى لا رجعة فيه إلى المعهد الدينى.

« ابنتى ، ستفقدين الآن رفيق طفولتك ... »

أسعدها هذا الوصف لها بالابنة (كانت هذه هى المرة الأولى التى تناديهـا أمى بذلك.) إلى درجـة أنـه لم يكن لديها مكان للحزن. قبّلتْ يد أمى ، وقالت لها أنها سبق أن عرفت بذلك منى. وفيما بيننا شجّعتْنى على أن أتحمّل كل شىء بصبـر. « بعد مرور سنة ستتغيّر الأمور ، وسرعان ما تمرّ سنة ». لم تكن لحظة وداعنا حانت بعد ؛ جرى ذلك فى الليلة السابقة على رحيلى ، بطريقة تحتاج إلى فصل خاصّ. كلّ ما أقول هنا هو أننا كلّما ازددنا حبًّا لبعضنا ، بدأت كاپيتو تأسر أمى أكثر: أصبحتْ

أكثر جزعا ، وأكثر حنانا ، والتصقتْ بأمى على نحو متواصل ، دون أن تلتفت إلى أحد غيرها. كانت أمى بطبيعتها عطوفة وحسّاسة ؛ وكانت تتأثر بسهولة بالحزن أو الفرح. بدأتْ تكتشف كثيرا جدا من الفضائل الجديدة فى كابيتو ، مواهب رائعة ونادرة. أعطتها خاتما من خواتمها ، وبعض الأشياء الصغيرة الأخرى. لم تكن لتوافق على أخذ صورة لها كما توسّلتْ كابيتو ، حتى يكون بإمكانها أن تعطيها صورة فوتوغرافية ؛ لكن كان لديها صورة مصغّرة ، رُسمتْ عندما كانت فى الخامسة والعشرين ، وبعد قليــل من التردُّد ، قرّرت أن تعطيها لها. عينا كابيتو ، عندما تلقّت التّذكار ، لا يمكن وصفهما. لم تكونا منحرفتيْن ، ولم تكونا أيضا مثل مدّ البحر: كانتا مباشرتيْن ، صافيتيْن ، متألقتيْن. قبّلتْ البورتريه بحماس ، وقبّلتْ أمى كابيتو. كلّ هذا يذكّرنى بوداعنا.

٥١ - بين عتمة المساء وظلمة الليل

بين عتمة المساء وظلمة الليل ، كلّ شىء ينبغى أن يكون قصيرا كتلك اللحظة. لم يدمْ وداعنا طويلا ، ومع ذلك دام أطول ما كان يمكنه أن يدوم. جرى الوداع فى بيتها ، فى حجرة الجلوس ، قبل أن تُوقد الشموع. أقسمنا مرة أخرى أننا سنتزوّج بعضنا. ولم يكن ما ختم العقد بختم الإقرار مصافحة ، كما كان الأمر فى الحديقة: كان ذلك باتّحاد فميْنا المتحابّيْن ... ربما شطبتُ هذا عندما يذهب الكتاب إلى المطبعة ، إلاّ إذا قرّرتُ غير ذلك. إذا قرّرتُ غير ذلك ، سيبقى فى مكانه. ما يفرضه علينا الأمر الإلهى هو ألاّ نُقْسِم عبثا بالاسم المقدّس للرب. لم أكن أمضى زائغا إلى المعهد الدينى نظراً لأنه كان لى عقد نافذ كما ينبغى فى ملف فى محفوظات السماء ذاتها. فيما يتعلق بالختم ، كما خلق الرب

أيدى نظيفة ، خلق كذلك شفاها نظيفة ، والشرّ فى رأسك أنت الشرّير أكثر مما فى رأس ذلكما المراهقيْن ... أيتها الرفيقة الحلوة لأيام طفولتى ، كنتُ نقيًا ، ونقيًا ظللتُ ، ونقيًا دخلتُ أروقة سان چوزيه باحثا ، فى الظاهر ، عن التنصيب الكهنوتى ؛ وقبله عن **النداء**. لكن **النداء** هو أنتِ ، والتنصيب هو أنتِ.

٥٢ - پادْوا العجوز

سأروى الآن وداع پادْوا العجوز. متألّقا ومُبْكِرا جاء إلى بيتنا. طلبتْ منه أمى أن يصعد ويتكلّم معى فى حجرتى.

« هل يمكننى ؟ » سأل واضعا رأسه فى الباب.

ذهبتُ لأصافحه. وضع ذراعيْه بحنان حولى

« أرجو لك السعادة ! » قال لى. « سنفتقدك ، صدّقنى ، أنا وأسرتى. نحن جميعا نقدّرك تقديرا عاليا ، يا سنيور ، كما تستحقّ. إذا قالوا لك أىّ شىء خلاف هذا ، لا تصدّقه. إنه قيل وقال خبيث. أنا أيضا كنت ضحية القيل والقال الخبيث ، فى فترة زواجى. ولم يحقّق شيئا. الرب عظيم ويكشف الحقيقة. إذا قُدّر لك فى يوم من الأيام أن تفقد أمك وخالك – وهذا شىء آمل ، بحق هذا الضوء الذى يتألّق فوقى ، ألاّ يحدث أبدا ، لأنهما شخصان طيبان ، شخصان ممتازان ، وأنا ممتنّ للأفضال التى أسبغاها علىّ ... لا ، لستُ مثل بعض الآخريين ، بعض الطفيليّين ، الغرباء ، الذين يسعون إلى تحطيم العائلات ، المتملّقين الأخسّاء ؛ لا ، أنا من طراز آخر. أنا لا أعيش عالة على موائد الآخرين ، لا أعيش فى بيت شخص آخر... حسنا ، أولئك هم المحظوظون ! »

« لماذا يتحدث على هذا النحو ؟ » قلتُ لنفسى متفكّرا. « من

المحتمل أنه يعرف أن چوزيه دياس يقول أشياء عنه ».

« لكن ، كما كنت أقول ، إذا قُدّر لك في يوم من الأيام أن تفقد قريبَيك ، يمكنك أن تعتمد على صداقتنا. هذا لا يساوي شيئا من حيث الأهمية ، لكن عاطفتنا هائلة ، صدّقْني. ورغم أنك ستكون قسّيسا ، بيتنا هو دائما بيتك تأمر فيه وتنهي. كل ما أطلبه منك هو ألاّ تنساني: لا تنسَ پادْوا العجوز ... »

تنهّد ومضى يقول: « لا تنسَ صديقك پادْوا العجوز ، وإذا كان لديك أيّ شيء قديم صغير يمكنك أن تتركه لي للذكرى ، كراسة قديمة للغة اللاتينية ، أيّ شيء مهما كان ، زرار صديري ، أيّ شيء لم يعد له نفع لديك... القيمة في الذكرى ».

أذهلتني المفاجأة. كان لديّ خصلة من شعري ملفوفة في ورقة ، خصلة طويلة ، جميلة ، كنتُ قصصتُها في الليلة السابقة. كانت نيّتي أن آخذها إلى كاپيتو عندما أرحل ؛ لكنني قرّرت أن أعطيها لأبيها. لابدّ أن الابنة ستعرف ما يكفي لأن تأخذها وتحتفظ بها. التقطتُ اللّفّة وأعطيتُها له.

« ها هي ، خُذْ هذه ».

« خصلة من شعرك ! » صاح پادْوا ، وهو يفتح ويغلق اللّفّة. « أوه ! شكرا ! أشكرك عن نفسي وعن أسرتي ! سأعطيها لزوجتي العجوز لتحافظ عليها ، أو للصغيرة. هي أكثر حرصا من أمها. ما أجملها ! كيف أمكنك أن تقصّ مثل هذه الخصلة الجميلة ؟ عانقْني ! مرة أخرى ! ومرّة أيضا ! وداعا ! »

كانت عيناه دامعتَيْن بكل إخلاص. وحمل وجهه نظرة متحرّرة من الأوهام ، مثل رجل أنفق كل كنزه من الآمال على ورقة يانصيب واحدة ثم يرى الرقم اللعين يتمخّض عن ورقة خاسرة – رقم حلو كهذا !

٥٣ - ها نحن نرحل !

رحلتُ إلى المعهد الديني. استبقيني أيتها الوداعات الأخرى ! أمي ضمتني إلى صدرها. ابنة العم چوستينا تنهّدتْ. ربما بكتْ قليلا جدا أو لم تبك على الإطلاق. هناك أشخاص لا تسيل دموعهم في الحال، ولا في أيّ وقت. يُقال أنهم يتألمون أكثر من الآخرين. من المحتمل أن ابنة العم چوستينا أخفت آلامها الداخلية في العناية بالأشياء التي أهملتها أمي، في تقديم النُّصح الطيّب إليّ، في إعطائي أوامر. الخال كوزمه، عندما قبّلتُ يده مودّعا، قال لي ضاحكا: « ارحلْ، يا فتى ؛ وعُدْ إليّ و أنتَ بابا ! »

چوزيه دياس، الذي كان هادئا ورزينا، لم يقل شيئا في البداية. كنّا تكلّمنا في الليلة السابقة، في حجرته، التي كنتُ ذهبتُ إليها لأرى ما إذا كان لا يزال من الممكن أن أتفادى المعهد الديني. كان ذلك لم يعد ممكنا، لكنه أعطاني الأمل، وما كان أهم : الشجاعة. قبل أن تنقضي السنة، سنكون على متن السفينة. ولأنني وجدتُ هذا مقتضبا إلى حدّ ما، شرح موضّحا :

« يُقال أنه ليس وقتا ملائما لعبور الأطلنطي. سأستفسر ؛ إذا لم يكن كذلك، سنسافر في مارس أو أبريل ».

« يمكنني أن أدرس الطب هنا ».

أجرى چوزيه دياس أصابعه على حمّالتيْ بنطلونه في إشارة تدلّ على نفاد الصبر، زمّ شفتيْه، ذهب إلى حدّ رفض الاقتراح رسميًا.

« لم أكن لأتردّد في الموافقة على الفكرة »، قال، « لو أنهم في مدرستنا للطبّ لم يكونوا يدرّسون على وجه الحصر بذاءة الألّوباثيا*.

---

* ألّوباثيا: منهج في العلاج باستخدام عقاقير تحدث آثار مختلفة عن آثار المرض المعالج (عكس هوميوباثيا) – المترجم

الألّوباثيا هى خطأ العصور وسوف تنقرض ؛ وهى قَتْل ، وزيف ، ووهم. إذا قالوا لك أنه يمكنك أن تتعلم ، فى مدرسة الطب ، ذلك القسم من العلم المشترك فى كل النُّظُم ، فهذا صحيح. الألّوباثيا خاطئة عندما تصل إلى طب العلاج. الفسيولوچيا ، التشريح ، الباثولوچيا ، ليست ألّوباثيا وليست هوميوباثيا ، لكن من الأفضل أن نتعلم كل شىء فى الحال ، مرة وإلى الأبد ، من الكتب ومن شفاه الرجال المخلصين للحقيقة .... »

كانت تلك هى الطريقة التى تكلّم بها فى الليلة السابقة ، فى حجرته هو. الآن لم يقل شيئا ، أو قدّم بعض الأقوال المأثورة عن الدين والأسرة. وأنا أذكر هذا: « أن تقتسمه مع الرب يعنى مع ذلك أن تمتلكه ». ثم عندما منحتنى أمى قبلتها الأخيرة ، تنهّد قائلا ، « **أجمل صورة** ! »

كان صباح يوم جميل. كان الصبية الملوّنون الصغار يثرثرون بهمسات خفيضة. الزنجيات طلبن بركتى: « البركة ، يا نيو* بنتينيو ! لا تنس جاريتك چوانّا ! جاريتك ميكيلينا ستظلّ تصلى من أجلك ، يا سيدى! »

فى الشارع ، واصل چوزيه دياس الإلحاح على آماله: « تحمّلْ لمدّة سنة واحدة. حينئذ سيتم ترتيب كل شىء ».

٥٤ - مديح للقديسة مونيكا

فى المعهد الدينى ... آه ! لن أروى الآن قصة المعهد الدينى ؛ لن يكفى فصل واحد. لا ، يا سيدى العزيز. ذات يوم ، نعم ، من الجائز أننى سأعدّ وصفا موجزا عما رأيته هناك والحياة التى عشتُها ، عن أولئك الذين عشتُ معهم ، عن العادات وكلّ الباقى. هذا التلهف على الكتابة ،

* نيو nhô : نُطق زنجى لكلمة سنيور – المترجم

عندما يصيبك فى الخمسين ، لا يتركك أبدا. فى الشباب من الممكن لشخص أن يعالج نفسه منه ؛ دون أن نذهب بعيدا ، هنا فى المعهد الدينى كان لى زميل ينظم أشعارا بطريقة چونكيرا فريره ، وكان كتاب ذلك الشاعر الراهب صدر قبل ذلك بقليل. رُسم قسّيسا. بعد ذلك بسنوات التقيتُ به فى جناح المرتّلين فى سان پدرو ، وطلبتُ منه أن يُرينى أحدث أشعاره.

« أىّ أشعار ؟ » ، سأل نصف فزع.

« أشعارك. ألا تتذكّر ، فى المعهد الدينى... »

« آه ! » ابتسم.

ابتسم ، ومضى ينظر ، فى الكتاب المفتوح أمامه ، من أجل الساعة التى سيكون عليه أن يتلو القدّاس فيها فى اليوم التالى. اعترف بأنــه لم يكتب أىّ أشعار منذ أن رُسم قسّيسا. كانت دغدغة شباب ؛ هَرَشَ ، ذهبتْ ، أصبح على ما يرام. ثم تكلم نثرا عن كثير جدا من أمور المعهد: تكاليف المعيشة المرتفعة ، موعظة للأب فلان ... أبرشية فى ميناس....

كان النقيض لهذا طالبا فى المعهد الدينى لم يواصل المهنة. كان اسمه ... لكن ليس من الضرورى أن أعطى اسمه : ستتكلم الحالة بنفسها. كان نَظَمَ قصيدة **مديح للقديسة مونيكا** ، التى امتدحها أشخاص عديدون ثم قُرئتْ بين طلاّب المعهد الدينى. حصل على إذن بطبعها ، وأهداها إلى القديس أوغسطين. كل هذا تاريخ قديم. ما هو أحدث أننى ذهبتُ ذات يوم فى ١٨٨٢ للاستفسار عن أمر بعينه فى إدارة البحرية. هناك التقيتُ مصادفة بزميلى هذا فى الدراسة الذى أصبح رئيسا لشعبة إدارية. كان هجر المعهد الدينى ، وهجر الأدب ، وتزوّج ، ونسى كل شىء فيما عدا قصيدة **مديح للقديسة مونيكا** ، التى تقع

فى حوالى تسع وعشرين صفحة ، والتى ظلّ يوزعها طوال حياته. لأننى كنت بحاجة إلى بعض المعلومات ، ذهبتُ وطلبتُها منه. كان من المستحيل أن أجد سرعة واستجابة أكبر: أعطانى كلّ شىء - بوضوح ، بدقة ، بغزارة. بطبيعة الحال تحدّثنا عن الماضى ، الذكريات الشخصية ، حكايات الفصل الدراسى ، الحوادث التافهة ، كتاب ، كلمة ، قولة ، كل المزاح القديم وقفنا عنده طويلا ، ثم ضحكنا معا ، وتنهّدنا بانسجام. عشنا من جديد بعض أيامنا فى المعهد الدينى القديم. والواقع أن الذكريات ، إمّا لأنها كانت تخصّ المعهد الدينى أو لأننا كنّا صغيريْن آنذاك ، حملت طاقة سعادة إلى حدّ أنه حتى إذا كان هناك أىّ ظلّ محزن آنذاك ، لم يظهر الآن. واعترف بأنه لم يعد يرى كلّ زملائنا فى الدراسة.

« أنا أيضا ، كلهم تقريبا. بمجرد رَسْمهم قساوسة ، من الطبيعى أنهم عادوا إلى أقاليمهم ، وأولئك الذين من هنا تسلّموا أبرشيّات فى أماكن أخرى ».

« زمن سعيد ! » تنهّد.

ثم بعد شىء من التفكير ، حدّق فى وجهى بعينيْن ذابلتيْن ملحّتيْن ، وسأل: « هل احتفظت بمديحى ؟ »

عجزتُ عن التفكير فى شىء أقوله. حاولتُ أن أحرّك شفتىّ ، لكن لم تأت أىّ كلمات. أخيرا سألتُ: « مديح ؟ أى مديح ؟ »

« قصيدتى مديح للقديسة مونيكا ».

ظللتُ لا أذكر ، لكن كان لابدّ للتفسير أن يفعل فعله. بعد عدّة لحظات من البحث الذهنى ، أجبتُ بأننى كنتُ احتفظتُ بها لمدة طويلة ، لكن ماذا يمكن أن نفعل مع التنقّل ، والسفر ...

« سآتيك بنسخة ».

قبل مرور أربع وعشرين ساعة كان فى بيتى ومعه الكتاب

الصغير ، كتاب صغير قديم ، عمره ست وعشرون سنة ، ملطّخ ومبقّع من القدَم ، لكن دون أن ينقص منه شيء ، وبإهداء مليء بالاحترام مكتوب بخط يده.

« الطبعة السابقة للأخيرة ، » قال لى. « ليس لدى الآن سوى نسخة واحدة منها ، ولا يمكننى أن أعطيها لأحد ».

ثم ، بينما كنت أتصفح العمل الأدبى القصير ، قال لى: « انظرْ ما إذا كنتَ تتذكّر شيئا منه ».

والواقع أن انقطاعا لمدة ست وعشرين سنة يقتل صداقات أوثق وأكثر استقرارا ، لكنها كانت مجاملة مألوفة ، مجرّد رِفْق ، أن يتذكّر المرء صفحة ما أو أخرى. قرأتُ إحداها بصوت مرتفع ، مشدّدا النبر على عبارات بعينها لأعطى الانطباع بأنها وجدتْ صدًى فى ذاكرتى. أما هو فوافق على أنها جميلة ، لكنه فضّل عبارات أخرى ، وأشار إليها.

« هل تذكرها ؟ »

« تماما. مديح للقديسة مونيكا ! كم تعود بى سنوات إلى شبابى ! لم أنس أبدا المعهد الدينى ، صدّقْنى. السنين تمرّ ، الأحداث تأتى تُزاحم بعضها ، أحاسيس جديدة ، ثم تأتى عندئذ صداقات جديدة ، تزول بدورها: تلك سنّة الحياة. ... باختصار ، يا زميل الدراسة العزيز ، لا شىء أضعف ذكرى أيام الزمالة تلك ، المدرسون القساوسة ، الدروس ، الألعاب ... ألعابنا ، هل تذكرها ؟ الأب لوبيس ! آه ، الأب لوبيس ... »

بعينيه فى الهواء ، بدا أنه كان يُصغى ، وربما كان ، مع أنه لم يُدْلِ إلاّ بتعليق واحد ، وبعد شىء من الصمت ، وهو يسحب عينيه ويتنهد: « الناس أحبُّوه ، مديحى هذا ! »

٥٥ - ســونيتّة

بمجرد أن قيل هذا ، صافحنى بكل قوة عرفان هائل ، وودّع ، وانصرف. تُركتُ وحدى مع المديح ، أما الأشياء التى ذكّرتنى بها أوراقه فتحتاج إلى فصل أو أكثر. لكننى قبل ذلك - لأننى أيضا كان لدىّ مديحى - سأروى قصة سونيتّة لم أكتبها قط كان ذلك فى فترة المعهد الدينى ، والبيت الأول كما يلى:

يا زهرة السماء ! يا زهرة زاهية ونقية !

كيف ولماذا قفز هذا البيت من دماغى ، لا أدرى. قفز خارجا على ذلك النحو ، وأنا راقد فى فراشى - صيحة مفاجئة. ثم عندما لاحظتُ أن له وزن الشّعر ، فكّرتُ فى تأليف شىء ينسجم معه ، سونيتّة. الأرق ، عروس الشعر ذات العينيْن المحملقتيْن ، لم يدعنى أنام ساعة طويلة أو ساعتيْن. الدغدغة طلبت أظافر الأصابع. هرشتُ بكل روحى. لم أختر السونيتّة على الفور. فى البداية فكّرت فى أشكال أخرى ، فى الشعر المقفّى وكذلك فى المرسل ، لكننى استقررتُ فى النهاية على السونيتّة: قصيــدة قصيرة وطيّعة. فيما يتعلق بالفكرة ، لم يكن البيت الأول فكرة بعد ، كان صيحة ؛ وستأتى الفكرة فيما بعد. هكذا ، راقدا فى الفراش ، ملفوفا فى الملاءة ، حاولتُ أن أقرض الشعر. كان لدىّ إحساس الفزع المفاجىء لأم أحسّتْ داخل أحشائها بتحركات طفلها الأول. كنتُ على وشك أن أغدو شاعرا. كنتُ فى طريقى إلى أن أتنافس مع ذلك الراهب، من بابيا الذى كان تم اكتشافه قبل ذلك بقليل وكان آنذاك آخر صيحة. أنا ، طالب المعهد الدينى ، سأروى مصائبى شعرا كما رواها هو من الدير. حفظتُ البيت عن ظهر قلب ، وأخذتُ أردّده بصوت خفيض ، للملاءات. بصراحة ، وجدتُه جميلا ، وحتى الآن لا يبدو لى رديئا.

يا زهرة السماء ! يا زهرة زاهية ونقية !

ماذا كانت الزهرة ؟ كاپيتو ، ربما ؛ لكن كان من الممكن أن تكون الفضيلة ، الشعر ، الدين ، أىّ مفهوم آخر يلائمه مجاز **الزهرة وزهرة السماء**. انتظرتُ البقية ، مُنشدا البيت مرارا وتكرارا ، فى البداية على جانبى الأيمن ، ثم على الأيسر ؛ أخيرا رقدتُ على ظهرى ، وعيناى على السقف. حتى فى هذا الوضع ، لا شىء أكثر أتى إلىّ.

عندئذ لاحظتُ أن السونيتّات التى فازت بأعظم تمجيد هى تلك المقفلة بمفتاح ذهبى ، أىْ ، بأحد تلك الأبيات التى هى انتصار للفكرة والصورة. قرّرتُ أن أصنع مفتاحا كهذا ، ذلك أننى فكرت مليًا فى أنه إذا جاء البيت الأخير فى الترتيب الزمنى بعد الأبيات الثلاثة عشر التى تسبقه ، فسيكون من الصعوبة بمكان أن يتوقع المرء أن يكون له الكمال المنشود. تصوّرتُ أن مثل هذه المفاتيح لابدّ أن تُصَبّ قبل القفل ذاته. هكذا عقدتُ العزم على أن أنظم البيت الأخير من السونيتّة ، وبعد جهد جهيد ، انبثق هذا:

الحياة فُقدتْ ، المعركة مع ذلك كُسبتْ !

دون غرور ، وبالنظر إليه وكأنه كان من إبداع شخص آخر ، كان بيتا رائعا. كان رنّانا ، دون أدنى شك. ثمّ إن فيه فكرة – الانتصار تمّ الفوز به مقابل الحياة ذاتها – فكرة مجيدة ونبيلة. ربما لم تكن جديدة تماما لكنها أيضا لم تكن شائعة. وحتى الآن لا يمكننى أن أفسّر بأية طريقة مبهمة دخلتْ فى مثل ذلك الرأس الفتىّ. فى ذلك الوقت ، وجدتُها سامية. أنشدتُ المفتاح الذهبى مرارا. ثم ردّدتُ البيتيْن متعاقبيْن ، وأصبحتُ جاهزا لربطهما بالأبيات الاثنى عشر التى تقع بينهما. فيما يتعلق بالفكرة ، بدا لى الآن ، فى ضوء البيت الأخير ، أنه سيكون من الأفضل ألاّ تكون **كاپيتو** ؛ أن تكون **العدالة**. من الملائم أكثر أن نقول

أنه فى النضال من أجل **العدالة** ربما تُفقَد الحياة لكن المعركة تُكسَب مع ذلك. خطر ببالى أيضا أن أفهم **المعركة** بالمعنى المألوف فأجعلها كفاح المرء من أجل بلاده ، على سبيل المثال. فى تلك الحالة ، ستكون زهرة السماء هى **الحرية**. لكن هذا الفهم للكلمة قد لا يكون مناسبا تماما ، نظرا لأن الشاعر كان طالبا فى المعهد الدينى ؛ وقضيتُ عدّة دقائق فى اختيار هذا الفهم أو ذاك. وجدتُ **العدالة** أفضل ، لكننى أدركتُ فى النهاية فكرة جديدة – **المحبة**. أنشدتُ البيتيْن ، كلاًّ منهما بالأسلوب الذى يلائمه ، أحدهما ببطء:

يازهرة السماء ! يا زهرة زاهية ونقية !

والآخر بحيوية:

الحياة فُقدتْ ، المعركة مع ذلك كُسبتْ !

كان الشعور الذى لوىّ هو أن سونيتّة بالغة حدّ الكمال تُوشك أن تولد. لم تكن البداية الجيدة والنهاية الجيدة بالأمر الهيّن. لكى أُعطى نفسى حَمَّامَ إلهام ، استدعيتُ إلى ذهنى عدّة سونيتّات شهيرة ، ولاحظتُ أن أغلبها سهلة إلى حدّ بعيد. كانت الأبيات ، بالفكرة الموجودة فيها فعلا ، تتدفق تدفّقا طبيعيًا أحدها من الآخر بحيث يعجز المرء عن أن يحسم ما إذا كانت الفكرة هى التى صاغت الأبيات ، أو أن الأبيات هى التى استدعت الفكرة. عندئذ استدرتُ إلى سونيتتى ، ومرة أخرى ردّدتُ البيت الأول وانتظرتُ الثانى. لم يكن الثانى وشيكا ، ولا الثالث ، ولا الرابع ، ولا أىّ منها. انتابتنى عدة نوبات غضب ، وأكثر من مرة فكّرتُ فى الخروج من الفراش والذهاب لتجربة الحبر والورق. ربما من خلال الكتابة ، تتدفع الأبيات إلىّ أفواجا ، لكن ...

بعد أن أرهقنى الانتظار ، قرّرتُ أن أغيّر معنى البيت الأخير بمجرّد نقل موضع كلمتيْن ، على هذا النحو:

الحياة كَسبتْ ، المعركة مع ذلك فَقدتْ !

ينقلب المعنى ليغدو النقيض تماما ، لكن هذا فى حدّ ذاته يمكن أن يستدرج الإلهام. فى هذه الحالة ، تكون هناك مفارقة: بعدم ممارسة المحبة يمكن للمرء أن يكسب الحياة لكنه يخسر معركة السماء. تشجّعتُ وانتظرت. لم تكن لدىّ نافذة. لو كانت لدىّ ، لكان من الممكن أن أذهب لأشحذ فكرة من الليل. ومن يدرى ما إذا كانت الحباحب التى تضىء هنا تحت لم تكن لتبدو لى أشبه بقطع صغيرة مقفّاة من النجوم فيقدّم إلىّ هذا المجاز الحىّ أبياتا مراوغة بإيقاعاتها ومعانيها.

كدحتُ عبثا ، بحثتُ ، فتّشتُ ، انتظرتُ. لم تأت أىّ أبيات. منذ ذلك الوقت كتبتُ أكثر من صفحة من النثر ، والآن أؤلّف هذه القصة ، مع ذلك لا أزال أجد أنه لا شىء فى هذا العالم أكثر صعوبة من الكتابة ، جيدة أو سقيمة. حسنا ، يا سادتى ، لا شىء يعزّينى عن تلك السونيتّة التى لم أكتبها. لكن - لأننى أعتقد أن السونيتّات تنبثق جاهزة الصنع ، شأنها فى ذلك شأن قصائد الشعر الغنائى والمسرحيات وبقية الأعمال الفنية ، بحكم قانون من قوانين النظام الميتافيزيقى - أقدّم هذيْن البيتيْن لأوّل شخص كسول يريدهما. ففى يوم من أيام الأحد ، أو عندما تمطر السماء ، أو فى الريف ، أو فى أىّ لحظات فراغ أخرى ، يمكنه أن يحاول أن يرى ما إذا كانت السونيتّة ستأتى. كل ما سيكون عليه هو أن يعطيها فكرة وأن يُضيف الوسط المفقود.

٥٦ - طالب فى المعهد الدينى

كلُّ هذا ظلّ يقوله لى شيطان كتاب صغير ، بحروف طباعته ذات الطراز القديم واستشهاداته اللاتينية. رأيتُ لمحات كثيرة من حياة طالب فى المعهد الدينى تخرج من أوراق ذلك الكتاب الصغير: الأخَوان ألبوكيركه على سبيل المثال ، أحدهما كاهن فى بابيا ، بينما دخل الآخر الطبّ ويقال أنه اكتشف علاجا نوعيا ضدّ الحمى الصفراء. رأيتُ باستوس ورجْليْه الهزيلتيْن - وهو الآن قسّيس أبرشية فى ميبيا - پونته ، إنْ لم يكن مات فعلا. لويس بورچيس ، رغم أنه قسّيس ، دخل السياسة وانتهى إلى أن يكون سيناتورا للامبراطورية ... . كم من وجوه أخرى حملقتْ فى وجهى من الصفحات الباردة للمديح ! لا ، لم تكن باردة. كانت تحمل دفء الشباب الغضّ ، دفء الماضى ، دفئى أنا. أردتُ أن أعيد قراءتها ؛ هنا وهناك أدركتُ معنى النصّ: بدا لى مفعما بالحياة كما كان فى أول يوم ، وإن كان أوجز. الكتاب الصغير أطلق سحرا: أحيانا ، وبلا وعى ، كنتُ أقلب الصفحة وكأننى أقرأ فعلا. ثم عندئذ ... أعتقد أن ذلك كان عندما وقعتْ عيناى على آخر كلمة فى الصفحة ، قامت يدى ، التى اعتادت أن تساعدهما ، بواجبها ...

كان هنا طالب آخر فى المعهد الدينى. كان اسمه حزقيال ده سوزا إسكوبار. كان صبيّا نحيلا ، ذا عينيْن صافيتيْن متألّقتيْن تتنقّلان حوله بصورة متواصلة ، مثل يديْه ، مثل قدميْه ، مثل كلامه ، مثل كل شىء فيه. ربما أحسّ أىّ شخص لم يعتد عليه باضطراب ، عندما لا يدرى أين يجده. لم يكن ينظر إليك فى عينك ، لم يكن يتكلّم بوضوح ولا بتسلسل منطقى. لم تكن يداه تمسكان بيديك أو تسمحان ليديك بأن تمسكا بهما لأن أصابعه كانت رفيعة وقصيرة ، وعندما تظن أنك أخذتهما بين يديك ،

وجدتَ أنك لم تَعُدْ تمسك بشيء. نفس الشيء كان يصدُق على قدميه ، اللتيْن ما إن تكونان هنا إلاّ وتكونان هناك. هذه الصعوبة المتمثلة فى الخفة كانت عقبته الكبرى عندما حاول أن يألف عادات المعهد الدينى. كانت ابتسامته لحظيّة ، لكنه كان يملك أيضا ضحكة رائعة مرحة. شىء واحد فيه لم يكن سريعا ومتقلّبا إلى هذا الحد - ولعُهُ بالتفكير والتأمل. مرات كثيرة كنا نفاجئه ، منسحبا إلى داخل نفسه ، متفكّرا. دائما كان يفسّر بأنه كان يتأمل فى موضوع روحى ما ، أو بأنه كان يفكر فى درس اليوم السابق. بعد أن حاز ثقتى ، كثيرا ما كان يطلب منى شروحا دقيقة وتكرارات ، وكانت لديه الذاكرة التى تحفظها جميعا ، حتى بالكلمات. ربما سلبتْه هذه المقدرة مقدرةً ما أخرى.

كان أكبر منى بثلاث سنوات ، وكان ابن محامٍ من كوريتيبا ؛ وكان أحد أقربائهم يعمل بالتجارة فى ريو دى چانيرو ، وكان يعمل وكيلا لأبيه. كان الأب رجل آراء كاثوليكية صارمة. وكان لإسكوبار أخت ، وكانت ملاكا ، كما قال.

« ليست ملاكا فى جمالها فقط ، بل فى حنانها أيضا. لا يمكنك أن تتصوّر أىّ شخص حنون هى. وهى تكتب إلىّ كثيرا. لابدّ أن أريك رسائلها ».

كانت فى الواقع بسيطة ورقيقة ، مليئة بالتودّد والنصح. إسكوبار روى لى قصصا عنها ، وكانت شيّقة ، وكانت كلها تدلّ على حنان وفهم تلك المخلوقة المخلصة. كان من شأنها أن تجعلنى راغبا فى الزواج منها ، لو لم تكن كاپيتو هناك. وماتت بعد ذلك بفترة قصيرة.

مخدوعا بكلماته ، كنتُ تقريبا على وشك أن أروى له قصتى أنا هناك وآنذاك. فى البداية كنتُ متردّدا ، لكنه وجد طريقه إلى أن يحوز ثقتى. تلك الأساليب المراوغة توقّفتْ عندما رغب فى ذلك ، وجعلها الزمن

والوَسَط أكثر هدوءًا. ومضى إسكوبار يفتح كل روحه ، من الباب الخارجى إلى السياج الخلفى. وروح أىّ شخص ، كما تعلم ، مرتّب مثل بيت ، وليس من غير المألوف أن يكون بنوافذ على كل الجوانب ، بالكثير من الضوء والهواء النقى. هناك أيضا بيوت مغلقة ومظلمة ، بلا نوافذ ، أو بقليل منها ، وهذه القليلة بقضبان عليها على غرار الأديرة والسجون. وهناك بيوت أخرى أشبه ما تكون بكنائس صغيرة خاصة وبأسواق خيرية ، أو بحظائر بسيطة ، أو بقصور فخمة.

لا أدرى ماذا كان بيتى. لم أكن أصبحتُ **كازمورّو** بعد ولا دون **كازمورّو**. كان الخوف هو ما اعترض صراحتى ، لكن ما دامت الأبواب لم يكن لها مفاتيح ولا أقفال لم يكن من الضرورى إلاّ دفعها ، ودفعها إسكوبار ودخل. وجدتُه هنا فى الداخل ، وهنا بقى إلى أن ...

٥٧ - على سبيل التمهيد

آه ! ليس طلاب المعهد الدينى وحدهم الذين نهضوا خارجين من تلك الأوراق القديمة **للمديح**. جلب الكتاب لى أيضا أحاسيس كانت تلاشت ، وهى كثيرة ومتنوعة بحيث لا يمكننى أن أرويها دون سرقة الأسطر من بقية القصة. أحدها واحد من أولاها - وددتُ لو سجّلتُه باللاتينية - ليس لأن الموضوع لا يمكن التعبير عنه باحتشام بلغتنا ، التى هى عفيفة للعفيفات ، كما قد تكون فاسقة للفاسقات. نعم ، أيتها السيدة الأشدّ عفة ، كما كان سيقول چوزيه دياس الذى فُجعتُ فيه مؤخّرا ، يمكنك أن تقرئى الفصل كاملا إلى النهاية دون ازعاج أو خوف من اساءة. سوف أدّخر القصة لفصل آخر. ومهما تُثبت أنها متواضعة وحذرة فى التعبير ، ففيها مع ذلك شىء ما أقلّ تزمّتا ، يتطلّب سطورا قليلة من

الاسترخاء والتمهيد. ليكن هذا الفصل بمثابة تمهيد - والتمهيد هام ، أيها القارىء العزيز. ذلك أنه عندما يتفحص القلب إمكان ما سيأتى - حجم الأحداث ووفرتها - فسوف يكون جريئا ومتأهبا ، وهذا سيقلّل الشرّ. وإذا لم يقلّله هذا ، فلن يقلّله شىء أبدا. والآن سترى حيلة أو حيلتيْن من حيَلى ،لأنك عندما تقرأ ما تُوشك على قراءته ، من المحتمل أن تجده أقلّ فجاجة مما كنتَ توقعت.

٥٨ - المعـاهدة

فى يوم من أيام الاثنين ، وأنا عائد إلى المعهد الدينى ، رأيتُ سيدة تسقط فى الشارع. كان لابدّ لبادرتى الأولى أن تكون بادرة إشفاق أو ضحك. لم تكن لهذا أو ذاك (وهذا ما وددتُ لو رويتُه باللاتينية) ، كانت السيدة تلبس جوربيْن طويليْن نظيفيْن جدا ولم تلطّخهما ، وكانت تلبس أربطة جوارب من الحرير ولم تفقدها. سارع عدّة أشخاص لمساعدتها لكنهم لم يصلوا فى الوقت الملائم لإنهاضها. قفزتْ على قدميها مرتبكة للغاية ، ونفضتْ التراب عن جونلّتها ، وشكرتهم ، وانعطفت فى الشارع التالى.

« هذا الجنون بتقليد البنات الفرنسيات فى شارع أوڤيدور ، » قال چوزيه دياس وهو يسير إلى جانبى ويعلّق على الحادث ، « شىء أحمق بكل وضوح. سيداتنا الشابات ينبغى أن يسرن كما كنّ يسرن دائما ، بطريقتهن الرقيقة المتمهلة ، وليس بهذه التيك - تيك المتفرنسة ... »

لم أكد أسمعه. لمعتْ جوارب وأربطة السيدة بيضاءَ ودارت دورة لولبيّة أمامى ، سارت وسقطت ، نهضت وسارت منصرفة. عندما وصلنا إلى الناصية ، نظرتُ إلى الشارع الجانبى وعلى مبعدة رأيتُ سيدتنا سيئة

الحظ تمضى فى طريقها بنفس الخُطَى ، تيك - تيك ، تيك - تيك ...

« لم تُصَب بأذى فيما يبدو ، » قلتُ.

« كان ذلك أفضل لها ، لكنْ لابدّ أن ركبتيها أُصيبتا بخدوش. هذا التسابق تكلُّف ».

أعتقد أن « التكلُّف » هو ما قاله. كنت لا أزال مع « الركبتيْن المخدوشتيْن ». ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ، على طول الطريق إلى المعهد الدينى ، لم أر امرأة فى الشارع إلاّ وكان ما تمنّيتُه لها سقطة. بعضهن ، فيما ظننتُ ، كنّ يلبسن جوارب مُحكمة ناعمة وأربطة أنيقة ... . وربما كانت هناك بعضهن اللائى لا يلبسن جوارب مطلقا. لكننى رأيتهن يلبسنها ... أو... ذلك أيضا ممكن.

وأنا أكشف هذا مع حُذوفات لكى أعطى انطباعا عن أفكارى ، التى كانت مسهبة ومشوّشة على هذا النحو. لكن من المحتمل أنى لا أُعطى أىّ فكرة على الإطلاق. كان رأسى ساخنا وخطوى غير ثابت. كانت الساعة الأولى فى المعهد الدينى لا تُطاق. كان لأردية الكهنة مظهر الجونيلاّت فذكّرتْنى بسقوط السيدة. كانت لم تعد تلك التى رأيتُها تسقط. كلّ مَنْ كنتُ رأيتُهن فى الشارع أظهرن لى الآن ، فى لمحة واحدة ، أربطتهن الزرقاء. نعم ، كانت زرقاء. فى الليل حلمتُ بهن. حشد هائل من المخلوقات البغيضات كُنّ يسرن حولى تيك - تيك... كُنّ جميلات ، بعضهن نحيلات ، وأخريات سمينات ، وكُنّ جميعا سريعات الحركة كالشيطان. استيقظتُ ، حاولتُ أن أعيدهن بالشعوذات وبأساليب أخرى ، لكن ما كدتُ أعود إلى النوم إلاّ وعُدْن ، وممسكات بأيدى بعضهن أخذن يَدُرْنَ حولى فى دائرة ضخمة من الجونيلاّت أو ممتطيات الهواء كُنّ يُمطرن الأقدام والأرجل على رأسى. استمرّ هذا حتى الفجر. لم أنم بعد ذلك. تلوتُ صلوات ربانية ، وصلوات للسيدة العذراء ، وصلوات قانون الإيمان

المسيحى*. ولأن هذا الكتاب هو الحقيقة المطلقة ، فأنا مُرغم على الاعتراف بأنه كان علىّ أن أقطع أكثر من صلاة لأمضى فى الظلام وراء شخص وهمى ، تيك - تيك ، ثم بسرعة أستأنف الصلاة من جديد ، فى الوَسَط مباشرة ، لألحمها تماما ، وكأنه لم يكن هناك انقطاع ؛ لكننى واثق من أن العبارة الجديدة لم تكن تُستأنف من حيث انقطعت السابقة.

عندما عاد الشرّ فيما بعد فى الصباح ، حاولتُ أن أتغلّب عليه ، لكن بطريقة لا تدمّره كليًا. أنتَ يا مَنْ درستَ الكتاب المقدّس يمكنك أن تحدس ماذا كانت. هكذا تماما. ولأننى عجزتُ عن طرد هذه الأخيلة عن نفسى ، احتكمتُ إلى معاهدة بين ضميرى وخيالى. هذه الرؤى الأنثوية سيُنظر إليها من الآن فصاعدا على أنها مجرّد تجسُّدات للرذائل ، وسيجرى توقُّعها بوصفها كذلك - كأفضل طريقة لتمتين الخُلُق وتقويته لمواجهة المعارك العنيفة للحياة. لم أقم بصياغة هذا فى كلمات ، ولم يكن ذلك ضروريا. عُقدتْ المعاهدة بصورة ضمنية ، بشىء من التناقض ، لكنها عُقدتْ. وعلى مدى عدّة أيام كنتُ أنا الذى استدعيتُ الرؤى ، لأحصِّن نفسى ، ولم أكن أطردها عنى إلاّ عندما تكون هى ذاتها تعبت وانصرفت.

٥٩ - ضيوف لهم ذاكرة جيدة

هناك ذكريات لا تهدأ إلى أن ينشرها القلم أو اللسان. قال أحد القدماء أنه كان يشمئز من ضيف له ذاكرة جيدة. والحياة مليئة بهذا النوع من الضيوف ، وربما كنتُ واحدا منهم ، رغم أن الدليل على أن لى ذاكرة ضعيفـة يتمثـل فى ذات واقـع أن اسم ذلك القديم لا يحضرنى فى هذه

---

* الذى مطلعه « نؤمن بإله واحد ... » - المترجم

اللحظة ، لكنه كان أحد القدماء ، وهذا يكفى.

لا ، لا ، ذاكرتى ليست جيدة. على العكس ، يكن مقارنتها بشخص عاش فى بنسيونات دون أن يحفظ الوجوه أو الأسماء ، بل مجرّد تفاصيل مبعثرة. إذا قضى شخص حياته فى نفس بيت الأسرة بثبات أثاثه وعاداته ، أشخاصه وعواطفه ، فإن كل شىء يُنحت فى داخله بالتواصل والتكرار. كم أحسد أولئك الذين لم ينسوا بعد لون بنطلوناتهم الأولى ! فأنا لستُ متأكدا من لون البنطلون الذى لبستُه أمس. يمكننى فقط أن أحلف أنه لم يكن أصفر ، لأننى أمقت ذلك اللون – لكن حتى هذا قد يكون النسيان أو التشوّش. بل هو النسيان أكثر منه التشوش ! سأوضّح نفسى. لا طريقة هناك لتصحيح كتاب مشوّش ، لكن كل شىء يمكن تعويضه فى حالة كُتُب مليئة بالحذوف. من ناحيتى ، عندما أقرأ كتابا من النمط الأخير لا أنزعج على الإطلاق. ما أفعله ، عندما أصل إلى النهاية ، هو أن أغمض عينىّ وأستدعى كل الأشياء التى لم أجدها فيه. ما أكثر الأفكار الرائعة التى تأتينى عندئذ ! أىّ تأملات عميقة ! الأنهار ، الجبال ، الكنائس ، التى لم أجدها فى الصفحة المكتوبة ، كلها تظهر لى الآن بمياهها ، وأشجارها ، ومذابحها ؛ ويُجرّد الجنرالات السيوف التى لم تغادر أغمادها قط ، ويُطلق الكلاريون الأنغام التى ظلّت نائمة فى المعدن ، وكل شىء يتقدّم بحيوية مفاجئة.

الحقيقة أن كل شىء يمكن العثور عليه خارج كتابٍ به فجوات ، أيها القارئ النبيل. هذه هى الطريقة التى أملأ بها ثغرات الآخرين ؛ بنفس الطريقة يمكنك أن تملأ ثغراتى.

٦٠ - أيها العمل الأدبى القصير العزيز

هذا ما فعلتُه بمديح للقديسة مونيكا ، بل فعلتُ أكثر: وضعتُ فيه ليس فقط ما كان ينقصه عن القديسة ، بل أيضا أشياء لم تكن لها أىّ صلة بها. سبق لك أن رأيتَ السونيتّة ، والجوارب ، والأربطة ، وطالب المعهد الدينى إسكوبار ، وأشياء أخرى عديدة. سترى الآن بقية ما خرج من الصفحات المصفرّة للعمل الأدبى القصير فى ذلك اليوم.

أيها العمل الأدبى القصير العزيز ، أنتَ لم تكن تساوى شيئا ، لكن كم أكثر يساوى زوج شبشب قديم ؟ ومع ذلك كثيرا ما يكون فى زوج شبشب نوع من العبير وإن جاز القول دفء قدمين. مهما يكن ممزّقا وباليا ، يذكّرنا زوج شبشب مع ذلك بأن شخصا لبسه فى الصباح وهو يخرج من فراشه ، أو خلعه فى الليل وهو يدخل فيه. وإذا كانت المقارنة غير مناسبة لأن الشبشب فى الواقع جزء من شخص وأحَسّ باحتكاك قدميه ، هناك ذكريات أخرى ، مثل الحجر من شارع ، الباب لبيت ، تصفير خاص ، نداء بائع متجول ، مثلا بائع جوز الهند ، الذى ذكرتُه فى الفصل ١٨. وعندما حكيتُ عن أغنية جوز الهند ، كنتُ ممزّقاً بالشوق إلى حدّ أننى طلبتُ أن يُدوّنها لى صديق كان مدرّس موسيقى وألصقتها بالغراء فى نهاية الفصل. وإذا كنتُ حذفتُها فيما بعد ، فذلك لأن موسيقيّا آخر عرضتُها عليه اعترف ، بصراحة ، بأنه لم يجد فى المقطوعة شيئا يمكن أن يُوقظ أىّ أشواق. ولأن نفس الشىء قد لا يحدث مع محترفين آخرين قد يتصادف أن يقرأونى ، من الأفضل أن أوفّر على ناشر الكتاب عناء وتكلفة طباعة الكلاشيهات. أنتَ ترى أننى لم أُضف أىّ ملحق ، ولن أفعل. وأنا مقتنع بأنه لا يكفى أن يكون صياح الباعة فى الشوارع ، شأنه شأن الأعمال الأدبية القصيرة لطلاّب معهد دينى ،

منطويا فى داخله على أحداث ، وأشخاص ، وأحاسيس : من الضرورى أن يعرفهـا المرء ويعانيهـا فى حينهـا - بدون ذلك يـكون كل شىء أبكم ولا لون له.

لكن لننتقلْ إلى باقى ما خرج من الصفحات المصفرّة.

٦١ - عجلة هوميروس

كان الباقى كثيرا جدا. رأيتُ أيام الفراق الأولى تُقْبِل ، أيام كئيبة قاسية ، رغم كلمات التشجيع التى تلقّيتُها من المدرسين القساوسة والطلاب فى المعهد الدينى ، وتلك التى كانت من أمى ومن الخال كوزمه كما حملها چوزيه دياس إلى المعهد الدينى.

« الجميع يشتاقون إليك ، » قال لى ، « لكن أعظم شوق بطبيعة الحال فى أعظم قلب. فأىّ قلب هو ؟ » سأل ، مُفصحا عن الإجابة بعينيه.

« ماما ».

أمسك چوزيه دياس بيدىّ بانفعال وانطلق يقدّم صورة لحزن أمى ، كيف كانت تتكلم عنى كل يوم ، تقريبا كل ساعة. ولـمّا كان يتّفق دائما معها وأضاف كلمة أو أخرى بشأن المواهب التى أنعم الرب بها علىّ ، كان اغتمام روح أمى فى هذه المناسبات لا يُوصف. كان يروى لى كل هذا ، يغمره إعجاب دامع. الخال كوزمه بدوره أصبح بالغ الحنان.

« أمس فقط كانت هناك حالة شيقة. عندما حدث أن قلتُ لحضرتها أن الرب منحها ليس ابنا بل ملاكا من السماء ، تأثّر الدكتور إلى حدّ أنه لم يستطع أن يمنع دموعه إلاّ بالإدلاء بأحد مدائحه الساخرة تلك لى بالطريقة التى لا يعرفها إلاّ هو. ولا حاجة إلى القول أن دونا جلوريا

مسحتْ دمعة مختلسة. وإلاّ ما كانت أمًّا ! أيّ قلب ممتلىء حبًا ! الأكثر امتلاءً ! »

« لكن ، يا سنيور چوزيه دياس ، ماذا عن خروجى من هنا ؟ »

« أنا مهتم بذلك. الرحلة إلى أوروبا هى ما ننشد ، لكن يمكن القيام بها بعد سنة أو سنتيْن من الآن ، فى ١٨٥٩ أو ١٨٦٠ ... »

« ليس قبل ذلك ! »

« سيكون من الأفضل أن نقوم بها هذه السنة ، لكنْ لننتظر فرصتنا المناسبة. اصبرْ ، واصلْ الدراسة ، لن تخسر شيئا بالتقاط بعض المعرفة هنا ؛ إلى جانب ذلك ، حتى إذا لم تصبح قسّيسا ، التعلُّم فى المعهد الدينى مفيد ، ليس بالشىء السىء أن تنطلق فى العالم ، ممسوحا بزيوت اللاهوت المقدسة ... . »

عند هذه النقطة – وأنا أذكر ذلك كأنه كان أمس – ومضتْ عينا چوزيه دياس بحدّة ملأتنى بالدهشة. ثم انطبق عليهما الجفنان وظلاّ كذلك عدّة لحظات ، إلى أن رفعهما مرة أخرى وتركزت عيناه على جدار الفناء كأنهما سكرتا بشىء ما ، إن لم يكن بنفسهما. أخيرا انتزعتا نفسهما من الجدار وأخذتا تجولان فى أنحاء الفناء بأكمله. ربما كان بوسعى أن أقارنه بعجْلة هوميروس: أحاط بالعجل الذى ولده لتوّه وأخذ يئنّ برفق حوله. لم أسأله ماذا دهاه. أحجمتُ ، فى البداية من الخجل ثم بسبب أستاذيْن ، أحدهما أستاذ لاهوت ، كانا يسيران فى اتجاهنا. عندما كانا على وشك أن يمرّا بنا ، تكلّم معهما التابع ، الذى كان يعرفهما ، بالاحترام الذى كانا يستحقانه ، وسألهما عن مدى تقدُّمى.

« لا يزال الوقت مبكرًا جدا على قطع أىّ وعود ، » قال أحدهما ، « لكن يبدو أنه سيجتازُ كلّ شىء على أفضل ما يرام ».

« هذا ما كنتُ أقول له منذ قليل ، » قاطع چوزيه دياس بسرعة.

« إننى أعدّ نفسى لسماع أول قداس له. لكن حتى إذا لم يتم رَسْمه قسّيسا ، لا يمكنه أن يحصل على تعليم أفضل مما يحصل عليه هنا. وسوف ينطلق فى رحلة الحياة ،.» و ختم كلامه ، متأنّيا عند كلمات « ممسوحا بزيوت اللاهوت المقدسة ... . »

فى هذه المرة كان الوميض فى عينيه أقلّ ولم يسقط الجفنان كما أن إنسانىْ العينيْن لم يقوما بالحركات التى قاما بها من قبل. على العكس ، كان كلّه اهتماما واستفسارا. كل ما هناك أن ابتسامة متألّقة وودية ارتشعت حول شفتيه. وجد أستاذ اللاهوت المجاز على هواه وقال له ذلك. شكره چوزيه دياس ، وأوضح أنها كانت أفكارا ندّت عنه عفو الخاطر فى سياق الحديث. لم يكن كاتبا أو خطيبا.

كنتُ أنا الذى لم أجد المجاز عل هواى على الإطلاق. وبمجرّد أن انصرف الأستاذان ، هززتُ رأسى:

« لا أريد أن أسمع أىّ شىء عن زيوت اللاهوت المقدسة. أريد أن أخرج من هنا فى أسرع وقت ممكن ، أو الآن على الفور... . »

« على الفور ، يا ملاكىْ ، مستحيل ؛ لكن ربما كان ذلك أسرع كثيرا مما نتصوّر. من يدرى ؟ ربما فى سنة ٥٨ هذه نفسها. عندى خطة جاهزة وأنا أفكر الآن فى الكلمات التى سأستخدمها عند عرضها على دونا جلوريا. أنا واثق من أنها ستذعن وتذهب معنا ».

« أشك فى أن ماما ستسافر معنا إلى الخارج ».

« سنرى. الأم قادرة عل أىّ شىء ؛ لكنْ بها أو بدونها ، اعتبر رحيلنا حقيقة لا شك فيها ، وسأبذل قصارى جهدى ؛ انتظرْ فقط. الصبر كل ما هو مطلوب. ولا تفعلْ هنا أىّ شىء يمكنه أن يؤدى إلى نقد أو شكوى – الطاعة الكاملة وكلّ مظاهر الرضا ! ألم تسمع كلمات الثناء التى قالها الأستاذ ؟ كان سلوكك على ما يرام. حسنا إذن ، واصلْ نفس السلوك ».

« لكن ١٨٥٩ أو ١٨٦٠ بعيدتان جدا ».

« سيكون فى هذه السنة ، » أجاب چوزيه دياس.

« ثلاثة أشهر من الآن ؟ »

« أو ستّة ».

« لا ، ثلاثة ».

« حاضـر ، ثلاثـة. عندى خطة جديدة ، وهى تبدو لى أفضل من أىّ خطة أخرى. أن نجمع بين غياب النداء الكنسىّ وضرورة تغيير الجو. لم لا تسعل ؟ »

« لم لا أسعل ؟ »

« أوه ، ليس على الفور. سأبلّغك لتسعل عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك ، مع البداية تدريجيا ، سعلة جافة صغيرة وبعض فقدان الشهية. سأكون مستمرا فى تهيئة حضرتها... أوه ، كل هذا لمصلحتها هى. عندما ترى أن ابنها لا يمكنه أن يخدم الكنيسة كما ينبغى أن تُخْدَم ، ستكون أفضل طريقة لإنفاذ إرادة الرب هى تكريسه لشىء ما آخر. العالم أيضا كنيسة لذوى القلوب الطيبة ... »

مرة أخرى بدا لى أنه مثل عِجْلة هوميروس: كأن كلماته « العالم أيضا كنيسة لذوى القلوب الطيبة » كانت ثورا صغيرا ، أخاً ل « زيوت اللاهوت المقدسة ». لكننى لم أترك له أىّ وقت للتعبير عن حنانه الأمومى ، وقاطعته بقولى: « آه ! أنا فاهم ! نجعلها ترى أننى لست على ما يرام لكى نُسافر إلى الخارج ، أليس كذلك ؟ »

تردّد چوزيه دياس قليلا ، ثم أفصح عن قصده: « نجعلها ترى الحقيقة ، لأننى ، بصراحة ، يا بنتينيو ، عندى شكوك أحيانا بخصوص صدرك. صدرك ليس قويا. عندما كنتَ صغيرا أُصبتَ مرارا بسخونة وبحّة .... كلّ ذلك ذهب عنك الآن ، لكنْ هناك أيام لا يكون فيها لونك على

ما يرام. أنا لا أقول أنك مريض الآن ، لكن المرض قد يأتى فجأة. البيت يمكن أن ينهار دفعة واحدة. وهكذا إذا كانت تلك السيدة التى فى عداد القديسات غير راغبة فى الذهاب معنا - أو لنجعلها تذهب بسرعة أكبر ، أظنّ أن سعلة جيدة ... وإذا كان السعال سيأتى على أى حال ، فمن الأفضل أن نعجّل به ... حسنا ... دَعْ الأمر لى ، سأُعطيك الإشارة ...».

« حسنا ، لكننى لن أصعد إلى ظهر السفينة بمجرد أن أخرج من هنا. أوّلاً أخرج من هنا ، ثم نفكّر فى الإبحار. الرحلة هى التى يمكن أن تنتظر إلى السنة التالية. أليسوا يقولون أن أفضل وقت للسفر أبريل أو مايو ؟ حسنا فليكن مايو إذن. أوّلاً أغادر المعهد الدينى ، فى غضون شهرين من الآن ... »

ولأن الكلمة كانت تلتصق بحلقى ، استدرتُ بسرعة وسألتُ مباشرة:

« وكاپيتو - كيف حالها ؟ »

٦٢ - لمسة من إياجو

كان السؤال غير حكيم فى وقت كنتُ أحاول فيه تأجيل موعد الإبحار. كان بمثابة إقرار بأن السبب الرئيسى أو الوحيد لنفورى من المعهد الدينى يتمثل فى كاپيتو ، الأمر الذى كان من شأنه أن يجعله يعتقد أن الرحلة بعيدة الاحتمال. أدركتُ هذا بمجرد أن تكلّمت. أردتُ أن أصحّح نفسى لكننى لم أعرف كيف كما أنه لم يترك لى وقتا.

« إنها مبتهجة وسعيدة كعادتها دائما. يا لها من مخلوقة طائشة ! فقط تنتظر لتوقع فى شراكها شابا ما متأنقا من الحىّ ، وتتزوجه ... . »

أنا واثق من أن وجهى غدا شاحبا. على الأقل أحسست بقشعريرة سرتْ فى كل جسدى. فالنبأ القائل أنها كانت مبتهجة وسعيدة بينما كنتُ

أبكى كل ليلة أحدث ذلك الأثر ، وكان ذلك مصحوبا بدقّ عنيف من قلبى إلى حدّ أنه يبدو لى حتى فى الوقت الحالى أننى أسمعه. هناك شىء من المبالغة فى هذا القول ، لكن هذا هو شأن الخطاب البشرى ، فهو مركّب من التضخيم المسرف والتهوين المسرف بحيث يعوّض كل منهما عن الآخر ويتكافأ معه. من جهة أخرى إذا فهمنا أن السمع فى هذه الحالة لم يكن سمع الأذنين بل سمع الذاكرة ، سنصل إلى الحقيقة الدقيقة. لا تزال ذاكرتى تسمع الدقّ العنيف لقلبى فى تلك اللحظة. لا تنسَ أنها كانت عاطفة الحبّ الأول. كنتُ على وشك أن أطلب من چوزيه دياس أن يفسّر بهجة كاپيتو ، ماذا فعلتْ ، ما إذا كانت دائما تضحك ، أو تغنّى ، أو تقفز ، لكننى كبحتُ جماح نفسى فى الوقت المناسب ، ثم عندئذ: فكرة أخرى...

فكرة أخرى ، لا ، إحساس قاسٍ ومجهول ، غيرة خالصة ، يا قارىء قلبى. ذلك ما حفر طريقه فى داخلى وأنا أردّد لنفسى كلمات چوزيه دياس: « شاب ما متأنق من الحىّ ». كانت هذه حقا كارثة لم أفكّر فيها قط. أنا عشتُ كثيرا فيها ، وبها ، ولها ، إلى حدّ أن التدخل المفاجىء لشاب ما متأنق كان ، إن جاز القول ، فكرة بلا واقع. لم يكن خطر ببالى أبدا أن هناك شبانا متأنقين فى الحى ، من مختلف الأعمار والأنماط ، متنزّهين عريقين فى الأصائل. تذكّرتُ عندئذ أن بعضهم اعتادوا أن يحملقوا فى وجه كاپيتو – وكنتُ أحسّ أننى زوجها إلى حدّ أنه بدا وكأنهم كانوا يحملقون فى وجهى أنا ، مجرّد تعبير عن الإعجاب والحسد. وعندما افترقنا ، بالمكان والمصير ، بدا لى الشرّ ليس ممكنا وحسب ، بل أكيدا. ثم أكّد ابتهاج كاپيتو الشك. إذا كانت مبتهجة ، كان ذلك يعنى أنها وقعت بالفعل فى حبّ شخص آخر ، تتتبّعه بعينيها كلما مرّ فى الشارع ، تكلّمه من النافذة عند هبوط الليل ، يتبادلان الزهور و ...

و ... ماذا أيضا ؟ أنت تعرف ماذا أيضا يتبادلان. إذا لم يكن بإمكانك أن تحدس بنفسك فلا فائدة من قراءتك باقى الفصل ، ولا باقى الكتاب ؛ ستكون عاجزا عن أن تحدس أىّ شىء ، حتى إذا أعطيتُك أصل وتاريخ كل كلمة. لكن إذا كنتَ حدستَ فسوف تفهم أننى ، بعد أن ارتجفتُ ، أحسستُ بحافز عنيف إلى أن أندفع بلا تردد أو إبطاء عبر البوابة الرئيسية ، أن أحثّ الخطى ، وأجرى ، وأسرع إلى بيت پادْوا ، وأمسك بكاپيتو وآمُرها ، وأجبرها على أن تعترف كم ، كم ، كم دفع لها - هذا الشاب المتأنق من الحىّ. لم أفعل شيئا. لم يكن لنفس الأحلام التى أقصّها الآن ، فى غضون تلك الدقائق الثلاث أو الأربع ، هذا المنطق للحركة والفكر. كانت مفككة ، مرقّعة ، مرقّعة للغاية ، مثل تصميم مرقّع وملتوٍ ، فوضى ، زوبعة أعمتْنى وأصمّتْنى. عندما عدتُ إلى نفسى كان چوزيه دياس يختتم جملة لم أكن سمعتُ بدايتها ، وحتى النهاية كانت مبهمة: « الأهمية التى تعطيها لنفسها ». أىّ أهمية ومَنْ ؟ افترضتُ طبعا أنه كان لايزال يتحدث عن كاپيتو ، وأردتُ أن أسأله ، لكن الرغبة ماتت فور مولدها مثل انبثاقات أخرى كثيرة جدا لها. اكتفيتُ بسؤال التابع متى أعود إلى البيت وأرى أمى.

« بى شوق إلى رؤية ماما. هل يمكننى أن أذهب هذا الأسبوع ؟ »

« ستذهب يوم السبت ».

« السبت ؟ أوه ، نعم ، نعم ! اطلبْ من ماما أن ترسل فى طلبى يوم السبت ! السبت ! هذا السبت ، هل ستفعل ؟ اجعلْها ترسل فى طلبى من غير إبطاء ».

٦٣ - نصفا حلم

تلهّفتُ على مجيء السبت. حتى ذلك الحين أزعجتنى الأحلام ، حتى فى يقظتى. لن أرويها هنا ، لكى أتفادى إطالة هذا الجزء من الكتاب. سأسجّل واحدا فقط ، وبأقل عدد ممكن من الكلمات ، أو بالأحرى ، سأسجّل حلميْن لأن أحدهما تولّد عن الآخر - إن لم يكونا يشكّلان فى الواقع نِصفَىْ حلم واحد. كل هذا غامض ، سيدتى القارئة ، لكن الخطأ هو خطأ جنسك ، الذى أقلق على هذا النحو مراهقة طالب مسكين فى المعهد الدينى. لولا ذلك ، ربما كان هذا الكتاب مجرّد موعظة فى أبرشية لو كنتُ أصبحتُ قسّيسا ، أو رسالة رعوية لو كنتُ أصبحت أسقفا ، أو منشورا عاما لو كنتُ أصبحت البابا ، كما أوصانى الخال كوزمه: « ارحلْ ، يا فتى ، وعُدْ إلىّ وأنتُ بابا ! » آه ، لماذا لم أحقّق هذه الرغبة ؟ فبعد نابليون ، الملازم والامبراطور ، صارت كل المصائر ممكنة فى هذا القرن.

فيما يتعلق بالحلم ، فها هو. بينما كنتُ منشغلا بالتفتيش عن شبان متأنقين فى الحىّ ، رأيتُ أحدهم يتحادث مع حبيبتى تحت نافذتها. أسرعتُ إلى المكان ؛ كان هرب. صعدتُ إلى كاپيتو ، لكنها لم تكن وحدها ؛ كان أبوها إلى جانبها ، يمسح عينيه ويحملق فى ورقة يانصيب خاسرة. لأن هذا لم يكن واضحا لى مطلقا ، كنتُ على وشك أن أطلب منه تفسيرا عندما قدّمه إلىّ من تلقاء نفسه: الشاب المتأنق أحضر إليه منذ قليل قائمة بالأرقام الفائزة بجوائز ، وتبيّن أن الورقة خاسرة. كان لديه رقم ٤٠٠٤. قال لى أن هذا التناسق فى الأرقام شىء ملغز وجميل ، ومن المحتمل أن عجلة اليانصيب تحطمت ؛ فمن المستحيل ألاّ تكون ورقته كسبت الجائزة الكبرى. بينما كان يتكلم ، كانت كاپيتو تعطينى ، بعينيها ،

كل الجوائز ، كبرى وصغرى. أعظم هذه الجوائز كان لابد من إعطائها بالفم. وهنا يدخل الجزء الثاني من الحلم. اختفى پادْوا ، وكذلك آماله المتصلة بورقة اليانصيب. كانت كاپيتو تنظر إلى الشارع متكئة على النافذة ، تطلعتُ بسرعة إلى كل مكان فى الشارع ، كان مهجورا. أخذتُ يديها ، وغمغمتُ بشىء أو آخر ، واستيقظتُ وحيدا فى مهجعى.

لا تكمن أهمية ما قرأتَه لتوّك فى موضوع الحلم ، بل فى المحاولات التى بذلتُها لأعود إلى النوم لأستأنف الحلم مرة أخرى. لا يمكنك أبدا فى هذا العالم أن تتصوّر الطاقة والمثابرة اللتين بذلتُهما فى إغماض عينىّ والاحتفاظ بهما مغمضتيْن بإحكام ، وفى طرد كل شىء عن عقلى لكى أسقط نائما. لكننى لم أسقط نائما. هذا الجهد ذاته أفقدنى نومى حتى الفجر. عند الفجر نجحتُ فى استمالته إلىّ ، لكن عندئذ لا الشبان المتأنقون ، ولا أوراق اليانصيب ، ولا الجوائز الكبرى أو الجوائز الصغرى – لا شىء على الإطلاق أتى ليقلقنى. لم أعد أحلم فى تلك الليلة ، وسمّعتُ دروسى تسميعا رديئا فى اليوم التالى.

٦٤ - فكرة وتردُّد

وأنـا أعيد قراءة الفصـل السابـق ، جـاءتنى فكرة ومعها تردُّد. لا يزيد التردّد عن هذا ، ما إذا كان ينبغى أن أسجّل الفكرة على الورق ، لأنه لاشىء على الأرض أكثر منها ابتذالا ، وإنْ كان ابتذال الشمس والقمر اللذيْن تمنحهما لنا السماء كل يوم وكل شهر. استدرتُ مبتعدا عن المخطوطة ونظرتُ إلى الجدران. أنت تعلم أن هذا البيت فى إنچنيو نوڤو ، من حيث أبعاده ، ونظامه ، وديكوره ، نسخة طبق الأصل من بيتى القديم فى ماتاكاڤايّوس. وكما أخبرتك فى الفصل ٢ ، كان غرضى من إحياء

البيت الآخر هو أن أربط طرفىْ حياتى ببعضهما ، وهذا ، بالمناسبة ، ما لم أحققه إلى الآن. حسنا ، حدث نفس الشىء لذلك الحلم الذى حلمتُه فى المعهد الدينى ، ولا يهمّ كم حاولتُ أن أنام ونمت. من هذا أستنتج أن إحدى مهام الإنسان تتمثل فى أن يغمض عينيه ويحتفظ بهما مغمضتيْن بإحكام ليرى ما إذا كان الحلم الذى انقطع عندما كان الليل فى أوّله سيستمر خلال الساعات الميتة. هذه هى الفكرة المبتذلة والمبتكرة التى تردّدتُ فى كتابتها هنا ، ولا أكتبها الآن إلاّ من باب الاحتياط.

قبل إنهاء هذا الفصل ، ذهبتُ إلى النافذة لأسأل الليل عن السبب فى أن الأحلام رقيقة إلى درجة أنها تنقطع وتتبدّد عند أدنى فتح للعينيْن أو تقلُّب للبدن ، فلا تدوم. الليل لم يردّ علىّ فى الحال. كان فاتن الجمال ؛ كانت التلال المنخفضة شاحبة فى ضوء القمر وتجمّد المكان فى الصمت. حينما ألححتُ ، أخبرنى أن الأحلام لم تعد خاضعة لسلطانه. وعندما كانت تقيم على الجزيرة التى كان منحها إياها لوسيان ، حيث كان لليل قَصْره ، ومن حيث كان يُطلقها بوجوهها الأشبه بوجوه الغوّاصين ، ربما كان الليل أعطانى تفسيرات ممكنة. الزمن غيّر كل شىء. الأحلام القديمة أُحيلت إلى المعاش ، أما الجديدة فأقامت فى دماغ كل شخص. وهذه الأخيرة ، مع أنها حاولت محاكاة السابقة ، عجزتُ عن المحاكاة: فجزيرة الأحلام ، مثل جزيرة الحب ، وكل جُزُر كل البحار ، غدت الآن موضوعا لطموح وتنافس أوروبا والولايات المتحدة.

كانت تلك إشارة إلى الفيليبِّين. ولأننى لا أحب السياسة ، وناهيك بالسياسة العالمية ، أغلقت النافذة وعُدتُ لإنهاء هذا الفصل قبل أن أذهب إلى الفراش. لم أعد ألتمس أحلام لوسيان ، ولا الأحلام الأخرى ، ثمار الذاكرة والهضم. غدوتُ راضيا بنوم آمن هادىء. فى الصباح ، عندما يهدأ كل شىء ، سأمضى مع بقية القصة والشخصيات.

٦٥ - الخداع

جاء السبت ، وجاءت أيام سبت أخرى ، وبدأت أزداد حبًا للحياة الجديدة ، مُناوبا بين البيت والمعهد الدينى. المدرسون القساوسة أحبّونى ، والأولاد أيضا ، وإسكوبار أكثر من الأولاد الآخرين والمدرسين. وبعد خمسة أسابيع كنتُ مستعداً لأن أخبره بمتاعبى وآمالى. صدّتْنى كابيتو.

« إسكوبار هو صديقى الحقيقى جدا ، يا كابيتو ! »

« لكنه ليس صديقى ».

« ربما أصبح صديقك ؛ قال لى فعلا أنه يريد أن يأتى ليلتقى بماما ».

« هذا لا يهم ، أنت لا تملك الحق فى أن تقول سرًا لا يخصك وحدك بل يخصنى أيضا ، وأنا لا أعطيك إذنا بأن تقول أى شىء لأى شخص ».

كانت على حق. ظللتُ صامتا وأطعت. حالة أخرى أطعتُ فيها توجيهاتها وقعتْ فى أوّل سبت ، عندما ذهبتُ إلى بيتها. بعد دقائق قليلة من الحديث نصحتْنى بأن أذهب: « لا تبق هنا اليوم أكثر من هذا. عُدْ إلى البيت ، وسأذهب إليكم فيما بعد. من الطبيعى أن دونا جلوريا تريد أن تكون معك معظم الوقت ، أو كلّ الوقت إنْ أمكن ».

فى كل هذا ، قدّمتْ صديقتى الصغيرة الدليل على بُعد نظرها إلى درجة أنه يمكننى أن أستغنى تماما عن الاستشهاد بمثل ثالث ، لكن فيم تفيد الأمثلة إن لم يكن فى الاستشهاد بها ، كما أن هذا المثل جيد إلى حدّ أن حذفه سيكون جريمة. كان ذلك أثناء عودتى الثالثة أو الرابعة إلى البيت. بعد أن أجبتُ على الأسئلة الألف التى وجهتها أمى عن الطريقة التى يعاملوننى بها ، ودراستى ، وأصدقائى ، وتدريبى ، وما إذا كا أىّ

شيء يؤلمنى فى أىّ مكان ، وماإذا كنت أنام جيدا ، كل تلك الأشياء التى يخترعها الحب الأمومى لاستنفاد صبر ابن – ختمتْ بالاستدارة إلى چوزيه دياس:

« يا سنيور چوزيه دياس ، ألا تزال تشكّ فى أن قسّيسا جيدا سيخرج من هذا الصبى ؟ »

« حضرتك ... »

« وأنتِ ، يا كاپيتو ، » قاطعتْ أمى مستديرة إلى ابنة پادْوا ، التى تصادف أن كانت فى الحجرة معها: « ألا تعتقدين أن عزيزنا بنتينيو سيغدو قسّيسا جيدا ؟ »

« أعتقد ، يا سنيورة ، » أجابت كاپيتو باقتناع.

لم أحبّ ذلك الاقتناع. قلتُ لها ذلك فى الصباح التالى ، فى حديقتها ، عندما تذكّرتُ كلماتها فى المساء السابق. صارحتُها ، لأول مرة ، بالابتهاج الذى أبدتْه منذ بداية دخولى المعهد الدينى ، بينما كان قلبى يتقطّع شوقا. صارت كاپيتو جادّة وسألتنى عن الطريقة التى كنتُ أريدها أن تتصرف بها ، وهى ترى أنهم يرتابون فينا بالفعل. هى أيضا قضتْ ليالى تعيسة ، وكانت أيامها ، فى بيتها هى ، حزينة مثل أيامى ؛ ويمكننى أن أسأل أباها وأمها . بل كانت أمها قالت لها ، بلغة مبطّنة ، أنها ينبغى أن تكفّ عن التفكير فىّ.

« مع دونا جلوريا ودونا چوستينا ، بالطبع ، أتظاهر بأننى مبتهجة وسعيدة بحيث لا يبدو أن وشاية چوزيه دياس صحيحة. لو بدتْ صحيحة ، لحاولوا أن يفصلونا أكثر من ذى قبل ، وربما انتهى الأمر بألاّ يستقبلونى... من ناحيتى ، يكفى أننا أقسمنا عل أن يتزوّج كل منا من الآخر ».

كان ذلك صحيحـــا: كان علينـا أن نتظـاهـر لكى نقتل كلّ شــك ،

ونتمتع ، فى الوقت ذاته ، بحريتنا السابقة ، ونبنى مستقبلنا بهدوء. لكن المَثَل اكتمل بما سمعتُه فى اليوم التالى على مائدة الإفطار. عندما قال الخال كوزمه أنه لا يزال يريد أن يرى كيف سيكون مظهرى وأنا أبارك الناس فى القدّاس ، روتْ أمى كيف قالت لها كابيتو قبل ذلك بأيام قليلة عندما كانتا تتحدثان عن بنات يتزوجن صغيرات: « حسنا ، فيما يخصنى ، الشخص الذى ينبغى أن يتزوجنى أنا هو الأب بنتينيو. إننى أنتظر إلى أن يتمّ رَسْمُه قسّيسا ! »

ضحك الخال كوزمه من القصة. ولم يمنع چوزيه دياس ابتسامة. ابنة العم چوستينا وحدها قطّبتْ جبينها وحدّقت إلىّ مستفسرة. أما أنا ، الذى نظرتُ إليهم جميعا حولى ، فلم أستطع أن أواجه نظرة ابنة عمى فشغلتُ نفسى بالأكل. لكننى لم آكل إلاّ القليل. كنتُ سعيدا بتحفة كابيتو فى الخداع إلى حدّ عجزت عن التفكير فى أىّ شىء آخر. وبمجرّد أن انتهيت من الإفطار قمتُ بزيارة خاطفة إلى هناك وأبلغتُها بالحديث ، وامتدحت دهاءها. ابتسمت كابيتو شاكرة.

« عندكِ حق ، يا كابيتو ، » قلت مختتما ، « سنخدع هؤلاء القوم جميعا ».

« ألم نخدعهم بعد ؟ » أجابتْ ببراءة.

٦٦- صداقة حميمة

كانت كابيتو تشقّ طريقها إلى قلب أمى. كانتا معاً معظم الوقت ، تتحدّثان عنّى بمناسبة وبغير مناسبة. اعتادت كابيتو أن تذهب إلى هناك وتخيط فى الصباح ؛ وكانت تبقى أحيانا للغداء.

لم تكن ابنة العم چوستينا تشارك قريبتها فى هذه المجاملات ،

لكنها لم تُعامل حبيبتى بالسوء المتوقّع منها. كانت صادقة بما يكفى لتقول الآراء السيئة التى تعتقدها عن شخص ، ولم يكن رأيها حسنا فى أىّ شخص – ربما باستثناء زوجها ، لكن زوجها كان ميتا. على أى حال ، لم يكن هناك رجل بوسعه أن يضارعه فى الحنان ، فى المثابرة والاستقامة ، فى السلوك وفى توقّد العقل. كان هذا الرأى ، وفقا للخال كوزمه ، تالياً لوفاة زوجها ، ذلك أنهما فى حياته كانا يتشاجران ويتعاركان دائما ، وفى الشهور الستة الأخيرة عاشا منفصلَيْن. ويرجع الفضل من باب أولى إلى حسّها بالعدالة ؛ فامتداح الموتى طريقة فى الصلاة من أجلهم. كانت أيضا مُغرمة بأمى ، أو إذا فكّرتْ أىّ تفكير سىء فيها ، كان ذلك بينها وبين وسادتها. من المفهوم أنه كان عليها أن تُبدى لها فى الظاهر الاحترام اللائق. وأنا لا أعتقد أنها طمحت إلى أىّ نوع من الميراث. والأشخاص المطبوعون على هذا يتجاوزون الخدمات المألوفة ، فَهُمْ يجعلون أنفسهم مقبولين أكثر ، وهم دائمو المجاملات ، ويضاعفون ملاطفاتهم ، ويتفوّقون على الخدم. كل هذا كان مناقضا لطبيعة ابنة العم چوستينا ، والتى كانت تتألّف من الفظاظة والعناد. ولمّا كانت تعيش فى البيت من باب الإحسان ، وهذا بديهى ، ما كان لها أن تُبدى استخفافا بسيدته ، وكان عليها أن تحتفظ لنفسها بمشاعر استيائها ، أو ألاّ تذكرها بسوء إلاّ مع الله والشيطان.

افترضْ أنها تكنّ مشاعرا استياء ضدّ أمى – لم يكن من شأن ذلك أن يبرّر لها أن تمقت كاپيتو ، كما أنها لم تكن بحاجة إلى مبررات إضافية. على أن صداقة كاپيتو الحميمة جعلتها بغيضة أكثر لقريبتى. وإذا كانت لم تعاملها معاملة سيئة فى البداية ، فهى غيّرت سلوكها بمضىّ الوقت وانتهت إلى تجنُّبها. عندما لم تعد تراها كانت كاپيتو المجامِلة تستفسر عن صحتها وتسأل عنها. تسامحت ابنة العم چوستينا مع هذه

المجاملات. الحياة مليئة بالتزامات يفى بها الناس مهما تكن رغبتهم كبيرة فى التهرّب منها. إلى جانب ذلك ، كانت كاپيتو سيدة لسحر قادر على الاستعباد ؛ وفى نهاية الأمر كان لابد لابنة العم چوستينا من أن تبتسم ، وإنْ كانت ابتسامة مُرّة ، لكنها مع أمى وحدها كانت تجد شيئا دنيئا يمكنها قوله عن الفتاة.

عندما سقطت أمى مريضة بحمّى وصلت بها إلى باب الموت ، طلبتْ أن تكون كاپيتو ممرضتها. ورغم أن هذا أراح ابنة العم چوستينا من مهام بغيضة مرهقة ، لم تغفر لصديقتى الصغيرة تطفُّلها. ذات يوم سألتْها ما إذا لم يكن لديها شىء ما تفعله فى بيتها. وفى يوم آخر ، أطلقت ضاحكةً هذه الحكمة: « لا حاجة بك إلى الجرى وراء ما تبغين ، ما سيكون من نصيبك سيأتى إليك من تلقاء نفسه ».

٦٧ - خطيئة

لن أجعل المرأة المريضة تنهض من فراشها دون أن أروى ما حدث لى. بعد خمسة أيام ، استيقظتْ أمى ذات صباح منزعجة ومضطربة إلى حدّ أنها أمرتْ بإحضارى إلى البيت من المعهد الدينى. بلا جدوى قال الخال كوزمه: « أختى جلوريا ، أنتِ تُزعجين نفسك بلا شىء ؛ الحمّى ستزول ... »

« لا ! لا ! أرسلْ فى طلبه ! قد أموت ، ولن ينجو روحى إذا لم يكن بنتينيو هنا معى ».

« سنبلغه ».

« حسنـــــا ، لا تخبره بشـــىء ، لكـن أحضـــرْه ، الآن ، الآن ، لا تنتـظرْ ».

اعتقدوا أنه هذيان الحمّى ؛ لكنْ لأن الإرسال فى طلبى لا يكلّف شيئا ، عهدوا بالمهمة إلى چوزيه دياس. دخل مرتبكا فأفزعنى. أخبر رئيس المعهد فيما بينهما بالموضوع وتلقّيت إذنا بالعودة إلى البيت. فى الشارع ، سرنا معا دون أن نقول شيئا. لم يغيّر خطوه المألوف - المقدمة الكبرى قبل الصغرى ، المقدمة الصغرى قبل نتيجة القياس - لكنه ثبّت عينيه على الأرض وتنهّد من وقت لآخر إلى حدّ أننى خشيتُ أن أنظر إلى وجهه خشية ما يمكن أن أقرأ فيه. كان تكلم عن المرض كموضوع بسيط ؛ لكن الاستدعاء إلى جانب فراش مرضها ، والصمت ، والتنهّدات ، ربما كانت تعنى شيئا أكثر. كان قلبى يدقّ بعنف ، وارتعشتْ رِجْلاىَ ، وأكثر من مرة ظننت أننى على وشك السقوط ... .

كانت رغبتى فى أن أسمع الحقيقة يعقّدها خوفى من معرفتها. كانت تلك هى المرة الأولى التى اقترب فيها الموت منى ، فحاصرنى ، وحملق فى وجهى بعينيه الغائرتيْن المعتمتيْن. كلما أوغلنا فى السير فى شارع باربونوس ، أفزعتنى أكثر فكرة الوصول إلى البيت ، الدخول ، سمـــاع البـــكاء ، رؤية جثة ... أوه ، لا يمكننى أبدا أن أصف هنا كلّ ما شعرت به فى تلك الدقائق المفزعة. مهما كان من شأن البطء الأبطأ الذى سار به چوزيه دياس ، بدا الشارع وكأنه يتلاشى تحت أقدامنا ، وكانت البيوت تفرّ هاربة على الجانبيْن ، وأتت أصوات بوق من ثكنات الحرس البلدى فترددّتْ فى مسمعىّ وكأنه بوق يوم القيامة.

مضيتُ فى طريقى ، وصلتُ إلى الأقواس ، انعطفتُ فى شارع ماتاكاڤايّوس. لم يكن البيت هناك مباشرة ، بل كان على مسافة كبيرة بعد كازا دوس إنڤاليدوس ، قُرْب مجلس الشيوخ. ثلاث أو أربع مرات أردتُ أن أسأل رفيقى ، دون أن أجرؤ على فتح فمى ؛ لكننى الآن لم تعد لدىّ أىّ رغبة من هذا القبيل. فقط ظللت أسير ، راضيا بالأسوأ كضربة قدر ،

كضرورة بشرية ، وعندئذ ، من أجل مقاومة الفزع ، همس الأمل لقلبى – ليس بهذه الكلمات ، فلا شىء تم لفظه بكلمات ، بل بفكرة يمكن ترجمتها بها– « إذا ماتت أمى ، سيكون ذلك نهاية المعهد الدينى ».

أيها القارىء ، كان ذلك وميضا مفاجئاً كالبرق ؛ ما كاد ينير الليل حتى تلاشى ، تاركا الظلام أشدّ كثافة بسبب الندم الذى تركه معى وراءه. كان ذلك تحريض اللهفة والأنانية. إخلاص البُنُوّة تلاشى للحظة أمام احتمال حرية بعينها من خلال اختفاء الديْن والمدين. كانت لحظة ، أقلّ من لحظة ، جزءاً من مائة جزء من لحظة ، لكنْ مع ذلك: كافية لتعقيد بؤسى بالندم.

كان چوزيه دياس يتنهّد. مرةً نظر إلىّ تعلوه سيماء الحزن إلى حدّ أنه بدا لى أنه خمّن أفكارى ، وطلبتُ منه تقريبا ألاّ يقول أىّ شىء لأىّ شخص ، لأننى سأعاقب نفسى ، الخ .. لكن حزنه كان ينطوى على الكثير من الحب بحيث لم يكن من الممكن أن تكون له أىّ صلة بخطيئتى ؛ لكنْ عندئذ كان لا يزال هناك موت أمى... . أحسستُ بكرب شديد ، بغصّة فى حلقى ، ولم يعد بمقدورى أن أتحمل ذلك فانفجرتُ باكياً.

« مالك ، يا بنتينيو ؟ »

« ماما ؟ »

« لا ، لا ! يا لها من فكرة ! حالتها خطيرة جدا لكنه ليس مرضا قاتلا ، وربّنا كبير. امسحْ عينيك ، لا يليق بصبىّ فى سنّك أن يمضى باكياً فى الشارع. لن يتمخّض الأمر عن أىّ شىء ، مجرّد حُمّى ... الحمّيات تصيب المرء بقوة مفاجئة وتذهب بنفس الطريقة ... لا ، ليس بأصابعك ، أين منديلك ؟ »

مسحتُ عينىّ ، رغم أن كلمتين فقط من كل كلمات چوزيه دياس بقيتا فى قلبى: كانت الكلمتان هما: خطيرة جداًّ. أدركتُ فيما بعد أنه

لم يقصد سوى خطيرة ، لكن استخدامه المألوف لصيغ التفضيل يجعل الفم يُطنب ، وفى سبيل جملته المطنبة ضاعف چوزيه دياس تعاستى. فإذا صادفتَ فى أىّ وقت حالة من هذا النوع فى هذا الكتاب أخبرْنى بها ، أيها القارئ ، لعلّنى أصحّحها فى الطبعة الثانية: لا شىء غير ملائم أكثر من منح أرجُل طويلة جدا لأفكار قصيرة جدا . مسحتُ عينىّ ، أكرّر ، ومضيتُ أسير ، متلهفا الآن على أن أصل إلى البيت وأطلب الصفح من أمى على الفكرة الشريرة التى خطرت على بالى. أخيرا وصلنا إلى هناك ، ودخلنا ؛ بقدميْن مرتجفتيْن صعدتُ الدرجات الستّ إلى الصالة ، وفى غضون لحظات قليلة كنتُ أنحنى على الفراش وأصغى إلى كلمات أمى الرقيقة فيما كانت تضغط على يدىّ فى يديها ونادتنى بابنها. كانت متلهفة ، احترقت عيناها فى عينىّ ، وبدا كلّ كيانها يحترق فى البركان الذى بداخلها. جثوتُ إلى جانب الفراش ، لكننى ، لأنه كان مرتفعا ، كنتُ بعيدا جدا عن ملاطفاتها:

« لا ، يا ابنى ، انهضْ ، انهضْ ! »

كاپيتو ، التى كانت فى حجرة النوم أيضا ، استمتعتْ برؤية دخولى ، وحركاتى ، وكلماتى ، ودموعى ، كما أخبرتنى فيما بعد ؛ لكنها بطبيعة الحال لم تشكّ فى كل أسباب غمّى.

بعد أن ذهبتُ إلى حجرتى فكّرت فى أن أقول لأمّى كل شىء ، بمجرّد أن تصبح على مايرام. لكن هذه الفكرة لم تنلْ سيطرة حقيقية علىّ. كانت رغبة مبهمة متراخية لم أكن لأضعها أبدا موضع التنفيذ ، مهما آلمتنى خطيئتى. ومدفوعا بالندم ، استفدتُ مرة أخرى بحيلتى القديمة الخاصة بالنذور الروحية. طلبتُ من الرب أن يعفو عنى وينقذ حياة أمى وسأتلو عندئذ ألفىْ صلاة ربانية. لعل القسّيس الذى يقرأنى أن يغفر لى حيلتى هذه ؛ كانت آخر مرة استغللتُها فيها . والأزمة التى وجدتُ نفسى

فيها تفسّر كل شيء ، ليس أقلّ من العادة والإيمان. كان هذا يعنى إضافة ألفىْ صلاة ربانية. أين تلك القديمة ؟ لم أسدّد – لا هذه ولا الأخرى ، لكن مثل هذه النذور ، التي تصدر عن أرواح مخلصة بريئة ، أشبه ما تكون بالنقود الائتمانية – رغم أن المدين لا يعاود شراءها ، تُساوى المبلغ المكتوب عليها.

٦٨- لنؤجّلْ الفضيلة

قليل من الأشخاص يمكن أن تكون لديهم الشجاعة للاعتراف بتلك الفكرة التى خطرت لى فى شارع ماتاكافايّوس. سأعترف بكلّ شيء على صلة بقصتي. كتب مونتانى عن نفسه: *ce ne sont pas mes gestes que j'ecris; c'est mon essence** حسنــا ، هنــاك طريقة واحدة وحسب لوصف المرء لجوهـره: أنْ يقـول كل شـيء ، الحسـن والردىء. هذا ما أفعله كلما تذكّرتُ أشياء مناسبة لتفسير وإعادة تفسير نفسى. على سبيل المثال ، الآن بعد أن رويتُ خطيئة ، سأكون سعيدا جدا بأن أروى أىّ عمل كريم قمتُ به من نفس الفترة إذا تذكّرتُ عملا كهذا؛ لكننى لا أتذكّر أىّ عمل كهذا . سيجرى تأجيله إلى أن تظهر فرصة أكثر ملاءمة.

كما أنك لن تخسر بانتظارك ، يا صديقى . على العكس ، يخطر على بالى أن... الأعمال الكريمة ليست كريمة فى أىّ مناسبة وحسب بل هى أيضا ممكنــة ومحتملة ـ وفقا للنظرية لدىّ خطايا وفضائل ، وهذا أمـر ليـس أقـلّ بسـاطة منه وضوحا . وهـو يتلخّص فى هذا: كل شخص

* ليست مآثرى ما أكتب ؛ بل جوهرى (بالفرنسية فى الأصل) – المترجم.

يُولد بعدد بعينه من الخطايا والفضائل تتّحد بالاقتران ليعوّض بعضها الآخر في الحياة. عندما يكون أحد هذين القرينيْن أقوى من الآخر فهو وحده يوجّه الفرد ـ دون أن يكون قادرا على القول مع ذلك ـ لأنه لم يمارس هذه الفضيلة أو يرتكب تلك الخطيئة ـ أنه يخلو من الواحدة أو الأخرى. لكن القاعدة هى تسليم النفس للممارسة المتزامنة للاثنتيْن ، بما يعود بالنفع لحاملهما ، وأحيانا بمجد عظيم على الأرض وفى السماء. ومن المؤسف أنه لا يمكننى أن أعطى أساسا لهذا بحالة أو أكثر من خارج نفسى؛ لكنْ ينقصنى الوقت.

بقدر ما يتعلق الأمر بى ، من المؤكد أننى وُلدتُ بالعديد من هذه الأزواج المقترنة ، وبطبيعة الحال فأنا لا أزال أملكها. حدث مؤخّرا هنا فى إنچنيو نوفو أنْ رغبتُ ذات ليلة عانيتُ فيها من صداع فظيع فى أن ينفجر قطار من قطارات السنترال ، بعيدا عن سمعى ، وفى أن يتوقّف الخط لعدّة ساعات ، حتى إذا كان لابد لأحدهم أن يموت؛ ثم فى اليوم التالى فاتنى قطار فى نفس الطريق لأننى قدمتُ عكازى لرجل أعمى لم يكن لديه عكاز. *Voilà mes gestes, voilà mon essence**

٦٩- قدّاس

تمثّلتْ إحدى مآثرى التى تعبّر خير تعبير عن جوهرى فى الإخلاص الذى سارعتُ به يوم الأحد التالى لأسمع القدّاس فى سانتو أنتونيـو دوس پوبـرس. أراد التابع أن يذهب معى وبدأ فى ارتداء ملابسـه ، لكنـه كان بطيئـا جدا مع حمالاته وأربطة بنطلونه إلى حدّ أننى

* تلك مآثرى ؛ ذلك جوهرى (بالفرنسية فى الأصل) – المترجم.

لم أستطع أن أنتظره. إلى جانب ذلك ، أردتُ أن أكون بمفردى. أحسستُ بضرورة تفادى أىّ حديث من شأنه أن يُحوّل أفكارى عن الغرض الذى كنت ذاهبا من أجله ، وكان هذا يتمثل فى عقد صلح بينى وبين الربّ بعد ما حدث فى الفصل ٦٧. لم يكن غرضى أن أطلب أن يغفر لى الخطيئة فحسب ، بل أيضا أن أشكره على شفاء أمى ، وأن أجعله – وهو يـرى أننى أقـول كل شـــىء – يمتنع عن الجبايــة على نذرى. إن يهوه ، رغم سماويته – أو لهذا السبب بالذات – هوروتشيلد ، فقط أكثر إنسانية بكثير: إنه لا يمنح فترات سماح بتأجيل الديون ، بل يُعفى من الدين بالكامل ، بشرط أن يرغب المدين حقا فى أن يُصلح من حاله ويخفّض نفقاته. حسنا ، أنا لم أطلب شيئا آخر؛ ومن الآن فصاعدا لن أنذر أىّ نذور أخرى لا يمكننى الوفاء بها ، أما تلك التى نذرتُها فعلا فسأفى بها حالما أحقّقها.

سمعتُ القدّاس. عند رفع خبز القربان المقدّس شكرتُه على حياة وصحة أمى. ثم تضرّعت إليه أن يغفر لى الخطيئة ويُلغى الدين ، وتلقيتُ البركة الأخيرة من الكاهن الذى أقام القدّاس كإجراء مقدّس للمصالحة. وفيما بعد خطر لى أن الكنيسة وطدت فى كرسى الاعتراف الطقس الأكثر قبولا بين الطقوس الدينية الشرعيــة ، وفى الاعتراف الأداة الأكثر جدارة بالثقة بين أدوات تسوية الحسابات الخلقية بين الانسان والرب. لكن جبنى الذى لا فكاك منه أغلق هذا الباب المضمون دونى: كنتُ خائفا من أن أعجز عن العثور على كلمات أروى بها سرّى لكاهن الاعتراف. كم يتغيّر الانسان ! اليوم أمضى إلى حدّ نشره.

٧٠- بعد القداس

واصلتُ الصلاة ، رسمتُ إشارة الصليب على نفسى ، أغلقتُ كتاب الصلاة ، وسرتُ نحو الباب. لم يكن هناك كثير من الناس ، لكن الكنيسة لم تكن كبيرة أيضا ، واستطعتُ فقط أن أخرج ببطء . كان هناك رجال ونساء ، كبار وصغار ، حرائر وأقطان ، وربما عيون جميلة وأخرى قبيحة؛ لكننى لم أرَ لا هذه ولا تلك. ظللت أسير فى اتجاه الباب ، مع الموجة ، وسمعتُ التحيات والهمسات الخفيضة. فى الرواق ، حيث كان المكان مضيئا ، نظرتُ إليهم جميعا. رأيتُ فتاة شابة ورجلا يخرجان من الكنيسة ويقفان. الفتاة نظرتْ إلىّ وتكلّمتْ مع الرجل ، ونظر الرجل إلىّ فيما كان يُصغى إلى الفتاة. وتناهت هذه الكلمات إلى أُذُنىّ:

« لكنْ ماذا تريدين ؟ »

« أريد أن أستفسر عنها . يجب أن تسأل ، يا بابا ».

كانت سينيازينيا سانشا ، زميلة كابيتو فى الدراسة ، وكانت تريد أن تستفسر عن أمى. أتى إلىّ أبوها. قلتُ له أن أمى شُفيتْ. ثم خرجنا. أشار إلى بيته ، ولأننى كنت ذاهبا فى نفس الاتجاه ، ذهبنا معا. كان چورچيل رجلا فى الأربعين أو أكثر قليلا ، وكان به ميل إلى كرش ضخم. كان شخصا بالغ الخنوع. وعندما وصلنا إلى بيته ، أصرّ على أن أتناول الإفطار معهما.

« أشكرك ، ماما تتوقّعنى ».

« سنبعث بصبى ملوّن ليقول أنك باق للإفطار وأنك ستأتى فيما بعد ».

« سآتى فى يوم آخر ».

استدارت سينيازينيا سانشا إلى أبيها ، وأصغتْ ، وانتظرتْ. لم

تكن قبيحة. كان وجه الشبه الوحيد مع أبيها أنفها ، الذى كان غليظا أيضا فى طرفه؛ لكنْ كانت هناك ملامح تأخذ الجمال من وجه وتمنحه لآخر. كانت تلبس ببساطة. كان چورچيل أرمل وكان يعيش لابنته. وعندما رفضتُ الإفطار ، توسّل إلىّ أن أتوقف وأستريح دقائق قليلة. لم أستطع أن أرفض فدخلت. أراد أن يعرف عمرى ، ودراساتى ، وإيمانى ، وقدّم إلىّ النصح فى حالة ما إذا كنتُ سأصبح قسّيسا. أعطانى رقم دكانه فى شارع كيتاندا. أخيرا ودّعنى. أتى إلى بسطة السلّم؛ وبعثْ الابنة تحياتها إلى كاپيتو وإلى أمى. وعندما نظرتُ إلى أعلى من الشارع ، كان الأب عند النافذة وأومأ إيماءة وداع فخمة.

٧١- زيارة من إسكوبار

فى البيت ، كانوا كذبوا بالفعل ، فأخبروا أمى أننى عُدْتُ وأغيّر ملابسى.

« قدّاس الساعة الثامنة لابد أن يكون انتهى ... بنتينيو كان ينبغى أن يكون عاد ... هل تعتقد أن شيئا حدث ، يا أخى كوزمه ؟ ابعثْ بأحد ليرى ... » هكذا كانت تتحدث من دقيقة لأخرى؛ لكننى دخلتُ ومعى الطمأنينة.

كان يوم مفاجآت سارّة. جاء إسكوبار ليزورنى ويستفسر عن صحة أمى. لم يقم من قبل بزيارتنا أبدا ، كما أن علاقاتنا آنذاك لم تكن وثيقة كما صارت فيما بعد ، لكنْ لأنه عرف السبب وراء مغادرتى للمدرسة قبل ذلك بُثلاثة أيام ، انتهز فرصة يوم الأحد ليزورنى زيارة خاطفة ويسأل عما إذا كان لا يزال هناك خطر. عندما قلت له أنه ليس هناك خطر ، تنهّد.

« كنتُ فزعا » ، قال.

« هل يعرف الآخرون ؟ »

« فيما يبدو؛ بعضهم يعرف ».

أحبَّ الخال كوزمه وچوزيه دياس الصبى. قال له التابع أنه رأى أباه ذات مرة فى ريودى جانيرو. كان إسكوبار مهذّبا جدا؛ رغم أنه تحدّث أكثر من عادته فيما بعد إلاّ أنه لم يكن كثير الكلام مثل الصبية الذين فى عمرنا. فى ذلك اليوم وجدتُه أصرح قليلا من المعتاد. دعاه الخال كوزمه إلى الغداء معنا. فكّر إسكوبار لحظة ثم قال أن وكيل أبيه يتوقّعه. تذكّرتُ كلمات چورچيل ، وكرّرتُها:

« سنبعث بصبى ملوّن ليقول أنك ستتغدّى معنا وأنك ستأتى فيما بعد ».

« ستكون مشكلة كبيرة ! »

« لا مشكلة على الإطلاق » ، قاطع الخال كوزمه.

قبل إسكوبار ، بقى للغداء. لاحظتُ أن الحركات السريعة التى كان يُبقيها تحت السيطرة فى الفصل الدراسى ، سيطر عليها الآن أيضا ، فى حجرة الجلوس وكذلك على المائدة. كانت الساعة التى قضاها معى ساعة صداقة بلا تحفّظ. أطلعتُه على الكتب القليلة التى كنتُ أملكها. أُعجب إعجابا شديدا ببورتريه أبى؛ بعد لحظات قليلة من التأمّل فيه استدار إلىّ وقال:

« من الواضح أن هذا كان إنسانا صافى القلب ! »

عَيْنا إسكوبار ، اللتان كانتا صافيتيْن ، كما قلتُ من قبل ، كانتا أيضا حلوتيْن جدا. تلك هى الطريقة التى وصفهما بها چوزيه دياس بعد أن غادر ، وأنا أحتفظ بالكلمة رغم مرور أربعين سنة على ذلك. فى هذه الحالة لم يكن هناك أىّ أثر لمبالغات التابع. كان الوجه الحليق لإسكوبار

يكشف عن بشرة ناعمة ناصعة. ربما كان جبينه منخفضا قليلا (كان مفرق شعره فوق حاجبه الأيسر تماما) لكنه كان مرتفعا مع ذلك بما يكفى لئلاّ يلتهم بقية ملامحه فيقلّل من جمالها. والواقع أنه كان وجها لافتا للنظر: فم دقيق بارتفاع حادّ إليه ، وأنف رفيع مقوّس. وكانت له عادة خاصة هى أن يلوى كتفه الأيمن من حين لآخر - وفقدها بعد أن نبّهه إليها أحدنا ذات يوم فى المعهد الدينى - وهذا أفضل مثال رأيتُه فى حياتى لشخص يعالج نفسه من عيب ثانوى تافه.

لم أستطع أبدا أن أمنع نفسى من نوع من الزهو البالغ كلما وجدتُ أصدقائى يحوزون رضا الجميع. ارتاحت أسرتى بكاملها ارتياحا شديدا إلى إسكوبار. حتى ابنة العم چوستينا وجدته شابا جديرا بالاحترام للغاية ، رغم ...

« رغم ماذا ؟ » سأل چوزيه دياس عندما رأى أنها لا تعتزم إتمام عبارتها.

لم يحصل على أىّ إجابة ، كما لم يكن من المحتمل أن يحصل عليها. ومن المحتمل أن ابنة العم چوستينا لم تجد أىّ عيب واضح أو هامّ فى ضيفنا. كانت كلمة رغم نوعا من الاحتياط ضدّ نقيصة ما ربما اكتشفتْها فيه ذات يوم ، إما هذا أو أنها كانت نتيجة عادة طويلة قادتْها إلى أن تضع تحفُّظا حيث لا تجد ما تتحفّظ عليه.

غادر إسكوبار بعد الغداء مباشرة. أخذتُه إلى الباب ، حيث انتظرنا الأتوبيس. قال لى أن مخزن الوكيل فى شارع پيسكادوريس ، وأنه يظل مفتوحا حتى الساعة التاسعة لكنه يحبّ البقاء خارج البيت إلى وقت متأخر. افترقنا بتأثُّر كبير: داخل الأتوبيس ، ظلّ يلوّح مودّعا. بقيتُ عند الباب لأرى ما إذا كان سينظر إلى الوراء من بعيد ، لكنه لم يفعل.

« أيّ صديق عظيم هذا ؟ » سأل شخص من نافذة قريبة.

لا حاجة إلى أن أقول لك أن الشخص كان كاپيتو. هناك أشياء يمكن تخمينها في الحياة ، كما في الكتب ، روايات كانت أم قصصا حقيقية. كانت كاپيتو ، التي كانت تختلس النظر إلينا من وراء الستارة المعدنية ، والتي فتحت النافذة على مصراعيْها الآن وظهرتْ. كانت شهدت توديعاتنا العاطفية ، وغير الخجولة ، أرادت أن تعرف من ذا الذي كان يعني كلّ ذلك لي.

« إنه إسكوبـار » ، قلتُ. ذهبتُ ووقفتُ تحـت النـافذة ونظـرتُ إلـى أعلى.

٧٢- تعديـل مسـرحي

لا أنا ، ولا أنت ، ولا هي ، ولا أيّ شخص آخر في هذه القصة كان بإمكانه أن يُجيب بما هو أكثر ، وأكيد أيضا أن القدر ، شأنه في ذلك شأن كل الكتّاب المسرحيّين ، لا يُعلن انقلابات حظّه المفاجئة ، ولا الحدث الفاجع الختامي. كلّ منها يصل في وقته المعلوم ، إلى أن يهبط الستار ، وتنطفىء الأضواء ويعود المشاهدون إلى بيوتهم للنوم. في هذه الطريقة ربما كان هناك شيء مرغوب فيه على سبيل التعديل ، وأنا أقترح ، على سبيل التجربة ، أن تبدأ المسرحية بالنهاية. يقتل عطيل نفسه وديدمونة في الفصل الأول؛ وتُخصّص الفصول الثلاثة التالية للتأثير البطيء المتناقص للغيرة ؛ ويُترك الفصل الأخير للمشاهد الافتتاحية الخاصة بتهديد الأتراك ، وتفسيرات عطيل وديدمونة ، والنصيحة الجيدة للداهية إياجو: « ضَعْ المال في الكيس ». على هذا النحو، سيجد المشاهد في المسرح ، من جهة ، فزّورته التمثيلية المعتادة في الصحف ، لأن الفصول

الأخيرة ستفسّر الحدث الفاجع الختامى فى الفصل الأول ، والذى سيكون « المفتاح » إن جاز القول ، وسيذهب إلى الفراش ، من جهة أخرى ، بالانطباع الأولّى الطيب للحنان والحب:

« أحبّتنى للأخطار التى اجتزتُها ،

وأحببتُها لأنها أشفقت منها علىّ ».

٧٣- مدير خشبة المسرح

القدر ليس كاتبا مسرحيا فقط ، هو أيضا مدير خشبة مسرحه هو، أىْ أنه يحدّد دخول الشخصيات فى المشهد ، ويعطيها رسائل وأشياء أخرى ، ويُحدث ضوضاء خلفية المسرح لتنسجم مع الحوار: الرعد ، عربة ، طلقة نارية. عندما كنتُ صغيرا ، مثّلوا هنا ، فى هذا المسرح أو ذاك ، مسرحية تنتهى بيوم القيامة. كانت الشخصية الرئيسية هى شخصية أحشويرش* ، الذى اختتم مونولوجا ، فى المشهد الأخير ، بهذه الصيحة: « إننى أسمع بوق رئيس الملائكة ! » لم يُسمع أىّ بوق على الإطلاق. أحشويرش ، المجلّل بالعار ، كرّر بيت الشعر ، بصوت أعلى هذه المرة ، ليلمّح لمدير خشبة المسرح ، لكنْ لا شىء أيضا. عندئذ سار إلى خلفية المسرح ، متظاهرا بأداء حركة تراجيدية ، لكنْ فى الواقع بغرض الهمس نحو الكواليس: « القرن! القرن! القرن ! » التقط الجمهور هذه الكلمة وانفجر ضاحكا ، إلى حدّ أنه عندما انطلق صوت البوق على نحو جادّ وصرخ أحشويرش للمرة الثالثة بأنه بوق رئيس الملائكة ، صحّحه صبى صغير مشاكس فى الجزء الخلفى لقاعة المسرح من هنا فى الأسفل: « لا ، يا سنيور ، إنه قرن رئيس الملائكة ! »

---

* أحشويرش : اليهودى التائه – المترجم.

بنفس الطريقة يمكن تفسير وقوفى تحت نافذة كابيتو ومرور شخص على ظهر حصان - غندور ، كما اعتدنا أن نقول فى تلك الأيام. جلس منفرج الساقين فوق حصان أكْمَت جميل ، ثابتا على السرج ، اللجام فى اليد اليسرى ، واليمنى عند حزامه ، البُوت من الجلد اللميع ، أنيق المظهر والوضع؛ ولم يكن الوجه مجهولا لدىّ. سبق أن مرّ آخرون ، كما أن آخرين سيأتون بعده؛ كانوا جميعا فى طريقهم لرؤية حبيباتهم. كان من عادة ذلك الزمن مطارحة الغرام من فوق ظهر الحصان. أعدْ قراءة ألينكار: « لأن طالبا (تقول إحدى شخصياته المسرحية فى ١٨٥٨) لا يمكنه أن يكون بدون هذين الشيئيْن ، حصان وحبيبة ». أعدْ قراءة ألفاريس ده أزيفيدو. إحدى قصائده (١٨٥١) تروى كيف أنه عاش فى كاتومبى ولكى يرى حبيبته فى كاتيّته ، استأجر حصانا مقابل ثلاثة ميلريسات ... ثلاثة ميلرسات ! اختفت كلها فى غضون ليلة من الزمان !

حسنا ، الغندور الذى فوق الحصان الأكمت لم يمرّ بنا كما مرّ الآخرون: كان بوق يوم القيامة ، وانطلق فى الوقت المعلوم. ذلك أسلوب القدر ، الذى هو مدير خشبة مسرحه هو. لم يقنع الراكب بالمرور ، بل أدار رأسه فى اتجاهنا ، اتجاه كابيتو، ونظر إلى كابيتو، ونظرتْ إليه كابيتو. مضى الحصان فى طريقه لكن رأس الرجل واصل التحديق إلى الوراء.

كان هذا ناب الغيرة الثانى الذى نفذ إلى داخلى. ولأصدُقك القول ، من الطبيعى الإعجاب بالأشخاص الأنيقين؛ لكن ذلك الشخص اعتاد المرور كل أصيل. كان يعيش فى كامبودا أكلاماسون القديم ، ثم ... ثم ... حاولْ فقط أن تحكم بقلب من الجمر المتّقد. لا كلمة لكابيتو! غادرتُ الشارع بسرعة ، ودخلتُ الصالة ، وكان أوّل شىء أدركتُه هو أننى كنتُ فى حجرة الجلوس .

٧٤- سيُور البنطلون

في حجرة الجلوس كان الخال كوزمه وچوزيه دياس يتحادثان ، أحدهما جالسا على مقعد ، والآخر وهو يتمشى ويقف ثم يتمشى ويقف. حالما رأيتُ چوزيـه ديـاس تذكّرتُ ما كان قاله في المعهد الديني : « فقط تنتظر لتوقع في شراكها شابا ما متأنقا من الحيّ وتتزوجه ...» لا شك في أنها كانت إشارة إلى الرجل الذي على ظهر الحصان. هذه الذكرى فاقمتْ الانطباع الذي أتيتُ به معي من الشارع؛ لكنْ ربما كانت هذه العبارة ، المصونة في لا شعوري ، هي التي دفعتني إلى الاعتقاد بخبث نظراتهما العجلى. كان ما أردتُ القيام به هو أن أمسك بخناق چوزيه دياس ، فأجرّه إلى الصالة ، وأسأله ما إذا كان تكلّم انطلاقا من الحقيقة الفعلية أم من الافتراض؛ لكن چوزيه دياس ، الذي كان توقّف عندما رآني أدخل ، واصل مشيه جيئة وذهابا وحديثه. كنت أتلهّف على الذهاب إلى البيت المجاور؛ وتخيّلتُ أن كابيتو تركتْ النافذة فزعة ولن تتباطأ عن أن تظهر ، وتوجّه الأسئلة ، وتفسّر ... أما ذلكما الشخصان فواصلا الحديث إلى أن نهض الخال كوزمه ليذهب ويرى المرأة المريضة ، وأتى چوزيه دياس إليّ عند تجويف النافذة الأخرى.

قبل ذلك بلحظة ، كانت لديّ رغبة في أن أسأله عما هناك بين كابيتو والشبان المتأنقين في الحي. أما الآن ، عندما تخيّلت أنه أتى إليّ من أجل الغرض الخاصّ بإبلاغي ، فكنتُ خائفا من أن أسمع. أردتُ أن أوقف فمه. رأى چوزيه دياس شيئا ما في وجهي ، يختلف عن تعبيره المعتاد ، فسألني بجزع: « ماذا حدث ، يا بنتينيو؟ »

لكيلا أنظر اليه ، تركتُ عينيّ تسقطان. وعندما سقطتا ، رأيتُ سيُور إحدى رجلَيْ بنطلون التابع – السيور التي تُشدّ تحت الحذاء –

مفكوكة ؛ وعندما ألحَّ على معرفة ماذا دهانى ، أجبتُ بمدِّ إصبعى: « انظرْ إلى السيور ، زرِّرْ السيور ».

انحنى چوزيه دياس؛ وفررتُ من الحجرة.

٧٥- يـــأس

فررتُ من التابع ، فررتُ من أمى – لم أذهب إلى حجرتها – لكننى لم أفرّ من نفسى. جريتُ إلى حجرتى ودخلتُ وراء نفسى. تحدثتُ مع نفسى ، ضقتُ ذرعا بنفسى ، ألقيتُ بنفسى على الفراش ، وأخذتُ أتقلّب مع نفسى. بكيتُ ، وكتمتُ نحيبى بطرف الملاءة. حلفتُ أننى لن أزور كاپيتو ذلك الأصيل ، ولا مرة أخرى أبدا ، وأننى سأصبح قسّيسا فى التوّ واللحظة.

رأيتُ نفسى رُسِمْتُ قسيسا بالفعل ، واقفا أمامها. بكتْ نادمة وتوسلّتْ طالبة صفحى ، لكننى ، باردا وهادئا ، لم يكن لدىّ سوى الاحتقار ، الاحتقار والازدراء. أدرتُ لها ظهرى. ووصفتُها بأنها منحرفة.

مرّتيْن وجدتُ نفسى أجزّ على أسنانى ، وكأنها كانت بينها.

بينما كنتُ متمدّدا على الفراش ، سمعتُ صوتها. كانت جاءت لتقضى بقية الأصيل مع أمى ، وربما معى ، كما كانت لها أوقات أخرى؛ لكنْ مهما كان ما أحدثه مجيئها فى نفسى ، فهولم يجعلنى أغادر حجرتى. كانت كاپيتو تضحك بصوت مرتفع ، وتتحدّث بصوت مرتفع ، كأنما لتجعلنى أدرك أنها هناك. ظللتُ أصمّ، وحيدا مع نفسى واحتقارى. وكنتُ مملوءاً برغبة فى أن أغرز أظافرى فى حلقها، وأدفنها عميقا، وأراقب الحياة تنزف منها مع دمها ...

٧٦ - تفسيـــر

بعد ذلك ببعض الوقت أحسستُ أننى صرتُ هادئا لكنْ مرهقا ومكتئبا. وجدتُ نفسى ممدّدا على الفراش ، وعيناى على السقف ، وفجأة تذكّرتُ أن أمي كانت قالت لى ألاّ أستلقى على الفراش بعد الغداء أبدا ، لكى أتجنّب عُسْر الهضم. قفزتُ واقفا على قدميّ ، لكننى لم أغادر حجرتى. كانت كاپيتو تضحك أقلّ وتتكلّم بنبرة خفيضة فى تلك اللحظة ؛ ربما لأنها استاءت من حبسى نفسى بعيدا عنها ، لكنْ حتى هذا لم يؤثّر فىّ.

لم أتناول عشاءً ونمت نوما مضطربا. فى الصباح التالى لم أحسّ أننى تحسّنتُ ، أحسستُ أننى مختلف. فى تلك اللحظة ازداد غمّى بالخوف من أن أكون مضيتُ إلى أبعد مما هو لائق دون أن أفكّر فى الأمر جيدا. رغم أن رأسى آلمنى قليلا ، تظاهرتُ بالإحساس بأننى أسوأ ، لكى أبقى فى البيت فلا أذهب إلى المعهد الدينى ؛ لأذهب إلى وأتحدّث مع كاپيتو. ربما كانت غاضبة منى ، بل ربما لم تعد تحبّنى ، وتُفضّل الرجل الذى على ظهر الحصان. قرّرتُ أن أصفّى كل شىء ، أن أسمعها وأحاكمها. ربما كان لديها دفاع وتفسير.

كان لديها كلاهما. عندما علمتْ مبرّرى لحبسى نفسى عنها فى اليوم السابق ، قالت لى أننى ظلمتُها ظلما كبيرا. لم يكن بوسعها أن تصدّق أننى بعد القَسَم الذى تبادلناه ، يمكن أن أعتبرها متقلّبة إلى هذا الحدّ ، وأنه يمكننى أن أعتقد ... وهنا انفجرتْ باكية ، وأتت ببادرة فراق ؛ لكننى كنتُ إلى جانبها فى الحال. أمسكتُ بيديها وقبّلتهما بعاطفة مفعمة وحرارة إلى حدّ أننى أحسستُ بهما ترتعشان. مسحتْ عينيْها بأصابعها؛ قبّلتُهما مرة أخرى ، لذاتهما وإكراما للدموع. عندئذ تنهّدتْ ،

وهزّتْ رأسها. اعترفتْ لى بأنها لا تعرف ذلك الشاب - ليس أكثر من الآخرين الذين كانوا يمرّون فى الأصائل ، على ظهور الخيل أو على الأقدام. وإذا كانت نظرتْ إليه ، فذلك فى حدّ ذاته دليل على أنه لم يكن هناك أىّ شىء بينهما ؛ ولو كان هناك ، لكان من الطبيعى أن يُظهرا غير ما يُبطنان.

« ثم ماذا كان يمكن أن يكون هناك فى الوقت الذى يوشك فيه على الزواج ؟ » بهذا اختتمتْ كلامها.

كان يوشك على الزواج ؛ وأخبرتْنى ممن سيتزوّج - فتاة فى شارع باربونوس. أسعدنى هذا السبب أكثر من أىّ من الأسباب الأخرى ، وأدركتْ هى ذلك فى إيماءتى. رغم ذلك ، لم يمنعها هذا من القول أنها ، من أجل تجنّب أىّ سوء تفاهم آخر ، لن تنظر من النافذة بعد ذلك أبدا.

« لا ! لا ! لا! أنا لا أطلب منك ذلك ! »

وافقتْ على سحب الوعد ، لكنها وعدتْ وعدا آخر ، وكان مؤدّاه أنه عند أوّل شكّ من جانبى سينتهى كلّ ما بيننا. قبلتُ التهديد ، وأقسمتُ على أنها لن تكون مضطرة إلى تنفيذه أبدا؛ كان ذلك شكّى الأوّل والأخير.

٧٧- السعادة فى الآلام القديمة

فى رواية تلك الأزمة فى حبّ مراهقتى ، أُحسّ بشىء لا أدرى كيف أشرحه: بطريقة ما اكتسبتْ آلام تلك الفترة طابعا روحيا مع مضىّ الزمن إلى حد أنها ذابت واستحالت إلى سعادة. ليس هذا واضحا - لكنْ ليس كل شىء واضحا فى الحياة أو فى الكتب. والحقيقة أننى أحسّ بسعادة خاصّة فى إعادة رواية هذه المحنة ، فى حين أنها تذكّرنى بمحن أخرى أرجو ألاّ أتذكّرها مقابل أىّ شىء كان.

٧٨- سِرٌ بسِرّ

حتى فى حينه أحسستُ بضرورة ما فى أن أروى لشخص ما ماكان يجرى بين كابيتو وبيني. لم أروِ القصة بكاملها ، بل جانبا منها فقط ، وكان إسكوبار هو الذى تلقّى سرّى.

عندما عدتُ إلى المعهد الدينى يوم الأربعاء ، وجدتُه قلقا: قال لى أنه كان عقد عزمه على أن يذهب ليرانى لو بقيتُ بعيدا يوما آخر. سألنى بقلق مِمّ كنتُ أعانى وما إذا كنتُ بخير تماما.

« أنا بخير ».

فيما كنتُ أجيب ، غاصتْ عيناه فى عينيّ. بعد ذلك بثلاثة أيام قال لى أن الناس بدأوا يلاحظون شرود ذهنى ، وأن أفضل شىء هو أن أُخفيه بقدر الإمكان. كان لديه ، بدوره ، أسباب ليكون شارد الذهن أيضا ، لكنه حاول أن يكون يقظا.

« هو ظاهر إذن؟ ... »

« نعم ، أحيانا لا يبدو أنك تسمع أىّ شىء ، وتكون أفكارك بعيدة فى مكان ما. تظاهرْ ، يا سنتياجو ».

« عندى أسباب... »

« أصدّقك؛ لا أحد يشرد عقله بلا سبب ».

« إسكوبار... » تردّدتُ؛ وانتظر هو.

« ماذا؟ »

« إسكوبار ، أنت صديقى؛ وأنا صديقك أيضا. هنا ، فى المعهد الدينى ، أنت الشخص الذى شقّ طريقه إلى داخل قلبى ؛ وفى الخارج ،

باستثناء أفراد أسرتى ، لا أملك ، إذا تكلمنا بالمعنى الدقيق للكلمة ، صديقا ».

« إذا قلتُ نفس الشىء ، » ردّ على قولى بابتسامة ، « سيفقد كلامى سحره ؛ سيبدو أننى أردّد ما تقول. لكن الحقيقة هى أنك صديقى الحميم الوحيد هنا. وأعتقد أن هذا ملحوظ ، لكن هذا لا يغيّر من الأمر شيئا بالنسبة لى ».

تأثّرتُ بشدّة ، أحسستُ بصوتى يندفع من حلقى: « إسكوبار ، أيمكنك أن تحافظ على سرّ؟ »

« أنت تسأل ؟ إذن لابد أن لديك شكوكا ، وفى هذه الحالة ... »

« سامحنى ، كان ذلك طريقة فى الكلام. أنا أعرف أنك شخص جاد ، وأنا أعتبر ذلك أشبه ما يكون بالاعتراف لقسّيس ».

« إذا كنتَ بحاجـة إلى أن أجعلك فى حلّ من الاعتراف ، فأنت فى حلّ ».

« إسكوبار ، لا يمكننى أن أكون قسّيسا . أنا هنا ، وأهلى يعتقدون ويتوقعون أننى سأكون قسّيسا ؛ لكن لا يمكننى أن أكون قسّيسا ».

« ولا أنا ، يا سانتياجو».

« أنت أيضا ؟ ».

« سرٌّ بسرّ. لا أنوى أن أكمل الدراسة أيضا . حُبّى هوالتجارة ، لكن لا تقلْ شيئا – لا شىء على الإطلاق ، هذا بيننا فقط. وهذا لا يعنى أننى لست متديّنا . أنا متديّن ، لكن التجارة هى هوايتى ».

« هذا فقط ؟ ».

« ماذا أيضا يمكن أن يكون هناك؟ ».

أخذتُ أتمشّى للحظة ثم همستُ بالكلمات الأولى لسرّى – متردّدة ، غير متميزة ، إلى حدّ أننى لم أسمعها أنا نفسى. أعرف ، مع ذلك ، أننى

قلتُ: « شخص ... » بتحفّظ. شخص ؟ ... لم تكن به حاجة إلى أىّ شىء أكثر ليفهم. الشخص لابد أنه فتاة. ولا تتصوّرْ أنه اندهش باكتشاف أننى كنتُ أحبّ. وجد ذلك طبيعيا تماما ، ومرة أخرى غاصتْ عيناه فى عينىّ. ثم رويتُ له أقصى ما أمكننى دون الدخول فى تفاصيل ، لكننى أسهبتُ بحيث أسعد بإطالة التفكير فى شُغلى الشاغل. أصغى إسكوبار باهتمام. فى نهاية حديثنا طمأننى على أنه سرّ مدفون فى جبّانة. نصحنى بألاّ أكون قسّيسا. لم يكن بوسعى أن أجلب إلى الكنيسة قلبا ينتمى إلى الأرض أكثر من السماء. سأكون قسّيسا سيئا ، بل لن أكون قسّيسا على الإطلاق. من جهة أخرى ، حمى الله المخلصين. ومادام بوسعى أن أخدمه فى شؤون الدنيا فقط ، ينبغى لى أن أبقى هناك.

لا يمكنك أن تتصور السعادة التى منحها لى أن أُفضى إليه بهذا. كان ذلك بالنسبة لى فى الواقع قسطا إضافيا من سعادة غامرة. ذلك القلب الفتىّ ، مصغيا إلىّ ، متعاطفا معى ، منح هذه الدنيا مظهرا مدهشا. كانت دنيا عظيمة جميلة ، والحياة مغامرةً رائعة ، وأنا لا أكثر ولا أقلّ من حبيب السماء: تلك كانت أحاسيسى. لاحظْ أننى لم أقل له كلّ شىء ، ولا حتى الجانب الأفضل. لم أقصّ عليه الفصل الخاصّ بضفْر الضفيرتيْن ، على سبيل المثال ، ولا الفصول الأخرى التى من هذا النــوع ؛ لكن ما رويتُ له كان كثيرا جدا.

لا حاجة إلى القول أننا عُدْنا إلى الموضوع. عُدْنا مرارا. امتحتُ السجايا الخلفية لكابيتو كموضوع جدير بإعجاب تلميذ بالمعهد الدينى: سذاجتها الحلوة ، تواضعها ، مثابرتها ، وعاداتها الدينية. لم أقترب من مفاتنها الجسدية ، ولا هو سألنى عنها ؛ بالكاد لمحّتُ إلى ميزة معرفتها شخصيا.

« هذا مستحيل الآن مباشرة » ، قلتُ له ، فى أوّل يوم اثنين بعد

عودتى من البيت ، « تعتزم كابيتو أن تقضى أياما قليلة مع صديقة لها فى شارع إنفاليدوس. عندما تعود ستذهب أنت معى إلى البيت ؛ لكنْ يمكنك أن تأتى قبل ذلك ، يمكنك أن تأتى فى أىّ وقت. لماذا لم تتناول الغداء معى أمس؟ »

« لم تقم بدعوتى ».

« أتحتاج إلى دعوة ؟ كلهم ارتاحوا إليك ارتياحا شديدا فى بيتنا ».

« وأنا ارتحتُ ارتياحا شديدا إليهم جميعا ؛ لكنْ إذا كان لى أن أعبّر عن تفضيل ، لابدّ أن أعترف بأن أمك ملاك ».

« أليست ملاكا حقا ؟ » أجبتُ بتلهُّف.

٧٩- لننتقلْ إلى الفصل

نعم ، أسعدنى أن أسمعه يقول ذلك. أنت تعرف ماذا كان رأيى فى أمى. حتى الآن ، وأنا أقطع هذه الجملة لأحدّق فى صورتها على الحائط ، أجد تلك الصفة مطبوعة على وجهها. وليست هناك طريقة أخرى يمكن للمرء أن يفسّر بها رأى إسكوبار ، ذلك أنه لم يكد يتبادل معها أربع كلمات. كلمة واحدة وحيدة كانت كافية للتغلغل فى أعماق جوهرها. نعم ، نعم ، كانت أمى ملائكية. ومع أنها كانت ترغمنى آنذاك على مهنة لم أرِدْها ، لم يكن بوسعى أن أمنع الإحساس بأنها ملائكية ، قدّيسة.

وهل من المؤكّد أنها كانت ترغمنى على مهنة كنسية ؟ هنا أصل إلى نقطة كنتُ تمنّيتُ أن أعرضها فيما بعد - بل كنتُ أطيل التفكير فى المكان الذى ينبغى أن أضع فيه الفصل. فى الواقع ، لا ينبغى أن أروى الآن ما أعتقد أننى لم أكتشفه إلاّ بعد ذلك بكثير ؛ لكن ما دمتُ لمحّتُ إلى

هذه النقطة ، فالأفضل أن أنتهى منها. إنها نقطة خطيرة ومعقّدة ، شائكة ودقيقة ، ينبغى فيها للمؤلف أن يلتفت إلى الطفل الذى كانه ، وللطفل أن يصغى إلى المؤلف ؛ بحيث يمكن لكليهما أن يقولا الحقيقة - لا شىء سوى الحقيقة ، بل والحقيقة كلها. من المناسب أيضا أن أشير هنا إلى أن النقطة موضوع الحديث هى على وجه التحديد ما يجعل القدّيسة قدّيسة أكثر ، دون تحامل (بالعكس تماما !) على جانبها البشرى والدنيوى. كفى تقديما للفصل. لننتقل إلى الفصل.

٨٠- لندخل الفصل

لندخلْ الفصل. كانت أمى تقيّة ورعة. أنت تعرف هذا ، وكذلك ممارساتها الدينية ، والإيمان الخالص الذى يلهم هذه الممارسات. كما أنك لا تجهل أن مهنتى الكنسية كانت موضوعا لنذر نذرتْه أمى عندما وُلدتُ. كلّ شىء سبق سرده فى مكانه الصحيح. أنت تعرف أيضا أنها ، بقصد توثيق القيد المعنوى لالتزامها ، أفضتْ بمشاريعها ودوافعها لأقاربها ولأصدقاء الأسرة. النذر ، الذى نُذر بحماس حارّ ، وقُبل برحمة ، حفظته أمى بابتهاج فى أعمق أعماق قلبها. وأنا أعتقد أننى عرفتُ طعم سعادتها الغامرة فى اللبن الذى رضعتُه من ثديها. والدى ، لوأنه عاش ، ربما كان بدّل مشاريعها. ولأن نداءه كان السياسة ، فربما كان سيضع قدمىّ على بداية ذلك الطريق ، رغم أن المهنتيْن لم تكونا ، ولا تزالان ليستا ، متعارضتيْن - أكثر من قسّيس دخل الصراع الحزبى وحكومة البشر. لكن أبى مات دون أن يعرف أىّ شىء عن الأمر ، وبقيتْ أمى مع العقد ، بوصفها المدينة الوحيدة.

يقرّر أحد الأقوال المأثورة لفرانكلين أن مَنْ كان عليه أن يدفع فى

عيد الفصح ، يكون صومه الكبير قصيرا . لم يكن صومنا الكبير أطول من غيره ، ذلك أن أمى ، رغم أنها كانت جعلتنى أتعلّم اللاتينية والدين ، بدأتْ تـؤجّل يـوم دخولى المعهـد الدينى. هذا هـو ما يُسمّى ، بلغة التجـارة ، « تمديد أجل دفع كمبيالة ». كان الدائن مليونيرا كبيرا ؛ لم يكن يعتمد على الدفع ليأكل ، وكان يوافق على التأجيلات حتى دون زيادة معدّل الفائدة. لكن أحد الأصدقاء الذين كانوا وقّعوا عى الكمبيالة تكلّم ، ذات يوم ، عن ضرورة دفع المبلغ المنذور: ذلك مذكور فى أحد الفصول الأولى. وافقتْ أمى وانسحبتُ أنا إلى سان چوزيه.

حينئذ ، فى نفس ذلك الفصل ، ذرفتْ أمى بعض الدموع التى مسحتْها بلا تفسير ، والتى لم يفهمها مطلقا أحد من أولئك الذين كانوا حاضرين ، لا الخال كوزمه ، ولا ابنة العم چوستينا ، ولا التابع چوزيه دياس. أما أنا ، الذى كنتُ وراء الباب ، فلم أفهم أكثر مما فهموا. عند إعادة الفحص (رغم السنين) ، يبدو أن الدموع كانت تعبّر عن إحساس يتوقع الوحدة ، وألم الفراق – وربما كان السبب أيضا (وهنا نأتى إلى النقطة) أنها ندمت على نذرها. بوصفها كاثوليكية وتقيّة ، كانت تعرف جيدا جدا أن النذور ينبغى الوفاء بها ؛ كان السؤال هو « هل من الحق والصواب الوفاء بها جميعا ؟ » كانت تميل بطبيعة الحال إلى الإجابة بالنفى. لماذا كان لابدّ أن يعاقبها الرب بحرمانها من ابن ثان ؟ ربما كانت مشيئة القوة المقدسة هى ألاّ تكون بى أىّ حاجة إلى تكريسه لخدمتها منذ البداية. كان نوعا من الاستنتاج المتمهّل ؛ لابدّ أنه جرى فى اليوم الذى وُلدتُ فيه. على أىّ حال كان ذلك استنتاجا أوّليّا ، لكنْ غير مقنع بما فيه الكفاية لجعلها تنكث بنذرها: ظلّ كلّ شىء كما كان ، وذهبتُ أنا إلى المعهد الدينى.

مجرّد إغفاءة من جانب الإيمان كان من شأنها أن تحلّ المشكلة

لصالحى ، لكن الإيمان ظلّ يقظا بعينيْن واسعتيْن مخلصتيْن. لوكان ذلك بمستطاعها لعقدتْ أمى مقايضة نُذور ، واهبةً جانبا من سنى عمرها لتحتفظ بى معها ، خارج دائرة رجال الدين ، متزوّجا وأبا لأسرة. هذا ما أفترضه ، تماما كما أعتقد أنها رفضتْ الفكرة لأنها بدت لها غير أمينة. هكذا وجدتُها دائما فى مجرى الحياة اليومية.

من ناحية أخرى ، سرعان ما خفّفتْ من تأثير غيابى مجاملات كاپيتو، التى كانت بدأت فى جعل نفسها شخصا لا غنى عنه. شيئا فشيئا اقتنعتْ أمى بأن هذه البنت ستُسعدنى. ثم أخيرا الأمل فى أن الحبّ ، الذى جعلنى لا أطيق المعهد الدينى مطلقا ، سيجعلنى أرفض البقاء هناك لا فى سبيل الرب ولا فى سبيل الشيطان: هذا الأمل الحميم والخفىّ بدأ يغزو قلب أمى. فى هذه الحالة ، كان علىّ أنا أن أفسخ العقد ؛ ولن يقع عليها أىّ لوم. بهذا تحتفظ بى دون أىّ إجراء ، منها شخصيا إن شئنا الدقة. كان أشبه ما يكون بإيداع المبلغ الكامل لديْن عند شخص ما لتسليمه للدائن ، ثم جعل الحامل يحتفظ بالمال لنفسه فلا يسلّم شيئا. وفى الحياة المعتادة ، لا يعفى إجراء يقوم به شخص ثالث الطرف المتعاقد من التزامه ؛ لكن ميزة عمل عقد مع السماء تكمن فى أن النية لها نفس القيمة التى للمال.

لابدّ أنك أيضا مررتَ بنزاعات مشابهة ، وإذا كنتَ متديّنا ، فلابدّ أنك سعيتَ من حين لآخر إلى عقد تسوية بين السماء والأرض بنفس الطريقة بالضبط ، أو بطريقة ما مشابهة. فى نهاية الأمر ، تتصالح السماء والأرض: إنهما تَوْأم – فالسماء خُلقت فى اليوم الثانى والأرض فى الثالث. مثل إبراهيم ، أخذتْ أمى ابنها إلى أرض المريا ؛ أكثر من هذا ، أحضرتْ الحطب لحرق الذبيحة ، والنار ، والسكين. ثم ربطتْ اسحق ووضعتْه فوق ربطة الحطب ، وأخذتْ السكين ، ورفعته عاليا. تماما

عندما كانت توشـك على أن تهوى بـه ، سمعتْ صـوت الملاك يعلن بـاسم الرب: « لا تمدّ يدك إلى الغلام ، ولا تفعل به شيئا ، لأنى قد علمتُ الآن أنك خائف من الله ». لابد أن هذا كان الأمل الخفىّ لأمى.

كانت كابيتو بطبيعة الحال ملاك الكتاب المقدّس. الحقيقة أن أمى لم تعد تطيق غيابها عنها. كان التعلّق المتزايد يتجلّى بطرق رائعة. انتهت كابيتو إلى أن تغدو زهرة البيت ، شمس صباحه ، أنسام مسائه ، قمر ليله: هناك عاشت ساعات وساعات ، تُصغى وتتحدّث وتُغنّى. أصغتْ أمى إلى صوت قلبها ، وقرأتْ عينيْها ، وكان اسمى بين المرأتيْن أشبه بكلمة سرّ الحياة الآتية.

٨١- شىء قالتـه أمى

الآن بعد أن قصصتُ ما اكتشفتُه فى وقت لاحق ، يمكننى أن أروى شيئا قالته أمى. الآن ستفهم قولها يوم السبت عندما وصلتُ إلى البيت وعلمتُ أن كابيتو فى شارع إنفاليدوس مع سينيازينيا چورچيل:

« لماذا لا تذهبُ وتراها ؟ ألم تقل لى أن والد سانشا طلب منك الذهاب إلى بيته ؟ ».

« نعم فعل ».

« حسنا إذن ، يعنى ، إذا رغبتَ. كان من المتوقع أن تعود كابيتو اليوم لتكمل عملا معى ؛ لابد أن صديقتها طلبتْ منها أن تبيت عندها ».

« ربما كانتا تغازلان أحد الشبان » ، لمحّتْ ابنة العم چوستينا غامزةً.

لم أقتلها لأنه لم يكن فى متناولى سيف أو حبل ، مسدّس أو خنجر ؛ لكن العينيْن اللتين أدرتُهما إليها ، لو كان بمقدورهما أن تقتلا ، كان من

شأنهما أن تقوما بعمل كل هذه الأشياء. أحد أخطاء العناية الإلهية أنها لم تترك للإنسان إلاّ ذراعيه وأسنانه كأسلحة للهجوم ، ورجليه كأسلحة للفرار أو الدفاع. ربما كان بوسع العينيْن أن تفيا بالغرض الأول. نظرة واحدة كانت ستكفى ليصدّ المرء أو يصرع عدوًا أو غريما ، وكانت ستكفى لإنزال الانتقام الفورى ، بالإضافة إلى أن هاتين العينيْن القاتلتيْن ذاتهما كان بإمكانهما عندئذ ، لإزاحة العدالة من سبيلهما ، أن تنقلبا إلى عينيْن تثيران الرثاء فتبكيا الضحيّة. تهرّبتْ ابنة العم چوستينا منّى ؛ وكنتُ أنا مَنْ لا يمكنه الهرب من تأثير تلميحها. ويوم الأحد ، فى الساعة الحادية عشرة ، أسرعتُ إلى شارع إنڤاليدوس.

استقبلنى والد سانشا ، بمظهر رثّ وحزينا. ابنته كانت مريضة: فى اليوم السابق ، أصابتْها حُمّى أخذتْ تزداد سوءًا.لأنه كان شديد التعلّق بابنته ، اعتقد أنه رآها ميتة بالفعل وأبلغنى أنه سيقتل نفسه أيضا. إنه فصل كئيب كمقبرة – موت وانتحار واغتيال. اشتقتُ إلى شعاع من أشعة الشمس وسماء صافية. كانت كاپيتو هى التى أتتْ بهما معها إلى باب الحجرة بمجيئها لتقول لوالد سانشا أن ابنته تريده.

« هل هى أسوأ ؟ » سأل چورچيل بفزع.

« لا ، يا سنيور ، لكنها تريد أن تكلّمك ».

« انتظرى هنا » ، قال لها ، ثم مستديرا إلىّ ، « هى ممرضة سانشا – لن تكون لها ممرضة غيرها. سأعود فى الحال ».

بدتْ على كاپيتو علامات التعب والإجهاد ، لكنها بمجرّد أن رأتْنى انقلبتْ تماما عائدةً إلى نفسها القديمة الساحرة ، نشيطة ومبتهجة ، مع غير قليل من الدهشة. لم تكد تصدّق أنه أنا. تحدّثتْ معى ، وجعلتْنى أتحدّث معها ، والواقع أننا تحادثنا عدّة دقائق ، لكنْ بصوت خفيض ومكتوم إلى حدّ أنه لم يسمعنا حتى الجدران ، مع أن لها آذانا. فضلا عن

ذلك ، إذا كانت سمعتْ أيّ شيء ، فهي لم تفهم شيئا ، لا هي ولا قطع الأثاث ، التي كانت حزينة كصاحبها.

٨٢- الأريكة

بين كل قطع الأثاث ، الأريكة وحدها بدا أنها فهمتْ حالتنا الروحية ، ذلك أنها عرضتْ علينا خدمات قاعدتها الخيزرانية بمزيد من الإلحاح جعلنا قبلنا وجلسنا. وإلى هذه الفترة يرجع الرأى الخاص نوعا ما الذى أراه فى الأريكة: الألفة والذوق متحدان فيها ، وهى تعطى ، فكرة عن بيت بكامله دون أن يغادر المرء مطلقا حجرة الجلوس. يمكن لرجليْن يجلسان عليها أن يناقشا مصير امبراطورية ، ولا مرأتيْن موضة فستان ؛ أمّا رجل وامرأة – فقط لانحراف يصيب القانون الطبيعى سيتحدثان عن أىّ شىء آخر غير نفسهما. هذا ما فعلنا ، كابيتو وأنا. أذكر على نحو غامض أننى سألتُها ما إذا كانت ستبقى هناك طويلا ...

« لا أدرى. يبدو أن الحمّى آخذة فى الزوال ولكن ... »

كما أذكر أيضا ، على نحو غامض ، أننى فسّرتُ زيارتى لشارع إنفاليدوس بالحقيقة المطلقة ، أىْ بأنها كانت اقتراح أمى.

« اقتراحها ؟ » غمغمتْ كابيتو. ثم أضافت عيناها ، وهما تشعّان بألق نادر ، « سنكون سعيديْن ! »

كرّرتُ الكلمات ، ببساطة بأصابعى ، بالضغط على أصابعها. الأريكة ، سواء رأتْ ذلك أم لم تَر ، واصلتْ تقديم خدماتها لأيدينا المتشابكة ولرأسيْنا اللذين كانا يتكئان قريبيْن جدا ، متلامسيْن تقريبا.

٨٣- البورتريه

عاد چورچيل إلى حجرة الجلوس وقال لكاپيتو أن ابنته تريدها. نهضتُ مسرعا. فقدتُ هدوئى وتماسكى وركّزتُ عينىّ على الأثاث. كاپيتو، على العكس، نهضتْ بطريقة طبيعية وسألتْ عما إذا كانت الحُمّى أسوأ.

« لا »، أجاب.

لا قفزة فزع، لا مظهر يدل على إخفاء سرّ من جانب كاپيتو. استدارت إلىّ، طلبتْ منى أن أبلغ تحياتها لأمى ولابنة العم چوستينا، وودعتنى مؤقتا. مدّتْ يدها إلىّ، ثم خرجتْ إلى الصالة، ولم أتمالك أن أحسدها. كيف أمكن لكاپيتو أن تسيطر على نفسها بكل تلك السهولة، وأنا لا ؟

« سيدة صغيرة حقا ! » لاحظ چورچيل، وهو يتبعها بنظره أيضا.

غمغمتُ « نعم ». حقا كانت كاپيتو تنمو بسرعة فائقة، كان قوامها يكتسب منحنيات جديدة، وصلابة جديدة؛ وكذلك روحها أيضا. كانت امرأة من الداخل ومن الخارج، امرأة من اليمين ومن اليسار، امرأة من كل جانب ومن الرأس إلى القدم. كان هذا التبرعم أسرع الآن لأننى كنتُ أراها على فترات تفصل بينها أيام قليلة؛ كلّ مرة آتى إلى البيت كنتُ أجدها أطول وأكثر أنوثة. كانت لعينيْها نظرة متأملة جديدة؛ ولفمها إثارة جديدة.

استدار چورچيل إلى حائط الحجرة حيث كان معلّقا بورتريه لسيدة شابة وسألنى ما إذا كانت كاپيتو تشبه البورتريه.

كانت إحدى عادات حياتى أن أوافق دائما على أىّ رأى قد يكون للشخص الذى أتحادث معه، طالما كان الأمر لا يثير اشمئزازى أو يقيّدنى بالتزام. قبل أن أنظر لأرى ما إذا كانت كاپيتو تشبه البورتريه حقا،

بادرتُ وأجبتُ « نعم ». عندئذ أخبرنى أنه بورتريه زوجته ، وأن الأشخاص الذين كانوا يعرفونها قالوا نفس الشيء. هو أيضا كان يعتقد أن الملامح متشابهة ، خاصةً الجبهة والعينان. وفيما يتعلّق بطبعيْهما ، كانا طبْعا واحدا . يمكنك أن تظن أنهما أختان.

« أضفْ إلى هذا الصداقة التى تكنّها لسانشينيا ؛ لم تكن أمها أقوى صداقة معها ... أحيانا ، فى الحياة ، توجد هذه التشابهات الغريبة ».

٨٤- نـــداء

فى الردهة وفى الشارع ، واصلتُ سؤال نفسى عما إذا كان ارتاب فى أىّ شىء فى الواقع ، لكننى حسمتُ بأنه لم يفعل وبدأت أنطلق فى سيرى. كنتُ مسرورا بالزيارة ، بابتهاج كابيتو، بامتداحات چورچيل - كنتُ بالغ السرور إلى حدّ أننى لم أكترث فى الحال لصوت كان ينادينى.

« سنيور بنتينيو ! سنيور بنتينيو ! »

فقط بعد أن ارتفع الصوت أكثر وظهر صاحبه عند الباب ، وقفتُ ورأيتُ من هو وأين كنتُ أقف. كنت حينئذ فى شارع ماتاكاڤايّوس. كان المكان دكان صينى ، فقيرا وبائسا ؛ كانت أبوابه مغلقة نصف إغلاق ، وكان الشخص الذى ينادينى رجلا فقيرا ذا شعر رمادى غامق وكان يلبس ملابس بالية.

« سنيور بنتينيو » ، قال لى ، وكان يبكى ، « هل علمتَ أن ابنى ماندوكا مات ؟ »

« مات ؟ »

« مات منذ نصف ساعة ؛ سيتم دفنه غدا. أرسلتُ فى الواقع كلمة إلى أمك وتعطّفتْ علىّ بإرسال بعض الزهور لوضعها على التابوت. ابنى المسكين ! كان لابدّ أن يمـوت ، وكان الأفضل له أن يمـوت ، الولد المسكين ، لكنه رغم هذا يؤلم. الحياة التى عاشها ! ... منذ يوم فقط أو نحو ذلك ذكرك ، يا سنيور ، وسأل ما إذا كنتَ فى المعهد الدينى ... أتودّ أن تراه ؟ ادخلْ وانظرْ إليه ... »

من المؤلم أن أقّر بهذا ، لكن من الأفضل أن أروى كثيرا من أن أروى قليلا. أردتُ أن أقول « لا » ، أننى لا أريد أن أرى ماندوكا ، بل أتيتُ بحركة لأولّى الأدبار. لم يكن خوفا ؛ فى مناسبة أخرى ربما كنتُ دخلتُ حتى بفضول متلهّف ، لكننى فى تلك اللحظة كنتُ بالغ القناعة ! أن أرى صبيّا ميتـا فـى طريـق عودتـى من لقـاء غرامى ... هناك أشياء لا تتلاءم ولا تنسجم. الخبر فى حدّ ذاته أزعجنى. أفكارى الذهبية فقدتْ بريقها وتحوّل معدنها إلى رماد ، رماد قبيح قاتم ، ولم أعد قادرا على تمييز أىّ شىء. أعتقد أننى نجحتُ فى القول أننى فى عجلة من أمرى ، لكن من المحتمل أننى لم أتكلّم بكلمات واضحة ، ولا حتى بكلمات بشرية ، لأنه ، فيما كان منحنيا عند المدخل ، فتح الطريق لى بإيماءة ، أما أنا ، دون شجاعـة إمـا على الدخـول أو على الفـرار ، فتركتُ جسمى يفعل ما يشاء ودخل جسمى.

أنا لا ألوم الرجل: فيما يخصّه كان أهم شىء فى تلك اللحظة هو ابنه. لا تلمنى أنا أيضا: فيما يخصّنى كان أهم شىء كابيتو. كانت المشكلة أن الشيئيْن أتيا معا فى نفس الأصيل ، وأن موت أحدهما أتى وحشر أنفه فى حياة الآخر. فى ذلك تكمن المشكلة برمتها. لو كنتُ مررتُ قبل ذلك أو فى وقت لاحق ، أو لو كان ماندوكا انتظر ساعات قليلة ليموت ، لم يكن لنغمة غير سارة أن تأتى لتعترض ألحان روحى. لماذا يموت قبل

مروري بنصف ساعة بالضبط ؟ أيّ ساعة ملائمة للرحيل عن هذه الحياة ؛ يمكن للمرء أن يموت ألطف موت لِنَقُلْ في السادسة أو السابعة مساءً.

٨٥- الصبيّ الميت

كان هذا هو الإحساس المشوَّش الذي دخلتُ به دكان الصيني. كان الدكان معتما وكان الجزء الداخلي من البيت أقلّ ضوءًا حينئذ إلى حدّ أن النوافذ المطلّة على الزقاق كانت مظلمة. رأيتُ الأم تبكي في زاوية في حجرة الطعام. على باب حجرة النوم ، كان هناك طفلان يحملقان إلى الداخل بدهشة مرتعبة ، بالإصبع في الفم. الجثة رقدتْ على الفراش. الفراش ...

لنضعْ قلمنا ونذهبْ إلى النافذة لننعش الذاكرة بنسمة هواء. في الحقيقة ، كانت الصورة قبيحة ، بالموت والصبي الميت ، الذي كان رهيبا ... أما هذه الصورة ، حولي هنا ، فهي شيء مختلف تماما ... كلّ ما أرى هنا يتنفّس الحياة ، عنزة تمضغ بصوت مسموع إلى جانب عربة كارّو، دجاجة تنقّب بمنقارها في قاذورات الطريق ، قطار من قطارات البرازيل سنترال يتحرّك لاهثا ، يصفّر ، يدخّن ، ويمرّ ، نخلة تهزّ شواشيها إلى السماء – أخيرا هناك برج الكنيسة ، وإنْ كان بلا عضلات ولا غصن مورق. والصبي الذي في الزقاق ، والذي يطلق طيارته الورق ، ليس ميتا ، لا يوشك على الموت ، وإن كان اسمه أيضا ماندوكا.

صحيح أن ماندوكا الآخر كان أكبر – أكبر قليلا. لابد أن ماندوكا الآخر كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة ، لكنْ كان يمكنك بنفس السهولة أن تظنّ أنه في الخامسة عشرة أو الثانية والعشرين: وجهه لم يكن يكشف عن عمره ، كان بالأحرى يُخفيه في ثنيات ال ... هيّا ، فَلْيُرْوَ كلُّ

شيء ! لقد مات ، وكل أقاربه ماتوا ، وإذا كان أحدهم لا يزال حيًا فإنه ليس شهيرا بما يكفي لينزعج أو يتألم. فَلْيُرْوَ كلُّ شيء: عانى ماندوكا من مرض قاسٍ ، لا أقلّ من الجذام. في الحياة كان قبيحا ؛ في الموت بدا رهيبا. عندما رأيته ممددًا على الفراش ، جسمه الذي يدعو للرثاء والذي كان من قبل جاري ، ارتعبتُ ، وأدرتُ عينيّ بعيدا. لا أدري أيّ يدٍ خفيّة دفعتني دفعا إلى النظر مرة أخرى ، حتى بصورة عابرة ، استسلمتُ ، نظرتُ ، ظللتُ أنظر ، إلى أن تقهقرتُ تماما وغادرتُ الحجرة.

« لقد تألّم ! » تنهّد الأب.

« ماندوكا الصغير البائس ! » انتحبتْ الأم.

همّي الوحيد كان أن أبتعد: قلتُ لهما أنهم يتوقّعونني في البيت ، واستودعتُهما الله. سألني الأب ما إذا كنتُ سأتعطف عليهم بالذهاب إلى الجنازة. أجبتُ بصدق بأنني لا أدري ، بأنني سأتصرّف حسبما تقرّر أمي. وغادرتُ بسرعة ، ومررتُ عبر الدكان ، وقفزتُ إلى الشارع.

٨٦- أحبُّوا، أيها الأولاد !

كان المكان قريبا جدا إلى حدّ أنني في غضون ثلاث دقائق وجدتُ نفسي داخل البيت. توقفتُ في الصالة لألتقط أنفاسي. كنتُ أحاول أن أنسى الصبي الميت وامتقاع اللون والتشوّه ، والباقي الذي لم أروه حتى لا أعطي مظهرا بشعا لهذه الصفحات ، لكن يمكنك أن تتصور. محوتُ كلّ ذلك من ناظريّ في ثوانٍ قلائل: كل ما كنتُ بحاجة إليه هوأن أفكر في ذلك البيت الآخر ، وبالأحرى في حياة كابيتو ووجهها الفاتن الناضر … أحبُّوا ، أيها الأولاد ! وفي المحلّ الأول البنات الجريئات الجميلات. عندهن دواء للأمراض ، عبير يجعل رائحة منتنة تعبق بالعبير ؛ وبدلا من الموت يمنحنك الحياة … أحبُّوا ، أيها الأولاد ، أحبُّوا !

٨٧- الكاريتّـــة

عندما وصلتُ إلى درجة السلّم العليا ، دخلتْ فكرةٌ دماغى كأنما كانت تنتظرنى وراء الحاجز الحديدى للبوابة. سمعتُ من الذاكرة كلمات والد ماندوكا وهو يطلب منى الذهاب إلى الجنازة فى اليوم التالى. وقفتُ ساكنـا على درجـة السلّم. فكرتُ لحظة. نعم ، يمكننى أن أذهب إلى الجنازة ؛ سأطلب من أمى أن تستأجر لى عربة ...

لا تتصوّرْ أنها كانت الرغبة فى ركوب عربة ، مهما كانت السعادة التى كان يمكن أن أجنيها من القيام برحلة فى عربة. عندما كنتُ صبيا صغيرا ، أذكر أننى اعتدتُ أن أقوم برحلات كهذه مرارا ، مع أمى للقيام بزيارات وديّة أو رسمية ، وإلى القدّاس إنْ كانت السماء تُمطر. كانت كاريتّة قديمة لأبى احتفظتْ بها أمى لأطول مدة كانت بإمكانها. الحوذى ، الذى كان عبدا من عبيدنا ، والذى كان عجوزا مثل الكاريتّة ، كان يجدنى على الباب، لابسا أحسن ملابسى، منتظرا أمى، و كان يقول ضاحكا:

« چوان العجوز سيقود العربة للسيد الصغير ! »

و كان من النادر ألاّ أعطيه هذه التوصية: « چوان، تذكّرْ أن تكبح جماح البغليْن، سرْ ببطء ... »

« نيَا*جلوريا لا ترغب فى أن أفعل ذلك ».

"دعْهما يسيران ببطء على أىّ حال !"

---

* نيَا nhà . نُطق زنجى لكلمة سنيورة – المترجم.

أنتَ تفهم ، كان ذلك لأستمتع بلذّة الرحلة فى الكاريتّة ، ليس من أجل التباهى ، لأن أولئك الذين بالخارج لا يمكنهم أن يروا المرء. كانت كاريتّة قديمة عتيقة الطراز بعجلتيْن ، قصيرة وضيقة ، بستارتيْن من الجلد فى الأمام يمكن سحبهما إلى الجانبيْن عندما يخرج المرء أو يدخل. وكان فى كلّ ستارة ثقب زجاجى كنتُ أحبّ أن أختلس النظر من خلاله.

« اجلسْ هادئا ، يا بنتينيو ! »

« دعينى أختلس النظر ، يا ماما ! »

وعندما كنتُ أصغر ، اعتدتُ أن أقف ووجهى قبالة الزجاج فأرى الحوذى ببُوته الضخم ، يمتطى منفرج الساقيْن البغل الأيسر قابضا على لجام البغل الأيمن؛ فى يده سوط ثقيل طويل. كلّ شىء كان مزعجا - البُوت ، السوط ، البغلان - لكنه كان يستمتع بذلك وأنا أيضا. على كل من الجانبيْن ، كنتُ أرى البيوت تمرّ ، بعضها بدكاكين ، مفتوحة أو مغلقة ، بأشخاص أو بدونهم ، وفى الشارع كان الناس يأتون ويذهبون أو يعبرون أمام الكاريتّة ، بخطًى واسعة أو بخطوات متبخترة. عندما كان الأشخاص أو الحيوانات يعترضون الطريق ، كانت الكاريتّة تتوقف ، وحينئذ كان المشهد يغدو مثيرا بوجه خاص: الأشخاص الواقفون على الرصيف أو فى المداخل كانوا يحملقون فى الكاريتّة ويتحادثون فيما بينهم ، بطبيعة الحال عمّن بداخل الكاريتّة. وعندما كبرتُ كان يدور بخيالى أنهم يعرفون ويقولون ، « إنها تلك السيدة التى من شارع ماتا كاڤايُوس ، التى لها ابن ، بنتينيو... »

كانت الكاريتّة منسجمة تماما مع طريقة أمى المعتزلة فى الحياة إلى حدّ أنه عندما لم تعد هناك كاريتّة أخرى من نوعها ، واصلنا الركوب فيها ، وكانت معروفة على طول شارعنا وفى الحىّ باسم « الكاريتّة القديمة ». أخيرا وافقتْ أمى على التخلّى عنها. لم تَبِعْها فى الحال مع

ذلك ، ولم تفترق عنها إلاّ لأن نفقات الإسطبل أجبرتها على أن تفترق. كان السبب وراء احتفاظها بها (رغم أنها غدت عديمة الفائدة) عاطفيًا على وجه الحصر: كانت ذكرى من زوجها. كلّ شىء كان ينتمى إلى أبى تمّ الاحتفاظ به كقطعة منه ، كأثر من شخصه ، من روحه الطاهر والنقى ذاته. لكن العادة كانت أيضا ابنة روح المحافظة التى كانت تسلّم بها لأصدقائها. كانت أمى نموذجا طيبا للوفاء للعادات القديمة ، التقاليد القديمة ، الأفكار القديمة ، الأساليب العتيقة. كان لديها متحفها من التذكارات: أمشاط بلا أسنان ، خرقة من شال ، بعض القطع النقدية النحاسية يرجع تاريخها إلى ١٨٢٤ و١٨٢٥ ، ولأن كل شىء لابدّ له من أن يغدو قديما ، حاولتْ أن تجعل نفسها قديمة ، لكننى سبق أن ذكرتُ أنها فيما يتعلّق بهذه النقطة لم تحقّق رغبتها تماما.

٨٨- ذريعة مشرّفة

لا ، لم تأت فكرة الذهاب إلى الجنازة من ذكرى العربة ومفاتنها. كان الأصل شيئا آخر غير ذلك: كان ذلك لأننى ، إنْ ذهبتُ إلى الجنازة فى اليوم التالى ، لم أكن سأذهب إلى المعهد الدينى وكان سيمكننى القيام بزيارة أخرى لكابيتو، زيارة أكثر امتدادا. ها أنتَ عرفت. ربما جاءت ذكرى العربة كشىء إضافى ، فى وقت لاحق ، لكن السبب المباشر ، الرئيسى ، هو السبب الآخر. كان بإمكانى أن أعود إلى شارع إنڤاليدوس بذريعة الاستفسار عن سينيازينيا چورچيل. كنتُ أتأمّل كل شىء يحضُرنى كما حدث فى ذلك اليوم: چورچيل بالغ القلق ، كابيتو معى على الأريكة ، أيدينا متشابكة ، تضفير الضفيرتيْن ...

« أنا ذاهب لأسأل ماما ».

فتحتُ البوابة. قبل أن أمرّ عبرها ، تماماً كما كنتُ سمعتُ من الذاكرة كلمات والد الصبى الميت ، سمعتُ حينئذ كلمات أمه ، وكرّرتُ برقّة:

« ماندوكا الصغير المسكين ! »

٨٩- الرفــض

ارتبكتْ أمى عندما طلبتُ منها أن أذهب إلى الجنازة.

« اخسرْ يوما فى المعهد الدينى ... »

لفتُّ نظرها إلى الصداقة التى كان يكنّها لى ماندوكا ، ثم إنهم ناس بؤساء ... قدّمتُ كل المبرّرات التى استطعتُ التفكير فيها. عبّرتْ ابنة العم چوستينا عن رأيٍ بالسلب.

« أنتِ لا تعتقدين أنه ينبغى أن يذهب؟ » سألتْ أمى.

« لا ، لا أعتقد. أىّ صداقة هذه التى لم أسمع بها أبدا ؟ »

انتصرتْ ابنة العم. عندما حكيتُ الحكاية للتابع ، ابتسم وقال أن الدافع الخفىّ لابنة عمى ربما كان حرمان الجنازة من « بريق حضورى ». مهما كان من شىء ، ظللتُ غاضبا. فى اليوم التالى ، عندما أنعمتُ التفكير فى دافعها ، لم يثِرْ استيائى؛ وفيما بعد ، أحسستُ فيه بلذّة مـا.

٩٠- المناظـرة

فى اليوم التالى ، مررتُ ببيت الصبى الميت دون أن أدخل ، أو حتى أتوقّف – أو إنْ كنتُ توقفتُ فلحظة فقط هى أقصر أيضا من تلك التى يستغرقــها إخبارك بها. إن لم أكن مخطئا ، سرتُ حتى بسرعة أكبر ، خائفا من أن يُنادوا علىّ كما حدث فى اليوم السابق. أمّا وأننى لم

أكن ذاهبا إلى الجنازة ، كان من الأفضل أن أظلّ بعيدا بأقصى ما يمكن. ظللتُ أمشي وأفكر في الشخص البائس.

لم نكن صديقين ، كما أننا لم نعرف بعضنا لفترة طويلة جدا. الألفة - أيّ ألفة كان بإمكانها أن تكون بين مرضه وصحتي ؟ استمتعنا بعلاقات قصيرة وغير وثيقة. فكرت فيها وأنا ماضٍ في طريقي ، وبدأتُ أتذكرّ بعضها . تمخّضتْ كلها عن مناظرة واحدة بيننا ، قبل ذلك بسنتيْن ، بخصوص ... من الصعوبة بمكان أن تصدّق بخصوص ماذا كنت. كانت بخصوص حرب القرم.

عاش ماندوكا في المساكن القذرة وراء الدكان ، ممدّدا على الفراش ، يقرأ لتزكية الوقت. يوم الأحد ، قُرْب الأصيل كان أبوه يُلبسه قميص نوم داكن ويحمله إلى الجزء الخلفي من الدكان. من هناك كان يختلس النظر إلى الخارج بعرْض شبر واحد من الشارع ويرى الناس يمرّون. كانت تلك فسحته الوحيدة. وهناك رأيتُه مرة ، وأحسستُ بغير قليل من الفزع. كان المرض بدأ يلتهم جانبا من لحمه؛ وكانت أصابعه متآكلة. لم يكن مظهره جذّابا بالتأكيد. كنتُ في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري. في المرة الثانية التي رأيتُه فيها هناك ، تكلّمنا عن حرب القرم ، التي كانت آنذاك في ذروتها وفي كل الصحف. قال ماندوكا أن الحلفاء سينتصرون حتما ، وأنا قلتُ « لا ».

« حسنا ، سنرى » ، أجاب. « فقط إذا لم ينتصر العدل في هذا العالم - وهذا مستحيل - ذلك أن العدل في جانب الحلفاء ».

« لا ، يا سنيور ، الحقّ في جانب الروس ».

بطبيعة الحال ، كُنّا نهتدي بما كان يقال في صحف المدينة ، والتي كانت بدورها تحذو حذو الصحف الأجنبية ، لكن من الجائز أيضا أن كلاًّ منا كان يعتنق الرأي الذي يتفق مع مزاجه. كنتُ دائما موسكوفيا

نوعا ما فى أفكارى، دافعتُ عن موقف روسيا. فعل ماندوكا نفس الشيء مع الحلفاء، وفى ثالث يوم أحد دخلتُ فيه الدكان مسسْنا الموضوع مرة أخرى، عندئذ اقترح ماندوكا أن نتبادل المناقشات مكتوبة؛ ويوم الثلاثاء أو الأربعاء تلقّيتُ فَرْخَيْن من الورق يحتويان عرضا ودفاعا عن موقف الحلفاء ووحدة وسلامة أراضى تركيا ، وينتهيـان بهذه العبـارة النبوئيـة: « الروس لن يدخلوا القسطنطينية ! »

قرأتُ رأيه وشرعتُ فى دحضه. لا أتذكر حجة واحدة وحيدة من الحجج التى استخدمتُها ، وربما لا تكون هناك أىّ أهمية لمعرفتها الآن والقرن يوشك أن ينتهى؛ لكن ما أذكره عنها هو أنها كانت مُفحمة. أخذتُ له ورقتى بنفسى. أدخلونى إلى حجرة النوم ، حيث كان يرقد ممدّدا على الفراش ، نصف مغطّى بلحاف مرقّع. إمّا ولعى بالمساجلات وإما شىء آخر لا أستطيع أن أضع إصبعى عليه ، منعنى من الإحساس بكل تلك الرائحة التى تعافها النفس والتى كانت تنبعث من الفراش ومن الصبى المريض؛ وكانت السعادة التى أعطيته الورقة بها صادقة. ومع أن وجه ماندوكا كان مثيرا للاشمئزاز ، كانت الابتسامة التى أنارتْه تموّه قبحه المادى. أما الثقة التى أخذ بها الورقة منى وقال أنه سيقرأها ويردّ عليها ، فهى شىء لا يمكن لأىّ كلمات فى لغتنا ، ولا فى أىّ لغة ، أن تصفه بحقيقته الكاملة. لم تكن ثقة مزهوّة ، ولا صاخبة ، وكانت بلا إشارات (كما أن المرض لم يكن ليسمح بها)؛ كانت استمتاعا بسيطا ، مهيبا ، عميقا ، مطلقا ، بالنصر ، قبل معرفة حُججى. كان لديه فعلا الورق والقلم والحبر إلى جوار فراشه. بعد ذلك بأيام قليلة تلقّيتُ ردّه. لا أذكر ما إذا كان اشتمل على أىّ جديد أم لا؛ كان ما ازداد هو الحرارة ، وكانت النهاية كما هى: « الروس لن يدخلوا القسطنطينية ! »

ردتُّ عليه ، ومن تلك اللحظة فصاعدا تواصل لبعض الوقت

سجال ملتهب لم يستسلم فيه أىّ منا ، دافع كل منا عن موكّليه بقـــوة وحرارة . كانماندوكا أكثر مني إسهابا وفوريّة. بطبيعة الحال ، كان لدىّ ألف شىء آخر يلُهينى - المدرسة ، التسليات ، الأسرة ، وصحتى المتينة ذاتها ، والتى كانت تدعونى إلى ممارسات أخرى. باستثناء عَرْض شبر من الشارع فى أصائل أيام الأحد ، لم يكن لماندوكا سوى هذه الحرب ، التى كانت حديث المدينة والعالم - لكن لا أحد أتى لمناقشتها معه. المصادفة منحتْه خصما فى شخصى. كان لديه ميل إلى الكتابة فألقى بنفسه فى الجدال وكأنه علاج جديد وجذرى. الساعات الطويلة الحزينة صارت عندئذ قصيرة وسعيدة ، عيناه نسيتا كيف تبكيان إنْ كانتا بكتا حقا من قبل. أدركتُ هذا التبدّل فيه من سلوك أبيه وأمه.

« أنتَ لا تتصـــور كيف حالــه منذ أخذتَ تكتب إليه تلك الأوراق ، يا سنيور » ، قال صاحب الدكان ذات يوم ، عند باب الشارع. « أصبح يتحدّث ويضحك دائما. بمجرّد أن أبعث بكاتب الدكان ليأخذ إليك أوراقه ، يبدأ فى السؤال عن الردّ وما إذا كان سيتأخر فى المجىء وما إذا كنتُ سأسأل عبدكم الصبىّ عندما يمرّ. وبينما ينتظر ، يُعيد قراءة الصحف ويسجّل ملاحظات. لكنه بالمقابل ، فى الدقيقة التى يتلقّى فيها أوراقك ، ينقضّ عليها ، ويقرأها ، ويبدأ فى الحــال فى كتابــة ردّ. هنــاك أوقــات لا يأكل فيها ، أو يأكل القليل جدا. فى الواقع ، أودّ أن أطلب شيئا واحدا منك ، أعنى ألاّ ترسل الأوراق إليه فى وقت الإفطار أو الغداء ... »

كنتُ أوّل من تعب. بدأتُ أتباطأ فى ردودى إلى أن كففتُ فى نهاية الأمر عن أىّ ردود على الإطلاق. ظلّ مثابرا مرتين أوثلاث مرات بعد صمتى ، لكنْ عندما لم يتلقّ أىّ خلاف من أىّ نوع فإنه بدوره ، إما من الضجر وإما لئلا يزعجنى ، وضع حدّاً لدفاعاته. وأكّد دفاعُه الأخير ، مثل الأول ، مثل دفاعاته كلها ، نفس النبوءة الأبديّة:

« الروس لن يدخلوا القسطنطينية ! »

والواقع أنهم لم يدخلوا ، لا فى ذلك الوقت ، ولا فى وقت لاحق ، ولا حتى الآن. لكن هل ستكون النبوءة أبدية ؟ ألن ينجحوا فى الدخول ذات يوم ؟ مشكلة صعبة. ماندوكا ذاته ، ليدخل القبر ، قضى ثلاث سنوات فى التحلُّل ، أكيد كذلك أن الطبيعة ، مثل التاريخ ، لا تمضى بلا اكتراث. مثل تركيا قاومتْ حياتُه. إذا كانت استسلمتْ أخيرا فذلك لأنه كان يفتقر إلى حليف مثل الأنجلوفرنسى - فالمرء لا يمكنه أن يعتبر كذلك مجرّد التآلف بين الطب والصيدلة. مات أخيرا ، كما تموت الدُّوَل. وفى حالتنا الخاصة ليست المسألة ما إذا كانت تركيا ستموت ، لأن الموت لا يُبقى على أحد ، بل ما إذا كان الروس سيدخلون القسطنطينية ذات يوم: كانت تلك هى المسألة عند جارى المجذوم تحت لحافه المرقّع ، الحزين ، الممزّق ، القذر...

٩١- اكتشاف ينطوى على عزاء

من الجلىّ أن التأملات التى سجلتُها لتوّى لم تجرِ فى ذلك الحين ، فى طريقى إلى المعهد الدينى ، بل الآن ، فى مكتبى فى إنچنيو نوڤو. فى ذلك الحين ، لم يَدُرْ فى ذهنى أىّ تأمّل ، إلاّ إذا كان هذا: أننى جلبتُ العزاء ذات يوم لجارى ماندوكا. واليوم ، عندما أُنعم التفكير ، أجد أننى لم أجلب له العزاء فقط ، بل حتى السعادة. وهذا الاكتشاف يعزّينى؛ ومن الآن فصاعدا لن أنسى أبدا أننى منحتُ شهرين أو ثلاثة من السعادة لشخص بائس ، فجعلتُه ينسى ألمه وكل الباقى. سيعنى هذا شيئا ما فى تصفية حسابات حياتى. إذا كان هناك ، فى العالم الآخر ، جزاء أو آخر على المآثر غير المقصودة ، فسوف تعوّض هذه المأثرة عن واحدة أو

اثنتين من خطاياى الكثيرة. فيما يخصّ ماندوكا ، لا أعتقد أنه ارتكب خطيئة بالتعبير عن رأى ضدّ روسيا ، لكن إذا كان ذلك خطيئة ، فهو ظلّ يكفّر أربعين سنة فى المطهر ، عن السعادة التى نعم بها على مدى شهرين أو ثلاثة. ومن هذا سوف يستنتج (بعد فوات الأوان) أنه ربما كان من الأفضل أن يكتفى بالأنين المتواصل ، دون أن يعبّر عن أىّ رأى على الإطلاق.

٩٢- الشيطان ليس شديد السواد كما يرسمونه

دُفن ماندوكا بدونى. حدث هذا لكثيرين غيره دون أن أشعر بذلك كثيرا بطريقة أو أخرى ، لكن هذه الحالة أحزنتنى بوجه خاص للسبب الذى سبق ذكره. كذلك أحسستُ بانقباض فى النفس عندما تذكّرتُ المناظرة الأولى فى حياتى ، السعادة التى كان يتلقّى بها أوراقى ويعتزم الردّ عليها – دون أخذ مُتعة العربة فى الاعتبار ... لكن سرعان ما أطفأ الزمن كل تلك التطلّعات والصبوات الحزينة. كما أن الأمر لم يقتصر عليه؛ أتى شخصان لعونه: كاپيتو، التى نام معى طيفها تلك الليلة ، وآخر سأحكى حكايته فى الفصل التالى. وستقتصر بقية هذا الفصل على أن أتضرّع – إذا كان لشخص ما أن يقرأ كتابى باهتمام أكثر إلى حدّ ما مما يدعو إليه ثمن النسخة – ألاّ يعجز عن استنتاج أن الشيطان ليس شديد السواد كما يرسمونه. أقصد ...

أقصد أن جارى فى شارع ماتاكاڤايّوس ، بتخفيفه لألمه بالرأى المعادى للروس ، منح لحمه المهترىء تأمّلا روحيا جلب له العزاء. هناك ألوان أعظم من العزاء ، دون شك ، وأحد أروعها ألاّ يعانى المرء هذا المرض أو أىّ مرض غيره ، لكن الطبيعة سامية فى عليائها إلى حدّ أنها

تُسلّى نفسها بمثل هذه التناقضات ، ثم تتقدّم إلى الأكثر نتانة وبؤسا بزهرة، وربما على هذا النحوتكتسب الزهرة جمالها. ويدّعى البستانى الذى يعمل عندى أن البنفسج ، ليكتسب عبيرا أقوى ، يحتاج إلى سماد الخنزير. لم أستقصِ ، لكن لابدّ أن ذلك صحيح.

٩٣- صديق عِوضاً عن صبى ميت

أما الشخص الآخر ذو القوة الماحقة فكان زميلى فى الدراسة إسكوبار ، الذى أتى إلى ماتاكاڤايّوس فى ضُحى ذلك الأحد. هكذا عوّض صديق عن صبى ميت ، وكان حميم الصداقة إلى حدّ أنه وقف لمدّة خمس دقائق تقريبا ويدى فى يده ، وكأنه لم يرنى شهورا .

« هلاّ تناولتَ الغداء معى ، يا إسكوبار ؟ »

« ذلك ما جئتُ من أجله ».

شكرتْه أمى على الصداقة التى يكنّها لى ، وردّ بأدب شديد ، وإنْ بتردّد إلى حدّ ما ، كأنه افتقر إلى لسان طيِّع. سبق لك أن علمتَ أن هذا لم يكن كذلك؛ كان لسانه يُطيعه - لكن الإنسان ليس دائما نفس الإنسان فى كل اللحظات. كان ما قاله ، باختصار ، هو أنه يقدّرنى لسجاياى الحميدة والتربية المهذّبة ، كانوا كلهم يحبّوننى فى المعهد الدينى ، وأضاف أن الأمر لم يكن من الممكن أن يكون إلاّ كذلك. أكدّ على التربية ، والقدوة الحسنة ، « الأم الحلوة والثمينة » التى منحتْها السماء لى ... كلّ هذا بصوت مبحوح ، مرتعش.

كانوا كلهم سعداء به. أما أنا فكنتُ سعيدا وكأن إسكوبار من اختراعى الخاص. أطلق چوزيه دياس تحية باستخدام اثنتيْن من صيَغ التفضيل العُليا ، والخال كوزمه « مَرْسَيْن » ، ولم تجد ابنة العم چوستينا

شيئا تكتشف فيه عيبا - فيما بعد ، نعم ، في الأحد الثاني أو الثالث ، أشارت إلى أن صديقي إسكوبار فضوليّ بعض الشيء وله عينا رجل شرطة لا يفوتهما شيء.

« إنهما عيناه هو » ، شرحتُ أنا.

« لا أقول أنهما عينا أيّ شخص آخر ».

« إنهما عينان متأملتان » ، كان رأي الخال كوزمه.

« لا شك في ذلك » ، قاطع چوزيه دياس ، « وإنْ كانت السنيورة دونــا چوستينــا قد تكون محقــةّ جزئيــا . الحقيقة أن إحدى الصفتين لا تتعارض مع الأخرى ، والتأمل كثيرا ما يقترن بالفضول الطبيعي. هو يبدو محبّا للاستطلاع ، نعم ، هو يبدو كذلك ، لكن ... »

« إنه يبدو لي صبيا جادا جدا » ، قالت أمي.

« بالضبط ! » أعلن چوزيه دياس ، لكي لا يختلف معها .

عندما قلت لإسكوبار رأي أمي فيه (دون أن أذكر رأي الآخرين ، طبعا) ، لاحظتُ أن ابتهاجه لم يعرف حدودا . شكرني ، قائلا أنها رقيقة القلب للغاية ، وبدوره امتدح أمي - سيدة وقورة ، وممتازة ، وشابة ، شابة جدا جدا ... كم يمكن أن يكون عمرها ؟

« أوه ، فوق الأربعين » ، أجبتُ بإبهام ، مزهوًا .

« مستحيل ! » صاح إسكوبار. « الأربعين ! لا يبدو عليها حتى أنها في الثلاثين ، شابة جدا وجميلة. ولا عجب ! كان لابد لك من أن تشبه شخصا ما بهاتين العينين اللتين وهبك الرب إياهما؛ إنهما مثل عينيها بالضبط. هل ترملّتْ منذ سنين طويلة ؟ »

قلتُ له ما كنتُ أعرف عن حياتها وحياة أبي. أصغى إسكوبار بانتباه شديد ، ووجّه مزيدا من الأسئلة عن النواحي التي قفزتُ عليها أو تركتُها غامضة. عندما قلتُ أنني لا أذكر أيّ شيء عن الريف لأنني تركتُه

وأنا صغير جدا ، حكى حادثتيْن أو ثلاثا من عامه الثالث كانتا لا تزالان حيّتيْن فى ذاكرته. ثم أليس لدينا مشروع للعودة إلى الريف ؟

« لا ، لن نعود الآن مطلقا. انظرْ ، ذلك الرجل الملوّن هناك من الريف. توماس ! »

« سنيور ! »

كُنّا فى حديقة المطبخ ، وكان الزنجى ينهمك فى عمله. أتى إلى حيث كُنّا وانتظر.

« هو متزوّج » ، قلتُ لإسكوبار. « أين ماريا ؟ »

« تطحن الذرة ، نعم ، يا سنيور ».

« لا تزال تذكر المزرعة ، يا توماس ؟ »

« أذكر ، نعم ، يا سنيور ».

« طيب ، يمكنك أن تذهب ».

أشرتُ إلى آخر وآخر ثم آخر: « هذا پدرو، ذلك چوزيه ، ذلك الآخر دميان ... »

« كل حروف الهجاء » ، قاطع إسكوبار.

كانت ، فى الواقع ، حروفا مختلفة ، ولم ألاحظ ذلك إلاّ فى تلك اللحظة. أشرتُ إلى عبيد آخرين أيضا ، بعضهم بنفس الأسماء لكنها تتميّز بكُنية مأخوذة إما من مظهرهم مثل چوان الأصفر ، ماريا السمينة ، أو من بلدهم مثل پدرو بنجويلا* ، أنطونيو موزامبيق ...

« وهل هم كلهم هنا فى البيت ؟ » سأل.

« لا ، بعضهم فى الخارج يكسبون المال فى الشوارع ، وآخرون يستأجرهم الغير. لن يكون من الممكن أن نحتفظ بهم كلهم فى البيت. ثم

---

* بنجويلا Benguela مدينة فى أنجولا ، على المحيط الأطلنطى – المترجم.

إن هؤلاء ليسوا كلّ من كانوا بالمزرعة. أغلبهم ظلّوا هناك ».

« ما يدهشنى هو أن دونا جلوريا استطاعت أن تألف الحياة فى بيت فى المدينة ، حيث كل شىء صغير وضيّق للغاية؛ البيت الذى هناك فى الريف ربما كان واسعا جدا ».

« لا أعرف ، لكننى أتصوّر ذلك. ماما تملك بيوتا أخرى أوسع من هذا. لكنها تقول أنها ستموت هنا. البيوت الأخرى مؤجّرة. منها بيوت واسعة جدا ، مثل البيت الذى فى شارع كيتانْدا ... »

« أنا أعرف ذلك البيت؛ إنه رائع جدا ».

« تملك أيضا بيتا فى ريوكومبريدو، فى سيداده - نوڤا ، وبيتا فى كاتّيته ... »

« لن ينقصها مأوى » ، أنهى كلامه بابتسامة ودودة.

سرْنا ناحية الجزء الخلفى. عندما وصلنا إلى مكان الغسيل ، توقّف لحظة وحدّق فى كتلة الحجر التى تنظّف عليها الملابس ، وأبدى بعض الملاحظات بخصوص التنظيف؛ ثم مضيْنا. ماذا كانت الملاحظات ، لا أذكر الآن.أذكر فقط أننى وجدتُها بارعة فضحكت؛ وضحك هو أيضا. ابتهاجى أيقظ ابتهاجه ، وكانت السماء شديدة الزرقة ، والجـو شديد الصفـاء ، إلى حدّ أن الطبيعة ذاتها بدا أنها تضحك معنا. تلك هى الحال ، مع الساعات السعيدة لهذا العالم. لاحظ إسكوبار هذا التطابق للانسجام الداخلى مع الخارجى بكلمات رائعة مثيرة إلى حدّ أننى تأثّرت؛ ثم - بصدد الجمال المعنوى الذى يمتزج مع المادى - تكلّم مرة أخرى عن أمى ، ووصفها بأنها « ملاك مزدوج ».

٩٤- أفكار حسابيــة

لن أروى كل شىء ، سيكون ذلك أكثر مما ينبغى. لم يكن يعرف فقط كيف يمتدح ويفكر ، كان يعرف أيضا كيف يحسب بسرعة ودقّة. كان أحد العقول الحسابية الهولزية (٢+٢ = ٤).

لا يمكنك أن تتصوّر السهولة التى كان يجمع أو يضرب بها فى رأسه. القسمة ، التى كانت دائما إحدى أصعب العمليات بالنسبة لى ، كانت لا شىء تقريبا بالنسبة له. كان يغمض عينيه نصف إغماض ، يديرهما إلى أعلى ، يغمغم بأسماء الأرقام – ويعطيك النتيجة ! وهذا مع أعداد تصل إلى سبعة ، ثلاثة عشر ، عشرين. كانت موهبته فى ذلك فجعلته يعشق مجرّد رموز المقادير ذاتها؛ وكان من رأيه أن الأرقام من صفر إلى تسعة هى ، لقلّتها ، أروع بكثير من حروف الهجاء الستة والعشرين.

« هناك حروف عديمة الفائدة وحروف يمكن الاستغناء عنها » ، كان يقول. « أىّ وظيفة مستقلّة يؤديها d وt ؟ الواقع أن لهما نفس الصوت. نفس الشىء ينطبق على b وp، ونفس الشىء على s وc وz ، ونفس الشىء على k وg ، الخ. إنها تفاهات كتابية. ثم انظرْ إلى الأرقام الأساسية: ليس هناك رقمان يؤديان نفس الوظيفة: ٤ هو٤ ، و٧ هو٧. ثم تأمّلْ الجمال الذى يكوّن به ٤ و٧ هذا الشىء الذى يُرمز له ب١١. والآن ضاعفْ ١١ يكون لديك ٢٢. اضربْه فى نفسه ، النتيجة ٤٨٤ ، وهكذا. لكن الكمال يغدو أعظم ما يكون عند استعمال **الصفر**. قيمة **الصفر** فى حد ذاته ، هى لا شىء؛ لكن ما وظيفة هذا الرمز السالب ؟ – المضاعفة ! ٥ بمفرده هو مجرّد ٥؛ ضَعْ »..« معه ، يكون لديك ..٥. وهكذا ، ما ليس له أىّ قيمة يصنع قيمة كبيرة ، وهذا شىء لا تقوم به الحروف المضعّفة ،

لأن عبــارة I approve (أنا أوافق) هى هى بحــرف p واحد أو بحرفىْ p ».

لأننى تربيّتُ على حروف هجاء أجدادى ، آلمنى أن أسمع مثل تلك الهرطقات ، لكننى لم أغامر بتفنيدها. مع ذلك ، ذات يوم ، قدّمتُ كلمات دفاع قليلة ، ردّ عليها بأن ذلك تحامُل ، وأضاف أن الأفكار الحسابية يمكن أن تتواصل إلى ما لا نهاية ، مع ميزة أنها أسهل فى التناول. وعلى هذا النحو لم أكن قادرا على أن أحلّ ، فى نفس المكان والزمان ، مشكلة فلسفيــة أو لغوية ، بينما كان بإمكانه أن يحسب ، فى غضون ثلاث دقائق ، أىّ مقادير.

« مثلا ... أعطــنى حالــة ، أعطــنى مجموعــة من الأعداد التــى لا أعرفها ولا يمكننى أن أعرفها سلفا ... انظرْ ، أعطنى قائمة ببيوت والدتك وإيجار كل بيت ، فإذا لم أقل لك المبلغ الإجمالى فى دقيقتين ، فى دقيقة واحدة ، اشنقْنى ! »

قبلتُ الرّهان ، وفى الأسبوع التالى ، أحضرتُ له ورقة عليها قائمة الإيجارات. أخذ إسكوبار الورقة ، جرى بعينيه على الأرقام ليسجلَها فى ذاكرته ، وبينما كنتُ أنظر إلى ساعتى أدار ناظريْه إلى أعلى ، وأرخى جفنيه ، وغمغم ... أوه ! الريح ليست أسرع ! قال وفعل؛ فى غضون نصف دقيقة صاح بى:

« المبلغ الإجمالى هو١٠٧٠ ميلريس شهريا ».

ذُهلتُ. خُذْ فى اعتبارك أنه كان هناك ما لا يقل عن تسعة بيوت وأن الإيجارات تنوّعتْ من بيت إلى آخر فتراوحت بين - ٧٠ ميلريس و١٨٠. كلّ ذلك الذى كان سيستغرق منى ثلاث أو أربع دقائق - بالقلم والورق - حسبه إبسكوبار بلا اهتمام ، فى رأسه.

نظر إلىّ بزهو وسألنى ما إذا كان الرقم صحيحا. فقط لأبرهن أنه

صحيح ، أخرجتُ من جيبى قصاصة ورق عليها المبلغ الإجمالى ، وأطلعتُه عليها؛ كان نفس الرقم بالضبط ، بدون خطأ واحد: ١٠٧٠.

« هذا يُثبت أن الأفكار الرياضية أبسط ، ولذلك أكثر طبيعية. الطبيعة بسيطة. الفن ثقيل ».

كنتُ بالغ الحماس بشأن المقدرة الذهنية لصديقى إلى درجة أننى لم أتمالك نفسى من معانقته. كان ذلك فى الفناء؛ لاحظ تلاميذ آخرون بالمعهد الدينى إسرافنا فى التعبير عن مشاعرنا؛ ولم يوافق عليه مدرس قسّيس كان معهم.

« التواضع » ، قال لنا ، « لا يشجّع هذه البوادر المسرفة. يمكنكما إظهار الاحترام لبعضكما ، لكن باعتدال ».

قال لى إسكوبار معلّقا أن الآخرين والقسيس تكلّموا بدافع الحسد واقترح أن نظلّ متباعديْن. قاطعتُه وقلتُ « لا » ، إن كان الحسد ، فإن وضعهم أسوأ كثيرا.

« سنؤدّبهم ! »

« لكن ... »

« لنكنْ أشدّ صداقة من أىّ وقت مضى ».

أمسك إسكوبار على نحو مختلس بيدى بقوة إلى حدّ أننى لا أزال أشعر بوخز فى أصابعى. هذا الوخز وَهْم ، بالتأكيد ، إنْ لم يكن نتيجة الساعات الطويلة التى ظللتُ أكتب فيها دون توقّف. لنضع القلم جانبا لحظات قليلة ...

٩٥- البـابـــا

أصبحت صداقة إسكوبار عظيمة ومثمرة؛ إلى حدّ أن چوزيه دياس رفض أن يتلكأ وراءها. فى نهاية ذلك الأسبوع ، قال لى ، فى البيت:

« أصبح الآن من المؤكد أنك ستترك المعهد الدينى قريبا ».

« مـــاذا ؟ »

« انتظرْ إلى الغد. يجب أن ألعب الورق؛ لقد أرسلوا فى طلبى. غداً ، فى حجرتك ، أو فى الحديقة ، أو فى الشارع فى الطريق إلى القدّاس ، سأحكى لك الحكاية. الفكرة سامية إلى حدّ أنها لن تكون فى غير محلّها فى مذبح الكنيسة ذاته. غداً ، يا بنتينيو ».

« لكن هل هو مؤكد فعلا؟ ».

« مؤكّد تماما ! »

فى اليوم التالى أفضى إلىّ بالسرّ. للوهلة الأولى ، انبهرتُ بالفكرة ، أعترف. كانت تحمل سمة مهابة وروحانية خاطبتْ نظرة تلميذ المعهد الدينى فىّ. كان شيئا لا يقل عن هذا: أمى ، فيما بدا له ، ندمتْ على ما فعلتْ وأرادت أن ترانى فى عالم البشر ، لكنها أدركتْ أن القيد المعنوى لنذرها ربطها ربطا وثيقا. سيكون من الضرورى فسخُه: من أجل هذا هناك الكتاب المقدس الذى منح سلطة الإعفاء من تبعة للحواريّين. وهكذا سنسافر هو و أنا إلى روما لنطلب الإعفاء من البابا ... كيف يبدو لى ذلك؟

« يبدو لى على ما يرام » ، أجبتُ بعد ثوان قليلة من التفكير. « ربما كان ذلك مخرجا جيدا ».

« هو المخرج الوحيد ، يا بنتينيو، المخرج الوحيد ! سأذهب فى الحال ، اليوم ، وأتحدّث مع دونا جلوريا ، وأشرح لها الفكرة بأكملها ،

ويمكننا أن نسافر في غضون شهرين ، أو قبل ذلك ... »

« من الأفضل أن تكلّمها يوم الأحد القادم. دعني أفكر جيدا أو لا... »

« أوه ! بنتينيو! » قاطع التابع. « تُفكّر جيدا في ماذا ؟ ما تريده ... هل أقول لك ؟ ألن تغضب من صديقك العجوز دياس ؟ ما تريده هو أن تستشير شخصا بعينه ».

إذا شئنا الدقّة ، كانا شخصيْن ، كاپيتو وإسكوبار ، لكنني أنكرتُ تماما أنني أردتُ أن أستشير أحدا. ثم أيّ شخص ، رئيس المعهد الديني؟ لم يكن من المحتمل أن أفضي إليه بمثل هذا الأمر. لا ، ليس رئيس المعهد الديني ، ولا أحد المدرسين ، ولا أيّ شخص – وقت للتفكير فقط ، أسبوع ، يوم الأحد يمكنني أن أقول ردّي ، وكان بإمكاني أن أقول له في الحال أنها لا تبدو فكرة سيئة.

« لا ؟ لا »

«لا ».

« إذن دعنا نحسم الأمر اليوم ».

« لا يسافر المرء إلى روما وهو يتقافز بلا مبالاة ».

« الذي يملك لسانا يسافر إلى روما ، واللسان في حالتنا هو النقود. حسنا ، يمكنك أن تتحمّل إنفاق شيء ما على نفسك ... ليس عليّ أنا: بنطلونان ، وقميصان ، وخبزي اليومي ، هذا كل ما أحتاج إليه. سأكون مثل القديس بولس ، الذي عاش من تجارته فيما كان يطوف مبشّرا بالكلمة المقدّسة. حسنا، أنا لن أذهب لأبشر بها بل لأبحث عنها. سنأخذ رسائل من السفير البابوى والأسقف ، رسائل إلى سفيرنا، رسائل من الرهبان الكبّوشيين ... أعرف جيدا الاعتراض الذى يمكن توجيهه إلى هذه الفكرة: سيقولون أننا يمكن أن نطلب الإعفاء من هنا. لكن بالإضافة إلى كل

ما يمكنني قوله ، يكفي أن نفكر مَلياً في أنه أكثر رزانة ولياقة بكثير لذلك الشخص الذي هو نفسه موضوع الرعاية ، اللاويّ المنذور به والذي يأتي ليتوسّل الإعفاء من الرب بالنيابة عن أمه الأعظم حنانا والأعظم دماثة ، أن يدخل الفاتيكان ، ويجثو عند قدميْ البابا. تأمّلْ في الصورة: أنتَ مُقبّلا قدم أمير الرُّسُل؛ وقداستُه ، بابتسامة روحانية ، ينحني ، ويستجوب ، ويسمع ، ويُعفي ، ويبارك. الملائكة تطلّ ، والعذراء تُوصي ابنها الأقدس بأن تتحقق كل أمنياتك ، يا بنتينيو، وأن يكون كل ما تحبّه أنت على الأرض محبوبا كذلك في السماء ... »

لن أروي أكثر من ذلك لأن عليّ أن أختم فصلي ، أما هو فلم يختم خطبته. خاطب كل مشاعري ككاثوليكي وعاشق. رأيتُ روح أمي مرتاحا ، وقلب كابيتو مبتهجا ، وكلاهما في بيتنا ، وأنا معهما ، وهو معنا ، نفكر جميعا في رحلة صغيرة إلى روما. روما ... كنتُ أعرف من الناحية الجغرافية فقط أين هي ؛ ومن الناحية الروحية أيضا؛ لكن المسافة التي ربما فصلتْها عن رغبة كابيتو – ذلك ما لم أكن أعرف. تلك هي النقطة الجوهرية. إذا وجدتُها كابيتو بعيدة ، لن أسافر؛ لكن كان من الضروري سماع رأيها ، وكذلك رأي إسكوبار ، الذي كان من المؤكد أنه سيقدم إليّ النصيحة الجيدة.

٩٦- بديـــل

أبلغتُ كابيتو فكرة جوزيه دياس. أصغتْ بانتباه ، ثم انقلبتْ حزينة.

« ستذهب بعيدا. أوروبا ، فيما يُقال ، جميلة ، خاصةً إيطاليا. أليــس من هناك تأتي مغنيــات الســوبرانو ؟ ستســألني ، يا بنتينيو.

ثم أليست هناك طريقة أخرى ؟ دونا جلوريا تتحرّق شوقا لتجعلك تترك المعهد الديني ».

« نعم ، لكنها تعتبر أنها مُلزمة بنذرها ».

لم يكن بوسع كابيتو أن تفكر في أيّ خطة أخرى ولم يكن بوسعها أن تحمل نفسها على تبنّي هذه الخطة. في الوقت ذاته ، توسّلتْ إليّ ، إنْ أنا ذهبتُ إلى روما ، أن أحلف أنني سأعود بعد ستة أشهر.

« أحلف على ذلك ».

« بالرب؟ »

« بالرب ، بكل شيء. أحلف أنني سأعود في غضون ستة أشهر ».

« لكن إذا لم يكن البابا أعفاك بعد ؟ ».

« سأرسل كلمة بهذا المعنى ».

« وإذا كذبتَ ؟ »

هذه الكلمة جرحتْني جرحا عميقا ، وعجزت عن التفكير في ردّ في تلك اللحظة. حوّلتْها كابيتو إلى نكتة ، وضحكتْ ، ووصفتْني بالكلب الخبيث. ثم أعلنتْ تصديقها أنني سأفي بقَسَمي ؛ لكنها رغم ذلك لم تعطني موافقتها: سترى ما إذا لم تكن هناك طريقة ما أخرى ، وأنا أيضا ينبغي أن أحاول التفكير في شيء ما آخر.

عندما عدتُ إلى المعهد الديني ، قلت كل شيء لصديقي إسكوبار ، الذي سمعني بانتباه مماثل وأخيرا بنفس حزن كابيتو. عيناه ، اللتان لا تستقرّان عادة ، التهمتاني تقريبا بحدّتهما. فجأة ، رأيتُ وجه يُنيره ضوء باهر ، هو انعكاس لفكرة ، وسمعتُه يقول في سيل من الكلمات:

« لا ، يا بنتينيو ، ليس ذلك ضروريـــا. هنـــاك شـــيء أفضـل – لا ينبغي أن أقول أفضل ، لأن الأب المقدّس أعظم دائما من أيّ شيء آخر – لكن هناك شيئا سيُحدث نفس الأثر ».

« ما هو؟ ».

« والدتك نـذرتْ نَذْرًا للرب بأن تعطيـه قسّيسا ، أليس هذا صحيحا ؟ حسنا إذن ، دعها تعطيه قسّيسا ، طالما كان غيرك. يمكنها بسهولة أن تأخذ صبيا ما يتيما ، وتجعله يُرْسَم قسّيسا على نفقتها؛ يكون تمّ إعطاء قسّيس ، دون كونك ... »

« فهمتُها ، فهمتُها ، إنه نفس الشيء ! ».

« ألا تعتقد ذلك ؟ » واصل هو. « اسألْ الأمين عن ذلك. سيقول لك ما إذا لم يكن نفس الشيء ، أو سأستشيره بنفسي إن شئتَ؛ فإذا تردّد ، يمكننا أن نكلّم مولانا الأسقف ».

كنتُ أنعم التفكير: « نعم ، يبدو أن هذا هو الردّ. لأن النذر سيكون تمّ الوفاء به ، فعلا ، إذا تم تقديم قسّيس ».

لاحظ إسكوبار ، من الناحية الاقتصادية ، أن المسألة بسيطة: أمي ستنفق عليه نفس المبلغ الذى كانت ستنفقه علىّ ، ولن يحتاج يتيم إلى رفاهيات كبرى ... وذكر مبلغ الإيجارات من البيوت ، ١٠٧٠ ميلريس ، فضلا عن العبيد ...

« هوالشيء الوحيد » ، قلتُ أنا .

« وسنترك المعهد الدينى معا ».

« أنت أيضا ؟ »

« أنا أيضا. أعتزم أن أحسّن لاتينيتى ثم أغادر. لن أزعج نفسى باللاهوت. حتى اللاتينيـة ليست ضروريـة. فيم يفيد ، فى التجـارة ؟ »

قلتُ ضاحكا: « In hoc signo vinces »*.

أحسستُ بالمرح والظرف. أوه ! كم يضفى الأمل البهجة على كل

---

* باللاتينية في الأصل: « ستنتصر بهذه الراية » والمقصود: « سنتغلّب على الصعاب » – المترجم.

شئ ! ابتسم إسكوبار وكأنه استمتع بملاحظتى، ثم غرقنا كلانا فى حلم يقظتنا ، وأعيننا تحملق بعيدا . كانت عيناه لا تزالان كذلك عندما عدتُ أنا إلى الواقع ، ومرة أخرى شكرتُه على الخطة التى دبّرها؛ لم يكن من الممكن أن تكون هناك خطة أفضل. أصغى إسكوبار برضا .

« مرة أخرى » ، قال بوقار ، « يغدو الدين والحرية رفيقيْن مرحيْن ».

٩٧- فكّ الحصار

تمّ كل شئ على هذه الأسس. تردّدتْ أمى قليلا ، لكنها استسلمتْ أخيرا بعد أن قام الأب كابرال باستشارة الأسقف وعاد بكلمة « نعم » ، هذا يمكن عمله. تركتُ المعهد الدينى فى نهاية السنة.

كنتُ حينئذ أكثر قليلا من سبعة عشر عاما ... هنا بالضبط لابدّ أننا فى منتصف كتابى تماما ، لكن قلّة الخبرة جعلتنى أتلكأ وراء قلمى ، وأنــا أصل تقريبــا إلى نهاية مخزونى من الورق ، مع أن أفضل ما فى القصة لم يُروَ بعد. والآن لم يعد هناك مخرج سوى جرّها ورائى جرًا بخطًى واسعة ، فصلا على فصل ، بأقلّ تصحيح ، وأقلّ تفكير ، واختصار كلّ شئ. وبالفعل ، هذه الصفحة ستقوم مقام شهور ، وصفحات أخرى مقام سنين ، وهكذا سنصل إلى النهاية. إحدى التضحيات التى أقوم بها أمام هذه الضرورة الصارمة هى تحليل مشاعرى فى سنّ السابعة عشرة. لا أدرى هل سبق لك أن كنتَ فى السابعة عشرة ذات يوم. إنْ كنتَ ، لابدّ أنك تدرك أنه عُمْر يكوّن فيه نصفُ رجل ونصفُ طفل كُلاً واحدًا محباً للاستطلاع. كنتُ كُلاً هو الأكثر حبّا للاستطلاع ، كما كان سيقول تابعى چوزيه دياس ، ولم يكن

ليُعتبر مخطئا جدا. ماذا فعلتْ بى هذه الصفة بصيغة التفضيل العليا ، لا يمكننى أبدا أن أروى ذلك هنا دون أن أقع فى الخطأ سبق أن شجبتُه ؛ ومع ذلك فإن تحليل مشاعرى فى تلك الفترة يدخل فعلا فى خطتى. ورغم أننى ابن المعهد الدينى وابن أمى ، كنتُ بدأتُ أشعر فعلا تحت تحفّظى العفيف بارتعاشات الوقاحة والجسارة . نَبَعَتا من الدم لكنْ أيضا من الفتيات اللائى ، سواء فى الشارع أو من نوافذهن ، لم يتركننى فى حالى. وَجَدْنَنى وسيما وقُلْنَ لى ذلك. وأرادتْ بعضهن أن يُعجبن بجمال طلعتى من مسافة أقرب ، والغرور بداية للفساد.

٩٨- خمس سنوات

انتصر العقل؛ تقدّمتُ فى المدرسة. مرّ عيد ميلادى الثامن عشر ، وعيد ميلادى التاسع عشر ، والعشرون ، والحادى والعشرون ، وفى الثانية والعشرين من عمرى كنتُ حاملا ليسانس الحقوق.

كلّ شىء حولى تغيّر. أمى عقدت عزمها على أن تصبح عجوزا ؛ رغم ذلك ، أتتْ الشعرات البيضاء ضنينةً ، قليلة وبينها مسافات؛ الكاب والفستان والحذاء البسيط الذى لا يُحدث ضوضاء ظلّتْ كما كانت فى الأيام الخوالى. لم تعد تذهب وتجىء كثيرا جدا. الخال كوزمه عانى من قلبه ، وكان عليه أن يستريح. ابنة العم چوستينا صارت أكبر فحسب. چوزيه دياس أيضا ، لكنه لم يكن عجوزا جدا بحيث لا يقوم بمجاملة حضور تخرّجى ، والعودة هابطا من الجبل معى - مرحاً ومتحمسا كأنه هو حامل الليسانس. والدة كاپيتو كانت ماتت ؛ ووالدها كان تقاعد من نفس المنصب الذى سبق أنْ شغله فى الفترة التى رغب فيها أن يأخذ إجازة من الحياة.

إسكوبار كان يبدأ التجارة فى البنّ ، بعد العمل أربع سنوات فى واحدة من أفضل شركات ريو دى چانيرو. كانت ابنة العم چوستينا هى صاحبة رأى مفاده أنه داعبته فكرة دعوة أمى إلى زواج ثانٍ. لكن سواء أكانت لديه أم لم تكن فكرة كهذه ، لا ينبغى أن ينسى المرء الفارق الكبير فى العمر. ربما كان يفكر فقط فى إشراكها فى مشاريعه التجارية الأولى؛ والواقع أن أمى ، بناءً على طلبى ، قدّمتْ إليه بعض الأموال ، التى سدّدها حالما استطاع ، ليس بدون هذه السخرية: « دونا جلوريا فأرة جبانة ولا طموح لديها ».

لم يؤدّ الفراق إلى فتور صداقتنا. كان وسيطا فى تبادل الرسائل بين كاپيتو وبينى. منذ اللحظة التى رآها فيها ، شجّعنى فى حبّنا . والعلاقات التجارية التى دخلها مع والد سانشا وثّقتْ تلك التى سبق أن أقامها مع كاپيتو ، وجعلتْه يخدمنا كلَيْنا كصديق. فى البداية ، كان من الصعب بالنسبة لها أن تقبل به ، كانت تفضّل چوزيه دياس ، لكن چوزيه دياس كان غير مقبول من جانبى بسبب بقية رهبة طفولية. انتصر إسكوبار؛ ورغم غيظها ، سلّمتْه كاپيتو رسالتها الأولى ، التى كانت أمّ وجدّة بقية رسائلها. حتى بعد أن تزوّج لم يُوقف هذه الخدمة الكريمة ... نعم ، تزوّج – حزّرْ ممن ؟ تزوّج من سانشا الرقيقة ، صديقة كاپيتو وكانت أختاً لها تقريبا ، كانت كذلك إلى حدّ أنه اعتبرها ذات مرة وهو يكتب إلىّ « أخت زوجته الصغيرة ». هكذا تتكوّن العواطف والروابط الأسرية ، المغامرات والكتـــب.

٩٩- الابن صورة أبيه

انفجرت أمى سعادة تقريبا عندما جئتُ إلى البيت حاملا ليسانس الحقوق. لا أزال إلى الآن أسمع صوت چوزيه دياس يذكّرنا بإنجيل القديس يوحنا ، ويقـول وهـو يـرانا نتعانق ، « يا امرأة ، هو ذا ابنك ! يا بنى ، هو ذا أمك ! ».

ثمّ أمى ، بين دموعـها: « أخي كوزمـه ، هو صورة أبيه ، أليس كذلك ؟ ».

« نعم ، هناك شيء ما ، العينان ، شكل الوجه. هو أبوه ، فقط عصرىّ أكثر قليلا » ، ختم ، مثل نكتة. « ثمّ قولي لي الآن ، يا أختى ، ألمْ يكن من الأفضل له ألاّ يحاول أن يصبح قسّيسا ؟ هل يمكنك أن تتصورى أن هذا الشاب المتأنّق يصلح قسّيسا جيدا ؟ »

« كيف حال بديلى؟ »

« يتقدّم. سيُرسَم قسّيسا فى السنة القادمة » ، ردّ الخال كوزمـه « ينبغـى أن تذهـب وتـراه وهـم يرسمونـه قسّيسا. أنا أيضا ، إذا وافق < السنيور القلب >. سيكون شيئا طيبا بالنسبة لك أن تلتمس نفسك فى روح الآخر ، كأنك أنت نفسك تتلقّى الرّسامة ».

« هكذا بالضبط ! » صاحت أمى. « لكنْ انظرْ إليـه نظرة متفحّصة ، يا أخى كوزمه ، انظرْ لترى ما إذا لم يكن صورة المرحوم الغالى. انظرْ فى هذا الاتجاه ، يا بنتينيو، انظرْ إلىّ. اعتقدتُ دائما أننى لاحظتُ تشابهاً ؛ هو الآن أكبر كثيرا. الشارب يفسده قليلا ... »

« نعم ، يا أختى جلوريا ، الشارب ، فى الواقع ... لكنه شبيه بـه للغاية ».

قبّلتنى أمى بحنان لا أعرف كيف أصوغه فى كلمات. الخال كوزمه

- لإدخال البهجة على نفسها - لقّبنى بـ « الدكتور » ، چوزيه دياس أيضـا ، وكلّ شخص حول البيت ، ابنة العم ، العبيد ، الزُّوّار ، پادْوا ، ابنته ، وهى نفسها ، ظلّوا يردّدون اللقب.

١٠٠- « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو ! »

بعد أن أفرغتُ صندوق ملابسى ، فى حجرتى أنا ، وأخرجتُ شهادة الليسانس من حافظتها ، انطلقتْ خواطرى إلى السعادة والمجد. رأيتُ زواجى ومهنة لامعة ، بينما كان چوزيه دياس يساعدنى ، بحماس وفى صمت. هبطتْ جنّيّة غير مرئية رويدا رويدا فى تلك الحجرة وقالت لى بصوت رقيق وحكيم فى آنٍ معا ، « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو؛ ستكون سعيدا قريبا ».

« ولماذا لا تكون سعيدا ؟ » سأل چوزيه دياس وهو يعتدل واقفا ويحملق فىّ.

« أنتَ سمعت ؟ » سألتُه ، ناهضا أيضا من دهشتى.

« سمعتُ ماذا ؟ »

« سمعتَ صوتا قال أننى سأكون سعيدا ! »

« إنه ملاك ! أنتَ نفسك الذى قلت ... »

حتى الآن يمكننى أن أحلف أن الصوت كان صوت جنّيّة. من المحتمل أن الجنّيّات ، بعد طردهن خارج الحكايات والأشعار ، اتّخذن مُقامهن فى قلوب الناس ويتكلّمن بوضوح من هناك فى الداخل. هذه الجنّيّة ، مثلا - سمعتُها مرارا ، بوضوح وتمييز. لابدّ أنها ابنة عمّ للساحرات الاسكتلنديات: « ستكون ملكا؛ يا ماكبث ! » - « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو ! » رغم كل شىء ، هى نفس النبوءة ، بذات

الإيقــاع ، الذى هو كونىّ وخالد. عندما أفقتُ من دهشتى ، سمعتُ بقية كلام چوزيــه ديــاس ...

« ... ستكون سعيدا ، كما تستحقّ ، كما كنتَ تستحقّ تلك الشهادة هناك ، وهى ليست منّةً من أحد. والتفوّق الذى حقّقته فى كافة مقرّراتك دليل على ذلك. سبق أن قلتُ لك أننى سمعتُ بنفسى أسمى مدح من شفاه أساتذتك. إلى جانب هذا ، السعادة ليست المجد وحده ، هى أيضا شىء ما غير ذلك. آه ، لَمْ تُفْضِ بكل شىء لصديقك العجوز چوزيه دياس ! العجوز البائس چوزيه دياس أُلْقِى به جانبا مثل برتقالة ممصوصة ، هو لم يعد يصلح لشىء ؛ الآن جاء دور الأصدقاء الجدد ، آل إسكوبــار ... لا أُنكر أنه شاب ممتاز جدا ، ومثابر ، وزوج مثالى ؛ لكنْ رغم كل شىء الرجل العجوز يعرف كيف يحب أيضا ... »

« عمّ تتحدّث ؟ »

« ماذا يمكن أن يكون ؟ مَنْ الذى لا يعرف كل شىء عنه ؟ ... أُلفة الجيرة تلك كان لابد أن تنتهى إلى هذا ، وهذا فى الحقيقة نعمة من السمــاء ، لأنهــا مــلاك ، الأمــلاك ... معذرة لصياغــة الكلمة بالنّحت ، يا بنتينيو ، كانت وسيلة لإبراز كمال تلك السيدة الصغيرة. اعتقدتُ العكس تماما فى الأيام الخوالى. حسبتُ الأساليب الصبيانية تعبيرات عن الشخصية ، ولَمْ أرَ أن تلك البنت الصغيرة المشاكسة ذات العينَيْن الحالمتَيْن كانت الزهرة النزقة لثمرة حلوة وطيّبة ... لماذا لم تقل لى أنا أيضا ما يعرفه الآخرون ، وهو هنا فى البيت أكثر من مجرّد تخمين ، وموافق عليه ؟ »

« هل ماما توافق فعلا ؟ »

« حقا ؟ تكلّمنا عن هذا وشرّفتنى بسؤالى عن رأيى. اسألْها عما قلتُه لها ، وبعبارات لا لبس فيها . اسألْها فقط.. قلتُ لها أنه ليس بوسعها

أن تتمنّى زوجة ابن أفضل منها – رقيقة ، عاقلة ، موهوبة ، صديقة لأسرتنا ... ربّة بيت ممتازة ، وهذا أقلّ من نصف مزاياها. بعد موت أمها ، تكفّلت بمسؤولية كل شيء. پادْوا ، الآن بعد أن أُحيل إلى المعاش ، لا يقوم إلّا بتلّقى شيك المعاش وتسليمه لابنته. الابنة هى التى تقسّم النقود ، تدفع الفواتير. تُمسك حساب المصاريف ، تعتنى بكل شىء ، الطعام ، الكساء ، النور – أنتَ نفسك رأيتَها تقوم بكل هذا فى السنة الماضية. وفيما يخصّ جمالها أنت تعرف عنه أكثر من أىّ شخص ... »

« لكنْ ، هل استشارتْك أمى ، حقا ، بخصوص زواجنا ؟ »

« فى الواقع ، لا. هى تكرّمتْ بسؤالى عما إذا كانت كاپيتو ستكون زوجة صالحة. كنتُ أنا الذى تكلّمتُ ، فى إجابتى ، عن زوجات الأبناء. دونا جلوريا لم تعترض ، بل بدا أنها ابتسمتْ ».

« كلّ مرة كتبتْ فيها ماما إلىّ ذكرتْ كاپيتو ».

« أنت تعرف كم تعشقان بعضهما ، وهذا هوالسبب فى أن ابنة عمك تزداد وُجوما وتجهُّما. ويبدو الآن أنها ستتزوج قريبا جدا ».

« ابنة العم چوستينا ؟ »

« ألمْ تعرف ؟ من المحتمل أنه مجرّد قيل وقال؛ لكنْ ، حسنا ، الدكتور چوان داكوستا فقد زوجته منذ أشهر قليلة ، ويُقال (فى الواقع لا أعرف أىّ شىء عن الموضوع – الأمين هو الذى أخبرنى) ، يُقال أن الاثنيْن نصف ميّاليْن إلى أن يضعا نهاية لترمُّلهما فيما بينهما ، بالزواج. أغلب الظن أن الأمر بسيط ، لكنه ليس خارج حدود الإمكان ، رغم أنها كانت تقول دائما أن الدكتور جِلْد على عَظْم ... فقط – إذا كانت هى مقبرة – » علّق ضاحكا؛ ثمّ بجديّة ، « قلتُ ذلك كنكتة ... »

لم أسمع الباقى. سمعتُ فقط صوت جنّيتى الداخلية ، التى ظلّتْ تردّد لى ، لكنْ الآن بلا كلمات: « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو! » ثم قال لى

صوت كابيتو نفس الشيء ، بكلمات مختلفة وكذلك أيضا إسكوبار؛ وأكّدا كلاهما أخبار چوزيه دياس من ملاحظتهما الشخصية. وأخيرا أمي ، بعد ذلك بعدّة أسابيع ، عندما ذهبتُ لأطلب إذنها بالزواج ، إلى جانب موافقتها ، أعطتني النبوءة المماثلة ، باستثناء تعديل النصّ بما يتلاءم مع أم: « ستكون سعيدا ، يا بُنَيّ ! ».

١٠١- في السماء

لنكُنْ سعداء مرة واحدة وإلى الأبد ، قبل أن ينتزع القارىء ، نصف الميّت من الانتظار ، نفسه ويذهب للقيام بجولة. لنتزوّجْ. كان ذلك في ١٨٦٥ ، ذات أصيل في مارس ، وتصادف أن السماء كانت تُمطر*. عندما وصلنا إلى قمة تيچوكا ، عُشّ شهر عسلنا ، منعتْ السماء المطر وأشعلتْ النجوم ، ليس فقط تلك التي نعرفها من قبل بل أيضا نجوما لن يتمّ اكتشافها قبل عدّة قرون من الآن. كانت مجاملة عظيمة ، ولم تكن الوحيدة. القديس بطرس ، الذي يحمل مفاتيح السماء ، فتح لنا أبوابها ، وأدخلنا ، وبعد أن مسّنا بعصاه رتّل آيات قليلة من رسالته الأولى: « كذلكن أيتها النساء كُنّ خاضعات لرجالكن... ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلّي بالذهب ولبس الثياب ، بل إنسان القلب الخفيّ... كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضا معكم نعمة الحياة... » ثمّ أعطى إشارة للملائكة فرتّلوا مقطعا من نشيد الأنشاد ،

* في المعتقدات الشعبية بالبرازيل يعني الزواج في يوم ماطر زواجا سعيدا (ملاحظة الطبعة الإنجليزية).

بتناغم كان من شأنه أن يدحض فرضيّة مغنّى التينور الإيطالى لو أن الأداء كان على الأرض؛ لكنه كان فى السماء. انسجمتْ الموسيقى مع النصّ المكتوب ، وكأنهما تمّ إبداعهما معا على طريقة الأوبرا الفاجنرية. ثم زُرنا بقعة من ذلك المكان الذى لا حدود له. لا تنزعجْ ، لا أعتزم وصفها؛ اللغة البشرية لا تملك صيَغاً تليق بمهمة جليلة كهذه.

مع ذلك ، ربما كان كل هذا حلما: لا شىء أكثر طبيعية لتلميذ سابق فى المعهد الدينى من سماع اللاتينية والكتاب المقدس فى كل مكان حوله. صحيح أن كاپيتو ، التى لم تعرف لا الكتاب المقدّس ولا اللاتينية ، حفظتْ قليلا من الكلمات عن ظهر قلب ، كهذه على سبيل المثال: « جلستُ تحت ظلّه الذى تمنيتُه طويلا ». فيما يخصّ كلمات القديس بطرس ، قالت لى فى اليوم التالى أنها معها من كل قلبها ، وأننى الثياب الوحيدة والزينة الوحيدة التى ستلبسها. وهو ما رددتُ عليه مُسرعا بأن زوجتى ستكون لها دائما أفخر ثياب فى هذا العالم.

١٠٢- الزوجـــة

تخيّلْ ساعة حائط لها بندول واحد وبلا ميناء ، فلا ترى الساعات مرقّمة. سيدور البندول من ناحية إلى أخرى ، لكنْ لا علامة خارجية ستدلّ على سيْر الزمن. كان هذا هو الأسبوع الذى قضيناه على قمة تيجوكا .

من حين لآخر عُدْنا إلى الماضى وتسلّينا بتذكُّر محننا ومصائبنا ، لكن هذا أيضا كان وسيلة لئلاّ نخرج من أنفسنا. هكذا عشنا من جديد سنوات انتظارنا الطوال ، سنوات المراهقة ، « الوشاية » التى تظهر فى الفصول الأولى ، وضحكنا من چوزيه دياس الذى دبّر المكائد من أجل انفصالنا وانتهى إلى الفرح بزواجنا. مرة أو مرتين تكلمنا

عن النزول ، لكن الصباحات التى حُدِّدتْ له كانت دائمـا ماطرة أو مُشمسـة ، وكنّا ننتظر سماء ملبّدة بالغيوم ، لم تكن لتجىء.

مـع ذلك ، وجدتُ كابيتو متلهّفة إلى حدّ ما على الخروج. وافقتْ على البقاء ، لكنها ظلّت تتحدّث عن أبيها وعن أمى ، عن أنه ليست لديهما أخبار عنّا ، عن كذا وكيت ، إلى أن تشاجرنا قليلا. سألتها ما إذا كانت ضجرتْ منّى فعلا.

« ضـجرتُ منك ؟ »

« يبدو ذلك ».

« ألا بدّ أن تكون دائما طفلا؟ » سألتْ ، آخذة رأسى بين يديْها ومقرّبة عينيْها من عينىّ. « هل انتظرتُ سنين طويلة جدا لأنقلب ضجرة منك فى غضـون أسبوع ؟ لا ، يا بنتينيو ، أنا قلتُ هذا ، لأنه كذلك فى الواقع ، أعتقـد أنهمـا قد يكونان متـلهّفيْن على رؤيتنـا ويتخيّلان مرضـاً ما أوغيره ، وأعترف ، من ناحيتى ، بأننى أودّ أن أرى بابا ».

« حسنا ، لنذهبْ غدا ».

« لا ، لابدَّ أَن يكون ذلك فى يوم غائم » ، ردّتْ بسرعة ضاحكة.

أخذتُها بضحكتها وبكلمتها ، لكن تلهُّفها استمرّ ، ونزلنا فى الشمس.

الابتهاج الذى لبستْ به قبعتها الزوجية ، والهيئة الزوجية التى أعطتْنى بها يدها لندخل العربة أو نخرج منها ، وذراعها لنمشى فى الشارع ، كل هذا أثبت لى أن سبب تلهُّف كابيتو كان العرض الخارجى لوضعها الجديد. لم يكن كافيا أن تكون زوجة داخل أربعة جدران وقليل من الأشجار؛ كانت تحتاج إلى بقية العالم أيضا. وعندما وجدتُ نفسى هنـاك فى الأسفل ، أطأ الشوارع بقدمىّ معها ؛ متوقفا ، ناظرا ، متحدّثا ، أحسستُ بنفس الشىء. اخترعتُ جولات لكى يرانى النـاس ،

ويستحسنوني ، ويحسدوني. في الشارع ، أدار كثيرون رؤوسهم بفضول ، وتوقّف آخرون ، وربما سأل بعضهم ، « مَنْ هما ؟ » فيردّ واحد من واسعي الاطّلاع ، « ذلك هو د. سانتياجو، الذي تزوّج منذ أيام قلائل من السيدة الشابة ، دونا كاپيتولينا ، بعد غرام عنيف في الصبا. وهما يعيشان في جلوريا ، وتقيم الأسرتان في ماتاكاڤايّوس »، ثمّ كلاهما معاً ، « يا له من مشهد! ».

١٠٣- السعادة روح لطيف

المشهد مبتذل؛ چوزيه دياس عبّر تعبيرا أفضل. كان هو الشخص الوحيد من السهل في الأسفل الذي زارنا على قمة تيچوكا. حمل إلينا التهاني من الأسرة ، وكلمات من عنده هو كانت في الحقيقة تُحَفاً من الموسيقى. أنا لا أسجّلها هنا لكي أوفرّ الورق ، لكنها كانت ساحرة. ذات يوم قارننا بطائرين كبرا تحت إفريزيْن يبرزان متقاربيْن من نفس السقف. يمكن للمرء أن يتخيّل الباقي ، يجرّب الطائران الأزغبان أجنحتهما ويحلّقان في السماء ، وتتّسع السماء لتضمّهما. لا أحد منا ضحك؛ كلانا أصغيْنا ، متأثريْن ومقتنعيْن ، كل شيء امّحى من الذاكرة ، بدايةً بذلك الأصيل في ١٨٥٨ ... السعادة روح لطيف .

١٠٤- الأهـــرام

وزّع چوزيه دياس نفسه في تلك الفترة بين أمي وبيني ، يتناول وجبات الغداء في جلوريا ووجبات الإفطار في ماتاكاڤايّوس. مضى كل شيء على أحسن ما يرام. بعد سنتيْن من الزواج ، وفيما عدا إحباطنا

الشديد لأننا لم نُرزق طفلا ، مضى كل شيء على أحسن ما يرام. كنتُ فقدتُ حماى ، هذا صحيح ، وكان الخال كوزمه مريضا عاجزا ، لكن صحة أمى كانت جيدة ، وصحتنا ممتازة.

كنتُ محاميا لعدّة عائلات واسعة الثراء ، وكانت القضايا تأتى إلينا. ساهم إسكوبار مساهمة كبيرة فى بداياتى فى المحاكم. كان توسّط لدى محامٍ بارز لأعمل فى مكتبه ، وكان رتّب بعض التوكيلات لى ، كل هذا من تلقاء نفسه.

بالإضافة إلى ذلك ، كانت صداقتنا الأسَرية موجودة سلفاً. حافظتْ سانشا وكابيتو، بعد زواجهما ، على الصداقة التى بدأتاها فى المدرسة؛ وإسكوبار وأنا ، على صداقتنا فى المعهد الدينى. كانا يقيمان فى أنداراىْ ، وكانا يدعواننا دائما إلى هناك. ولأنه لم يكن بوسعنا أن نذهب كثيرا بالقدر الذى كنّا نودّ ، كنّا أحيانا نذهب إلى هناك للغداء أيام الأحد ، أو كانا يتناولان الغداء معنا. الغداء لا يكاد يعبّر عن ذلك. كنّا دائما نذهب مبكّرا جدا ، بعد الإفطار مباشرة ، لنستمتع باليوم كاملا ، ولم نكن نفترق إلاّ فى الساعة التاسعة ، أو العاشرة ، أو حتى الحادية عشرة ، حيث لا يبقى أىّ وقت. والآن عندما أفكر فى تلك الأيام فى أنداراىْ وجلوريا ، أشعر بأسف على أن الحياة وكل الأشياء الأخرى ليست فى متانة الأهرام.

كان إسكوبار وزوجته سعيدَيْن. كان لديهما ابنة صغيرة. فى وقت لاحق ، سمعتُ بمغامرة للزوج ، علاقة غرامية عابرة من المسرح ، ممثلة أو راقصة ما ، لكن إنْ كان ذلك صحيحا ، فهى لم تؤدّ إلى فضيحة. كانت سانشا متواضعة ، وزوجها مثابرا فى عمله. ذات يوم عندما عبّرتُ عن حزنى لإسكوبار على أننى محروم من ابن ، أجاب:

« لا تقلق يا رجل. سيرسلهم الرب عندما يشاء ، وإذا لم يرسل أىّ

طفل ، فذلك لأنه يريدهم لنفسه ، وسيكون من الأفضل أن يظلّوا في السماء ».

« طفل ، طفل خاصّ بالمرء ، هو التكملة الطبيعية للحياة ».

« سيأتى عند الضرورة ».

لم يأت. طلبتْه كاپيتو فى صلواتها . أكثر من مرة ضبطتُ نفسى أتلو صلوات وأطلبه. لم يعد الحال كما كان عندما كنت طفلا؛ الآن ، أدفع مقدّما ، مثل إيجار البيت.

١٠٥- الذراعان

مضى كل شىء ، بجانبه الأكبر ، على خير ما يرام. كانت كاپيتو تحبّ المزاح والتسلية. فى تلك الأيام الأولى ، عندما كنّا نخرج للقيام بجولة أو إلى المسرح كانت أشبه بطائر خارج قفصه. كانت تلبس بسحر وبساطة . ورغم أنها كانت مغرمة بالمجوهرات مثل باقى الفتيات ، لم ترغب فى أن أشترى لها مجوهرات كثيرة أو غالية ، وذات يوم كانت قلقة بهذا الشأن إلى حدّ أننى وعدتُها بألاّ أشترى لها جوهرة واحدة بعد ذلك؛ لكنه لم يكن وعدا وفيتُ به.

كانت حياتنا هادئة تقريبا. عندما لم نكن مع الأسرة أو مع الأصدقاء ، أو إذا لم نذهب إلى مسرحية ما أو حفلة خاصة (وكان كلّ ذلك نادرا) ، كنّا نقضى ليالينا عند نافذتنا فى جلوريا ، نراقب البحر والسماء ، شبح الجبال والسُّفُن ، أو من يتنزّهون على الساحل الرملى. أحيانا ، كنتُ أروى لكاپيتو تاريخ المدينة ، فى أحيان أخرى كنتُ أعطيها لمحات عن علم الفلك ، لمحات هاوٍ ، فيما كانت تُصغى ، منتبهة ومُحبّة للاستطلاع ، لكنْ ليسَ كذلك دائما إلى حدّ أن النعاس غلبها غير قليل. لم

تكن درستْ البيانو أبدا لكنها تعلّمتْ بعد زواجنا ، بسرعة بالغة إلى درجة أنها سرعان ما كانت تعزف فى بيوت أصدقائنا. وفى جلوريا كان ذلك إحدى تسلياتنا. كانت تغنّى ، أيضا ، لكنْ ليس كثيرا وفى مناسبات نادرة ، لأنها لم تكن تملك صوتا. ذات يوم أدركتْ أن الأفضل ألاّ تُغنّى مطلقا ، وتخلّتْ عن الغناء. كانت تحبّ أن ترقص ، وكانت تزيّن نفسها بعناية وولَع عندما كانت تذهب إلى حفلة راقصة؛ كان ذراعاها ... ذراعاها يستحقان فقرة.

كانا جميلَيْن ، وفى الليلة الأولى التى حضرتْ فيها حفلة راقصة بذراعيْها عاريَيْن ، لا أعتقد أنه كان لهما نظير فى المدينة – ولا حتى ذراعاك ، يا سيدتى العزيزة ، فذراعاك لم يكونا فى ذلك الزمن سوى ذراعىْ بنت صغيرة جدا ، إن كانا موجودين أصلا آنذاك ، لكن من المحتمل أنهما كانا لا يزالان فى الرخام الذى نُحتا منه ، أو فى يدىْ النحّات الأسمى. كانا أجمل ذراعيْن ذلك المساء ، لا نظير لهما إلى حدّ أنهما ملآنى بغرور يُصيب بالدُّوار. لم أكد أتحادث مع بقية الضيوف وفضّلتُ أن أراقبهما وهما يتثنّيان ويتلوّيان وسط أذرعة أخرى تطوّق رد نجوتات أخرى. كان الأمر مختلفا فى الحفلة الراقصة الثانية: فى تلك المرّة عندما رأيتُ أن الرجال لم يكفّوا عن الحملقة فيهما ، والتفتيش عنهما ، واستجدائهما تقريبا ، عندما رأيتُ الرجال يمسّونهما برفق بأكمامهم السوداء ، كنتُ مغتاظا ومكتئبا. لم أحضر ثالثةً ، وفى هذا حصلتُ على مساندة إسكوبار ، الذى أفضيتُ إليه باستيائى بصراحة. وافقنى فى الحال.

« سانشينيا لن تذهب أيضا ، أو ستذهب بأكمام طويلة؛ يبدو لى الشىء الآخر غير لائق ».

« نعـم ، لكن لا تقلْ السبـب؛ ستقـولان أننـا من تلاميـذ المعهد

الدينى كاپيتو وصفتْنى بذلك فعلا ».

لم أستطع الامتناع عن أن أُخبر كاپيتو ، مع ذلك ، بموافقة إسكوبار. ابتسمتْ وردّت بأن ذراعى سانشينيا ليسا جميلَيْن؛ لكنها استسلمتْ بسرعة ، ولم تذهب إلى تلك الحفلة الراقصة. ذهبتْ إلى حفلات راقصة أخرى ، لكن ذراعيها كانا نصف مكسوَّيْن بقماش شفاف من نوع أو آخر ، لا كان يسترهما ولا كان يكشفهما تماما ، مثل سُنْدُس كامونس*.

١٠٦- عشرة جنيهات استرلينية

سبق أن قلتُ أنها مقتصدة أو ، إن كنتُ لم أقلْ ، اعتبرْ ذلك يُقال الآن. كانت تدّخر ليس النقود فقط بل أيضا الأشياء القديمة العديمة القيمة ، كتلك التى تُدَّخَر إكراما للتقاليد ، أو الذكرى ، أو الزمن القديم. كانت هناك بعض الأحذية ، على سبيل المثال ، وبعض الشباشب الصغيرة المسطّحة بلا كعب وذات الأشرطة التى تتلاقى فوق مشط القدم والرُّسغ – الأخيرة التى كانت تلبسها قبل أن تلبس حذاء السيدة. أحضرتْها إلى البيت ، وكانت تُخرجها أحيانا من درج خزانة الملابس ، حيث كانت تحتفظ بها ، مع أشياء قديمة أخرى ، قائلةً أنها بقايا من الطفولة. أمى ، التى كانت لها نفس السمة ، أحبّتْ أن تسمعها تقول وتفعل ذلك.

فيما يتعلّق باقتصادها المالى الخالص ، سأستشهد بحالة واحدة

* لويس ده كامونس Luis de Camoes (١٥٢٤ – ١٥٨٠) شاعر برتغالى ولد فى لشبونة، تُعَدّ قصيدته لوزيادسLusiades (١٥٧٢) التى يحكى فيها مغامرات الملاّح ڤاسكو ده جاما، مُبْرزا فيها الخوارق الأسطورية ، الأثر الأدبى الرئيسى فى الأدب البرتغالى – المترجم (عن لاروس).

وهذه ستكفى. تصادف أن حدثتْ فى مناسبة درس من دروس علم الفلك تلك فى جلوريا. ينبغى أن أعترف بأننى حملتُها أحيانا على النعاس. وذات ليلة كانت مستغرقة تماما فى التأمّل فى البحر ، مما جعلنى أغار.

« أنتِ لا تُصغين إلىّ ».

« أنا ؟ أنا أصغى ».

« ماذا كنتُ أقول ؟ »

« أنتَ ... كنتَ تتحدّث عن الشِّعْرَى اليمانية ».

« الشِّعْرَى اليمانية ، يا كاپيتو ! مرّتْ عشرون دقيقة منذ كنتُ أتحدّث عن الشِّعْرَى اليمانية ».

« كنتَ تتحدّث عن ... عن المريخ » ، صحّحت مُسرعة.

كان المريخ فعلا ، لكن كان من الواضح أنها التقطتْ صوت الكلمة فقط ، وليس معنى. صرتُ جادًا؛ أحسستُ بحافز للنهوض ومغادرة الحجرة. أدركتْ كاپيتو ذلك ، وصارت أرقّ وأعذب المخلوقات. أمسكتْ يدى ، أقرّت بأنها كانت تحسب ، أىْ ، تحسب بعض المبالغ من المال فى محاولة لاكتشاف مبلغ ضئيل بعينه كان ناقصا. كانت مسألة تحويل من الورق إلى الذهب. فى البداية ظننتُ أنها خدعة لإعادتى إلى اعتدال مزاجى ، لكنْ فى غضون ثوانٍ قليلة كنتُ أنا أيضا أحسب ، لكن بالقلم والورق ، على ركبتى ، لأكتشف لها عجزها.

« لكن أىّ جنيهات هذه ؟ » سألتُ عندما انتهيت.

نظرتْ كاپيتو إلىّ وضحكتْ ، ثم ردّت بأن اللوم على إفشائها السرّ يقع علىّ أنا. قامت ، ذهبتْ إلى حجرتها وعادت بعشرة جنيهات استرلينية فى يدها. كانت ما وفرّتْ من النقود التى أُعطيها لها كلّ شهر للمصاريف.

« كلّ هذا ؟ ».

« ليس كثيرا ، مجرّد عشرة جنيهات. هذا ما استطاعت زوجتك البخيلة توفيره فى شهور عديدة » ، ختمتْ وهى تُخشخش الذهب فى يدها.

« مَنْ كان الوسيط ؟ ».

« صديقك إسكوبار ».

« كيف لم يقل لى أىّ شىء ؟ ».

« حدث هذا اليوم فحسب ».

« كان هنا ؟ ».

« قبل عودتك إلى البيت بقليل. لم أذكر ذلك خشية أن تشكّ فى شىء ما ».

أردتُ أن أبدّد ضعف مقدار الذهب على هدية ما تذكارية ، لكن كاپيتو أوقفتْنى. على العكس ، سألتْنى نصيحتى حول ما ينبغى أن نفعل بتلك الجنيهات.

« هى لكِ » ، أجبتُ أنا .

« لنا » ، صحّحتْ هى.

« إذن تحتفظين بها ».

فى اليوم التالى ، ذهبتُ لأرى إسكوبار فى المخزن ، وضحكتُ على سرّهما - سرّه هو وكاپيتو. ابتسم إسكوبار وقال أنه كان على وشك الذهاب إلى مكتبى ليخبرنى. أخت الزوجة الصغيرة (استمرّ فى منح كاپيتو هذا الاسم) كانت كلّمتْه خلال زيارتنا الأخيرة لأنداراىْ ، وذكر السبب فى السّريّة.

« عندما قلتُ لسانشينيا » ، ختم كلامه ، « ذُهلَتْ ». < كيف يمكن لكاپيتو أن توفّر الآن وكلّ شىء غالٍ جدا ؟ > < لا أعرف ، يا طفلتى؛ كلّ

ما أعرف أنها وفرّتْ عشرة جنيهات ›.

« لِتنتظرْ وتَرَ ، ربما تعلّمتْ أن تفعلها أيضا ».

« لا ، لا أظنّ ذلك. سانشينيا ليست مسرفة ، لكنها ليست مقتصدة أيضا ؛ ما أعطيه لها يكفى ، لكن هذا كل ما هنالك ».

ثم أنا ، بعد عدّة لحظات من التفكير: « كاپيتو ملاك ».

أومأ إسكوبار موافقا لكن بلا حماس كمن يأسف لأنه لا يستطيع أن يقول نفس الشىء عن زوجته. هذا ما كان سيبدو لك أيضا ، هذا أكيد إلى حدّ أن فضائل أولئك القريبين منّا تملأنا بنوع من الغرور ، أو الفخر ، أو العزاء.

١٠٧- الغيرة من البحر

لولا علم الفلك ، ما اكتشفتُ جنيهات كاپيتو العشرة بتلك السرعة. لكننى لا أعود إلى الموضوع لهذا السبب؛ أنا أفعل ذلك حتى لا تتصوّر أن كبريائى كمدرّس هى التى جعلتنى أعانى من عدم انتباه كاپيتو فأصبحتُ أغار من البحر. لا ، يا صديقى. ينبغى أن أشرح لك أننى كنتُ أُصاب كثيرا بنوبات الغيرة هذه ، راغبا فى أن أعرف ماذا عسى أن يكون داخل رأس زوجتى – وليس خارجه أو فوقه . إنها حقيقة معروفة أن الخواطر المنطلقة لشخص قد تكون مُذنبة ، نصف مُذنبة ، ثُلث ، خُمس ، عُشر مُذنبة ، مادام التدرُّج فيما يتعلق بالذنْب بلا حدود. مجرّد تذكُّر عينيْن يكفى لتركيز العينيْن الأخرييْن ، اللتين تتذكرانهما وتبتهجان ، فى تخيُّلهما. لا حاجة هناك إلى خطيئة قاتلة فعلية ، أو تبادل رسالة ، أو مجرّد كلمة ، أو إيماءة ، أو تنهيدة ، أو إشارة مهما كانت خفيفة أو تافهة. يمكن لرجل مجهول أو امرأة مجهولة يمرّ الواحد منهما على ناصية

الشارع أن يجعلنا نضع الشِّعْرَى اليمانية داخل المريخ ، وأنتَ تعرف ، أيها القارئ ، الاختلاف القائم بين هذا وذاك فى البُعْد وفى الحجم ، لكن علم الفلك ينطوى على هذه الالتباسات. هذا هو ما جعلنى أغدو شاحبا ، وأزداد صمتا ، وأريد الفرار من الحجرة ، لأعود يعلم الرب متى - ربما بعد ذلك بعشر دقائق. بعد ذلك بعشر دقائق سأكون هنا فى حجرة الجلوس ، عند البيانو ، أو النافذة ، مُواصلا الدرس الذى قُطع:

« المريخ على بُعْد ... »

وقت قصير جدا ؟ نعم ، وقت قصير جدا ، عشر دقائق.

كانت نوبات غيرتى حادّة ، لكن قصيرة: فى لحظة كان يمكننى أن أهدم كل شىء ، لكن فى نفس اللحظة كان يمكننى أن أبنى من جديد السماء ، والأرض ، والنجوم.

الحقيقة أننى ازددتُ غراما بكاپيتو ، إنْ كان ذلك ممكنا ، وازدادت هى رقّة ، والجو شفافية ، والليالى نورا ، والربّ رُبُوبيّةً. وإذا شئنا الدقة ، لم تكن الجنيهات العشرة الاسترلينية هى التى فعلتْ هذا ، أو الولع بالاقتصاد الذى كشفتُه والذى كنتُ مدركا له ، بل الاحتياطات التى أخذتها كاپيتو بقصد أن تكشف لى ذات يوم عنايتها الفائقة اليومية. إسكوبار أيضا صار أعزّ علىّ. وغدتْ زياراتنا أكثر تواترا ، وأحاديثنا أكثر ألفة.

١٠٨- طفـل

مع ذلك ، كلّ هذا لم يقتل لهفتى على طفل ، مهما كان غلاما حزينا بعض الشىء ، شاحبا وحزينا ، لكنْ طفلا ، طفلا من جسدى أنا.

عندما كنّا نذهب إلى أنداراىْ و نرى الابنة الطفلة لإسكوبار وسانشا ،

والتى كان اسم دلعها كاپيتوزينيا ، لتمييزها من زوجتى ، ذلك أنهما كانا أعطياها نفس الاسم عند التعميد ، كنا نمتلىء حسدا. كانت البنت الصغيرة مفعمة بالحيوية وفائقة الجمال ، ثرثارة وفضوليّة. كان أبواها ، مثل بقية الآباء ، يَرْوُون فكاهاتها وأقوالها الذكية ، وفى الليل عندما كنّا نعود إلى جلوريا ، كنّا نتحسّر فى حسد ونتضرّع فى سرّنا إلى السماء أن تضع حداً لذلك...

... مات حسدنا ، ووُلدت آمالنا ، ولم تكن ثمرتها ستتأخر طويلا عن المجىء إلى هذا العالم. لم يكن سقيما ولا قبيحا ، كذلك الطفل الذى صلّيتُ من أجله ، بل كان طفلا مفعما بالحيوية ، وقويًا ، وجميلا.

فيما يتعلّق بفرحى عندما وُلد ... لا أدرى كيف أرويه. لم أحسّ أبدا بما يضارعه ، لا ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أىّ فرح يضارعه ، ولا أىّ فرح يشبهه من قريب أو بعيد. كان دُوارا وجنونا. لم أغنِّ فى الشارع ، بسبب الخجل الطبيعى ، ولا فى البيت ، حتى لا أُزعج كاپيتو النفساء. لا ولم أرْتمِ على الأرض ، لأن هناك ربًا يراقب فوق الآباء الجدد. فى الخارج ، عشتُ وعقلى على الطفل الصغير؛ فى البيت ، وعيناى عليه – أراقبه ، أدهش به ، أسأله من أين جاء ، ولماذا كنتُ مستغرق الفكر فيه ، وبقية الهراء الفارغ ، بدون كلمات ، بل كنتُ أفكر أو أتخيّل هاذياً فى كل لحظة. وربما خسرتُ قضايا قليلة فى المحاكم بسبب الإهمال. كانت كاپيتو حانية نحوه ونحوى نحن الاثنين. كنّا نشبك أيدينا فى بعضها ، وعندما كنا لا نحملق فى ابننا ، كنّا نتحدّث عن نفسنا ، عن ماضينا ومستقبلنا. كانت الساعة الأعظم سحرا وإبهاما هى ساعة الرضاعة. عندما رأيتُ ابنى يرضع لبن أمه ، وكل وئام الطبيعة ذلك لتغذية وحياة مخلوق لم يكن من قبل شيئا ، لكن قدرنا أعلن أنه لابدّ أن يكون ، وجاء به إلى الوجود وفاؤنا وحبنا ، أحسستُ بشىء لا يمكننى التعبير

عنه ، ولن أحاوله ؛ والواقع أننى لا أذكر ، بأىّ قدر من اليقين ، وأخاف أن يكون أىّ شىء قد أقوله غامضا .

اعفنى من سرد التفاصيل الدقيقة. لا حاجة إلى أن أحكى عن تفانى أمى ، وتفانى سانشا ، اللتين جاءتا وقضتا الأيام والليالى القليلة الأولى مع كابيتو. حاولتُ أن أرفض العطف الكريم لسانشا . ردّتْ بأننى لا علاقة لى بهذا: كانت كابيتو، قبل أن تتزوج ، تأتى لرعايتها فى شارع إنفاليدوس.

« ألا تذكر ، أنتَ جئتَ هناك لتراها ؟ »

« أذكر؛ لكنْ إسكوبار ... »

« سآتى وأتغدّى معكم وأعود ليلا إلى أنداراىْ . أسبوع واحد ، وينتهى كلّ شىء. من السهل أن نرى أنك أصبحت أباً بغلطة واحدة فقط تُقيّد لحسابك ».

« وماذا عنك ؟ أين الثانية؟ »

هذه هى الطريقة التى اعتدنا أن نمزح بها فيما بيننا. واليوم ، منسحبا إلى داخل كازموروّيتى ، لا أدرى ما إذا كان هذا النوع من اللغة لا يزال موجودا ، لكنه ينبغى. إسكوبار فعل ما قال: سيتغدّى معنا ويعود إلى البيت ليلا. فى المساء تقريبا سننزل إلى الشاطىء أو إلى المنتزه العام – هو مستغرقا فى حساباته ، وأنا فى أحلامى. رأيتُ ابنى طبيبا ، محاميا ، رجل أعمال؛ ألحقتُه بجامعات وبنوك متباينة ، بل قبلتُ فرضية أن يكون شاعرا. وتمّ التشاور فى احتمالات السياسة وكنتُ مستعداً للاعتقاد أننى أنجبتُ خطيبا ، وخطيبا عظيما .

« قد يحدث » ، علّق إسكوبار ، « لم يكن بمستطاع أحد أن يتخيّل إلى أىّ ذُرًى سيرتفع ديموستين ».

كثيرا ما انحاز إسكوبار إلى أحلامى الطفولية ؛ هو أيضا كان

يستنطق المستقبل. كان هو الذى تكلّم عن إمكانية زواج الولد من ابنته. الصداقة موجودة حقا: كانت فى يدىّ وأنا أهزّ يدىْ إسكوبار عندما سمعتُه يقول هذا ، وكانت فى الافتقار التام إلى كلمات والذى وقّعتُ به المعاهدة على هذا النحو. جاءت الكلمات فى وقت لاحق ، مندفعة بعد أن هذّبها القلب ، الذى كان يدقّ بعنف. قبلتُ عرضه ... واقترحتُ أن نعمل من أجل هذه الغاية؛ بأن نربّيهما بنفس الطريقة ومعاً ، فى طفولة متآلفة ومثالية.

كانت فكرتى أنا أن يكون إسكوبار أب الطفل فى العماد؛ أم العماد كان ينبغى أن تكون وستكون أمى. لكن الجانب الأول من خطتى تغيّر من خلال تدخّل الخال كوزمه الذى قال للطفل ، عندما رآه ، ضمن كلمات تدليل أخرى:

« تعال ، خذ بركة من أبيك فى العماد ، أيها الوغد ». ثم مستديرا إلىّ ، « هذه منّةٌ لن أرفضها؛ وينبغى أن يتمّ التعميد بسرعة ، قبل أن يقضى علىّ المرض إلى الأبد ».

حكيتُ الحكاية بحذر لإسكوبار ، على أمل أن يفهم ويصفح. ضحك ولم يغضب. بل فعل أكثر ، طلب تناول إفطار التعميد بمنزله فى أنداراىْ – وكذلك كان. ظللتُ أؤجّل الاحتفال ، على أمل أن يستسلم الخال كوزمه لمرضه فى غضون ذلك ، لكن يبدو أن المرض كان مزعجا أكثر منه قاتلا. لم يكن هناك مناص من حمل الطفل إلى حوض التعميد ، حيث سُمِّىَ باسم حزقيال: كان من اختيار إسكوبار وتمنيتُ أن نعوّض بهذه الطريقة عن القرابة التى حُرمنا منها.

١٠٩- طفل وحيد

عندما بدأ الفصل السابق ، لم يكن حزقيال وُلد؛ وعندما انتهى كان مسيحيا وكاثوليكيا. وهذا الفصل مخصَّص لتربية حزقيال الغالى حتى الخامسة من عمره ، طفلا جميلا مليئا بالحيوية ، بعينيه الصافيتين القلقتين فى الواقع وكأنهما كانتا ترغبان فى مغازلة كلّ بنات الحى ، أو كلّهن تقريبا.

والآن ، إذا أنتَ أخذتَ فى اعتبارك أنه كان الطفل الوحيد ، وأنه لم يأتِ أىّ طفل آخر ، أكيد أو مشكوك فيه ، ميت أو حىّ ، كان واحدا ووحيدا ، يمكنك أن تتصور ألوان القلق التى سبّبها لنا ، والنوم الذى سرقه منا ، وألوان الذّعر التى أصابنا بها بالتّسنّين وبقية الأزمات ، بأدنى ارتفاع فى درجة الحرارة ، بكامل الحياة المألوفة للأطفال. مهما كان ما يحدث ، كنّا نطير للنجدة ، حسب الضرورة والإلحاح - الأمر الذى لا حاجة إلى التنويه به وإنْ كان هناك قُرّاء بُلهاء إلى حدّ أنهم لا يفهمون شيئا ما لم تَقُلْ لهم كل شىء - وما تمّ تأجيله. لننتقل إلى ما تمّ تأجيله.

١١٠- سمات الطفولة

ما تمّ تأجيله سيلتهم فصولا كثيرة أخرى. هناك حَيَوات تأخذ فصولا أقلّ ، ومع ذلك فهى كاملة ومنتهية.

فى الخامسة والسادسة من عمره ، بدا أن حزقيال لم يكذّب الأحلام التى كنتُ حلمتُها على الشاطىء فى جلوريا. على العكس ، لمحتُ فيه كافة المهن الممكنة من العواطلى إلى الرسول. العواطلى مستخدم هنا بالمعنى الجيّد. بمعنى شخص يفكر ويبقى صامتا؛ إنه ينسحب ، أحيانا ،

إلى داخل نفسه ، وكان بهذا يذكرنى بأمه منذ كانت صغيرة. ثم يغدو من جديد مهتاجا ويلحّ على إقناع البنات الجارات بأن الحلويات التى كنتُ أحملها له حلويات حقيقية. لم يكن يفعل ذلك قبل أن يكون حشا بطنه بها ، لكن الرُّسُل أيضا لا يحملون إلى الخارج الكلمة الطيبة قبل أن يكونوا ملأوا بها بكاملها قلبهم هم. كان من رأى إسكوبار ، رجل الأعمال الممتاز ، أن السبب الرئيسى وراء هذه النزعة ربما كانت الرغبة فى أن يدعو البنات الجارات ، بصورة ضمنية ، إلى رسالة مسيحية مماثلة عندما يحمل إليهن آباؤهن حلويات؛ وضحك من سخريته هو وأعلن أنه سيجعله شريكه عندما يكبر.

أحبَّ حزقيال الموسيقى حبًا لا يقل عن حُبّه للحلويات ، وطلبتُ من كاپيتو أن تنقر له بأصابعها على البيانو أغنية بائع **الكوكادا** (جوز الهند) المتجول الزنجى فى ماتاكاڤيّوس ...

« لا أذكرها ».

« لا تقولى هذا ! لا تذكرين ذلك الرجل الملوّن الذى كان يطوف لبيع الحلويات ، فى الأصائل ... »

« أذكر رجلا ملوّنا اعتاد أن يبيع الحلويات ، لكننى لا أتذكّر اللحن ».

« ولا الكلمات ؟ ».

« ولا الكلمات ».

سيدتى القارئة ، التى ستكون لا تزال تتذكّر الكلمات ، بافتراض أنها قرأتْنى بانتباه ، سيدهشها هذا النسيان ، قبل كل شىء لأن تلك الكلمات ستتذكّرها بأصوات طفولتها ومراهقتها هى؛ ربما كانت نسيتْ كلمة أو كلمتين ، لكن لا يبقى كل شىء فى رأس المرء. ذلك ما قالته كاپيتو فى ردّها ، وعجزتُ عن الردّ عليها. لكننى فعلتُ شيئا آخر لم تتوقّعه هى.

جريتُ إلى مجموعة أوراقى القديمة. عندماكنتُ طالبا فى سان باولو، كنتُ طلبتُ من مدرس موسيقى أن يدوّن لى لحن أغنية البائع المتجول تدوينا موسيقيا. كان سعيدا بأن يفعل هذا (كل ما كان علىّ أن أفعل هو أن أدندن له بها من الذاكرة) ، واحتفظتُ بقصاصة الورق الصغيرة. ذهبتُ أبحث عنها. فى غضون دقائق قليلة ، قاطعتُ أغنية راقصة كانت تعزفها بقطعة الورق الصغيرة. شرحتُ لها؛ وراجعتْ العلامات الموسيقية الستّ عشرة على البيانو.

كان للّحن نكهة خاصة ، وساحرة تقريبا ، بالنسبة لكاپيتو. روتْ لابنها قصة أغنية البائع المتجول ثم غنّتْها وعزفتْها مرارا وتكرارا. استغلّ حزقيال الموسيقى أحسن استغلال طالبا منّى أن أدحض النصّ فأعطيه بعض النقود.

كان ينهمك فى لعب أدوار الدكتور ، والجندى ، والممثل ، والراقص. لم أعطه خُطَباً أبدا؛ بل خيولا خشبية وسيفا كان يتدلّى إلى جانبه وكان يناسبه. لن أتكلّم عن الكتائب التى كانت تمرّ فى الشارع والتى كان يُسرع ليراها؛ كل الأطفال يفعلون ذلك. لكنْ ليس لكل الأطفال عيون كعينيه. لم أرَ فى طفل آخر الاهتياج الفرح الذى كان يراقب به عبور القوات ويسمع القرع على الطبول.

« انظرْ ، بابا ! انظرْ ! ».

« أنا أنظر ، يا بنىّ ! ».

« انظرْ إلى القائد ! انظرْ إلى حصان القائد ! انظرْ إلى الجنود ! ».

ذات يوم استيقظ وهو يعزف البوق بأصابعه على الهواء. أعطيتُه بوقا للّعب. أحضرتُ له جنودا من الرصاص ، صوَرا للمعارك كان ينحنى عليها ساعات بلا انقطاع ، طالبا منّى أن أشرح قطعة مدفعية ، أو جنديّا

ساقطا' ، أو جنديًا بسيفه مرفوعا ، وكان كل حُبِّه لذلك الذى بالسيف المرفوع. ذات يوم (يا له من عُمر برىء !) سألنى بتلهّف:

« لكن ، بابا ، لماذا لا يُنزل سيفه ويحسم به المعركة ».

« يا بنىّ ، لأنه مرسوم بالحفر ».

« لكن لماذا رسم نفسه ؟ ».

ضحكتُ للخطأ وأوضحتُ أن الجندى ليس هو الذى رسم نفسه على الورق ، بل الحفّار ، وكان علىّ أن أشرح أيضا ما هو الحفّار وما هو الحفر - حُبّ استطلاع كاپيتو ، باختصار.

تلك كانت السمات الرئيسية للطفولة. سمة أخرى ونُنهى الفصل. ذات يوم ، فى منزل إسكوبار ، فوجىء بقط بين أسنانه فأر. لم يُحرّر القط فريسته لكنه لم يعرف أيضا إلى أين يجرى. لم يُصدر حزقيال صوتا. عندما رأيناه هكذا ، كلّه انتباه وتركيز ، نادينا عليه وسألناه عما هناك. أشار إلينا إشارة لنلزم الهدوء. خمّن إسكوبار ، « أراهن أنه القط وقد اصطاد فأرا. لا أستطيع أن أتخلّص من الفئران فى هذا المكان؛ إنها الشيطان ذاته. سأرى ».

أرادت كاپيتو أيضا أن ترى ماذا كان الطفل يفعل. ذهبتُ معهما. فى الواقع ، كانت حادثة قط وفأر مألوفة ، لا أهمية لها أو سحر. كان الظرف الغريب الوحيد أن الفأر كان حياً ، يقاوم ، وابنى الصغير مسلوب العقل. لكن اللحظة كانت قصيرة. بمجرّد أن رأى القط أشخاصا أكثر ، تهيّأ للجرى. الطفل ، وعيناه مثبّتتان عليه ، أومأ إلينا مرة أخرى طالبا الصمت ، ولم يكن للصمت أن يكون أكبر. كنتُ أوشك أن أقول أنه كان دينيّا؛ شطبتُ الكلمة ، لكننى أكتبها هنا مرة أخرى ، ليس فقط لأعبّر عن شمول الصمت بل أيضا لأنه كان هناك فى سلوك القط والفأر شىء قريب إلى الطقس. كانت الأصوات الوحيدة هى الصّوْصوات الأخيرة للفأر ،

والتى كانت خافتة؛ كانت أرجله تتحرك بصعوبة ، وبضعف. مشمئزًا بعض الشىء ، صفقتُ بيدىّ لأجعل القط يفرّ هاربا . وفـرّ. لم يجد الآخران وقتا لإيقافى. وفزع حزقيال.

« أوه ، بابا ! ».

« انتهى ! الآن تمّ أكل الفأر ».

« نعم ، لكننى كنتُ أريد أن أراه ».

ضحك الآخران. أنا أيضا وجدتُ ذلك مضحكا.

١١١- مَرْوِىٌ بسرعة

وجدتُه مضحكا ، ولا أزال أجده كذلك ، رغم الزمن الذى مرّ ، والأحداث التى وقعتْ ، ونوع من التعاطف الذى أحسّ به نحو الفأر؛ كان ذلك مضحكا. لا يُشعرنى بأىّ ندم أن أقول هذا. وأولئك الذين يحبّون الطبيعة كما ينبغى لها أن تُحَبّ ، بلا جُحود مُغرض أو استثناءات ظالمة ، لا يجدون فيها أىّ شىء دنىء. أنا أحبّ الفأر؛ أنا لا أكره القط. بل تراودنى فكرة جعلهما يعيشان معا ؛ لكننى أدرك أنهما متنافران. والواقع أن أحدهما يقرض كتبى ، والآخر يقضم جبنى؛ لكن هذا شىء تافه أصفح عنهما عليه ؛ سبق لى أن صفحتُ عن كلب سلبنى الهدوء فى ظروف أسوأ. وسأروى الحادث بسرعة.

كان ذلك عندما وُلد حزقيال. كانت أمه محمومة ، وكانت سانشا تسهر عليها ، ونبحتْ ثلاثة كلاب فى الشارع طوال الليل. حاولتُ أن أجد الضابط فى طريقه المألوف وكان ذلك وكأننى كنت أحاول العثور على القارىء ، الذى لم يعرف بذلك إلاّ الآن فقط. عندئذ عقدتُ العزم على قتلها. اشتريتُ سمّا ، وأُعدّتْ لى ثلاث كرات من اللحم. وحشوتُ فيها

العقار بنفسى. خرجتُ إلى الليل. كانت الساعة الواحدة : لا المريضة ولا ممرّضتها استطاعت النوم بسبب الصخب المصمّ للكلاب. عندما رأتْنى الكلاب فرّتْ ؛ اثنان ذهبا فى اتجاه شاطىء فلامنجو، وبقى واحد على مسافة قصيرة ، كأنه ينتظر. اتّجهتُ إليه ، وأنا أصفّر وأفرقع أصابعى. كان الشيطان لا يزال ينبح ، لكنه واثقا فى إشارات صداقتى نبح أقلّ فأقلّ ، إلى أن توقّف تماما. عندما تقدمتُ ، أتى إلىّ ، ببطء ، يهزّ ذيله ، وهذه طريقة الكلب فى الابتسام. كنتُ أخرجتُ فعلا كُرات اللحم وكنتُ أوشك على إلقاء إحداها إليه ، عندما شلّتْ تلك الابتسامة الخاصة ، بادرة التحبُّب أو الثقة ، أو كائنا ما تكون ، إرادتى. وقفتُ هنالك ، وقد مسّتْنى الشفقة على نحو ما ، وأعدتُ كُرات اللحم إلى جيبى. ربما ظنّ القارىء أن رائحة اللحم هى التى هدّأتْ الكلب. وأنا لا أقول أنها لم تكن. وأعتقد أنه لم يكن راغبا فى أن يعزو الغدر إلى بادرتى ، ولهذا وضع نفسه بين يدىّ. وكانت النتيجة أنه مضى حرًا طليقا.

١١٢- حزقيال يقلّد الناس

لم يكن حزقيال ليفعل هذا. لم يكن ليعدّ كُرات اللحم المسمومة ، فيما أعتقد ، لكنه لم يكن ليرفضها كذلك. ما كان سيفعله ، دون شك ، هو أن يجرى وراء الكلاب بسيل من الحجارة إلى أقصى مسافة يمكن أن تحمله إليها ساقاه؛ وإنْ كانت لديه عصا كان سيستخدم العصا. وكانت كاپيتو يجنّ جنونها وهى ترقب هذا المحارب المنتظر.

« هو لا يُشبهنا ، نحن الذين نحبّ الهدوء » ، قالت لى ذات يوم ، « لكن بابا كان هكذا وهو صبى. هذا ما اعتادت ماما قوله لى ».

« نعم ، الولد ليس خوّافا » ، أجبتُ ، « ولم أجد فيه سوى عيب

واحد صغير: يحبّ أن يقلّد الناس ».

« يقلّد ؟ بأيّ طريقة ؟ ».

« يقلّد حركاتهم ، أساليبهم ، أوضاعهم. يقلّد ابنة العم چوستينا ، يقلّد چوزيه دياس؛ بل لاحظتُ أن له طريقة فى تحريك قدميه مثل إسكوبار ، والطريقة التى يستعمل بها عينيه ... »

نظرتْ إلىّ كاپيتو باهتمام شديد ، وأخيرا قالت أننا ينبغى أن نقوّمه. للمرة الأولى ، أدركتْ أنها عادة سيئة فى الولد ، لكن بدا لها أنه لم يكن سوى تقليد من أجل التقليد ، كما يفعل كثير من الأشخاص الذين يتبنّون أساليب الآخرين ؛ لكن حتى لا يذهب إلى حدّ أبعد ...

« لا ينبغى أن نجرح مشاعره أيضا. لا يزال هناك وقت لتقويمه ».

« نعم ، سأرى. لكن ألم تفعل ذلك أنتَ أيضا عندما كنتَ تغضب من شخص ما ».

« عندما كنتُ أغضب ، أعترف – انتقام الطفل ».

« نعم ، لكننى لا أحبّ تقليد الناس فى أسرتى ».

« وفى تلك الأيام أكنتِ تحبّيننى ؟ » سألتُ ، وأنا أربّت على خدّها .

كان ردّ كاپيتو ابتسامة ساخرة حلوة ، واحدة من تلك الابتسامات التى لا يمكن وصفها على الإطلاق ، ونادرا ما تُرسم. ثمّ مدّتْ ذراعيها وألقتْهما على كتفىّ؛ كانا مليئيْن رقّة إلى حدّ أنهما كانا يبدوان (صورة قديمة !) عقدا من الزهر. فعلتُ نفس الشىء بذراعىّ ، وأسفتُ على أنه لم يكن هناك نحّات بالقرب منا لينقل تلك الوقفة إلى الرخام. وحده الفنان كان سيحقّق المجد بذلك ، هذا أكيد. عندما يخرج تمثال حسنا أو مجموعة من التماثيل ، لا أحد يهتمّ بالموديل ، بل فقط بالعمل. العمل هو الذى يبقى. لا يهمّ ؛ سنعلم أننا الأصل.

١١٣- دعوى مطالب الطرف الثالث

الآن وأنا أتكلّم عن هذا ، ربما سألتنى ما إذا كنتُ ، أنا الذى كنتُ غيورا للغاية عليها ، لم أظلّ غيورا رغم الطفل ومرّ السنين. نعم ، يا سيدى ، ظللتُ - إلى حدّ أن أدنى بادرة عذّبتْنى ، كلمة عارضة ، الإلحاح على طلب بسيط؛ فى أحيان كثيرة ، كانت اللامبالاة وحدها كافية. غدوتُ غيورا من كل شىء وكل شخص، جار ، رفيق رقص فى الفالس ، أىّ رجل ، شاب أو عجوز ، ملأنى فزعا وارتيابا. لا شك فى أن كاپيتو كانت تحبّ أن تُرَى ، وأنسب وسيلة لتلك الغاية (أخبرتْنى سيدة ذات مرة) هى أن تَرَى أيضا ، ولا رؤية دون إظهار أننا نرى.

السيدة التى قالت لى هذا كانت ، فيما أعتقد ، مُولَعَة بى ، وربما لأنها لم تكتشف فىّ عاطفة متبادلة ، فسّرتْ بذلك جرأة عينيها. عيون أخرى أيضا بحثتْ عنّى ، غير كثيرة ، ولن أقول عنها شيئا؛ قديما ، اعترفتُ فى البداية أنه لابد أن تكون لى مغامرات فى المستقبل - لكنها كانت إلى ذلك الحين ، لا تزال فى المستقبل. فى تلك الأيام ، رغم كل النساء الجميلات اللائى قابلتُهن ، لم يكن لواحدة أن تحظى بأتفه جزء من الحبّ الذى كنتُ أكنّه لكاپيتو. ولم أحبّ أمى أنا نصف حبّى لها. كانت كاپيتو كلّ شىء وأكثر من كل شىء؛ لم ألتقط نَفَسا ، حتى وأنا أعمل ، دون أن أفكّر فيها. كنّا نذهب إلى المسرح ، أذكر مرتين فقط ذهبت فيهما بدونها ، حفلة تمثيلية خيرية وأوّل عرض لأوبرا ، لم تحضره لأنها أحسّت بأنها مريضة ، رغم أنها ألحّتْ على ذهابى. كان أوان إرسال التذاكر إلى إسكوبار فات. ذهبتُ ، لكننى عدتُ إلى البيت بعد نهاية الفصل الأول. وجدتُ إسكوبار على الباب الأمامى.

« أردتُ أن أتحدّث معك » ، قال.

شرحتُ له أننى كنتُ ذهبتُ إلى المسرح لكننى عدتُ لأننى قلقتُ على كاپيتو التى كانت أحسّت بأنها مريضة.

« مريضة بماذا ؟ » سأل إسكوبار.

« كانت تشكو من رأسها ومعدتها ».

« سأنصرف إذن. جئتُ بشأن موضوع المطالب ».

كانت دعوى مطالب طرف ثالث. شىء ما هام كان ظهر ، ولأنه تغدّى فى المدينة لم يشأ أن يعود إلى بيته دون أن يخبرنى به ، لكنه الآن سيخبرنى فى وقت آخر.

« لا ، لِنتحادثْ عنها. هيّا نصعد. ربما كانت الآن أفضل. إذا كانت أسوأ ، يمكنك أن تنصرف ».

كانت كابيتو أفضل بل كانت تحسّ أنها ممتازة. اعترفتْ لى بأنها لم تكن تعانى إلاّ من صداع خفيف ، لكنها بالغتْ فى ألمها حتّى أخرج وأستمتع. لم تتكلّم بابتهاج ، الأمر الذى جعلنى أرتاب فى أنها تكذب حتى لا تزعجنى ، لكنها حلفتْ أن ذلك صحيح تماما. ابتسم إسكوبار وقال:

« أخت زوجتى الصغيرة مريضة مثلك أو مثلى. لِنعدْ إلى مطالبنا ».

١١٤- وفيه يتمّ شرح ما تمّ شرحه

قبل أن نعود إلى المطالب ، دعنا نشرح نقطة سبق فعلا شرحها ، وإنْ لم يكن شرحا كاملا. سبق لك أن رأيتَ كيف أننى طلبتُ (الفصل ١١٠) من مدرّس موسيقى فى سان باولو أن يُدوّن لى لحن أغنية بائع ماتاكاڤايّوس المتجوّل. المسألة بسيطة فى حد ذاتها ولا تستحق فصلا ، ناهيك بفصليْن. لكن هناك مسائل كهذه تقدّم دروسا مشوّقة ، إن لم تكن مقبولة. لتشرحْ ما تمّ شرحه.

أقسمنا كاپيتو وأنا ألاّ ننسى أبدا أغنية البائع المتجوّل تلك. كان ذلك فى لحظة حبّ شديد. الكاتب الإلهى يعرف الأشياء التى يتمّ القَسَم عليها فى لحظات كتلك – هو الذى يسجّلها فى الكتب الأبدية ».

« هل تُقسمين ؟ ».

« أقسم على ذلك » ، قالت ، وهى تمدّ ذراعها على نحو فاجع.

استغللتُ البادرة أفضل استغلال بتقبيل يدها؛ كنتُ لا أزال فى المعهد الدينى. عندما ذهبتُ إلى سان باولو وحاولتُ أن أتذكرّ اللحن ذات يوم ، وجدتُ أننى كنتُ بدأتُ أنساه تماما. نجحتُ فى تذكرّه وأسرعتُ إلى المدرّس ، الذى تكرّم بتدوينه على قصاصة من الورق. فعلتُ هذا حتى لا أخون قَسَمى. لكن هل ستصدّقنى إذا قلتُ أننى ، عندما أسرعتُ إلى أوراقى القديمة ، فى تلك الليلة فى جلوريا ، كنتُ لم أعد أتذكرّ أنا أيضا اللحن ولا النصّ ؟ تظاهرتُ بأننى مخلص لقَسَمى ، وكانت تلك خطيئتى. انْسَ ! أىّ إنسان ينسى.

حقا ، لا يعرف أحد بصورة محدّدة ما إذا كان سيفى أم لا بقَسَم. ذلك متروك للمستقبل ! لهذا السبب يُعَدّ دستورنا السياسى ، فى إحلاله مجرّد التأكيد محل القَسَم ، أخلاقيًا على نحو عميق. لقد وضع حدًا لخطيئة رهيبة. أنْ ينقض المرء عهده يظلّ عملا غير مخلص ، لكن أىّ شخص يخاف الرب أكثر من الناس ، لا يجد بأسا فى الكذب نادرا ، مدركا أن ذلك لن يضع روحه فى المطهر. لا تخلط بين المطهر والجحيم ، الذى هو هلاك أبدىّ. المطهر مكتب رهنيات يُقرض على كافة الفضائل ، مقابل فائدة مرتفعة وأجل قصير. لكن الأجل يمكن تجديده إلى أن تعوّض فضيلة متوسطة الأهمية أو فضيلتان ، ذات يوم ، عن كافة خطايا المرء الكبيرة والصغيرة.

١١٥- شكوك فوق شكوك

لنَعُدْ الآن إلى المطالب ... ولماذا ينبغى أن نعود إلى المطالب ؟ يعلم الله كم هو مزعج أن تُرفع بها دعوى ، ناهيك بروايتها. فيما يتعلّق بالظرف الجديد الذى جاء إسكوبار بنبأ عنه ، لن أقول ما قلتُه له فى حينه: هو لا يساوى شيئا.

« لا شىء ؟ ».

« لا شىء تقريبا ».

« إذن يساوى شيئا ».

« كشىء يعزّز موقفنا ، يساوى أقلّ من الشاى الذى ستشربه الآن معى ».

« الوقت متأخر جدا على الشاى ».

« سنشربه بسرعة ».

شربناه بسرعة. فى غضون ذلك نظر إلىّ إسكوبار بارتياب ، وكأنه اعتقد أننى رفضتُ المطلب الإضافى بقصد التهرّب من إحالته إلى القضاء ؛ لكن هذا الارتياب كان يتعارض مع صداقتنا.

عندما انصرف ، ذكرتُ هذه الشكوك لكابيتو. بدّدتْها تماما بذلك الفن البارع الذى امتلكتْه: لباقة ، كياسة هى سيدتها ، قادرة على تبديد أحزان أوليمبيو*.

« لابدّ أنه موضوع دعوى المطالب » ، أنهتْ حديثها ، « وإذا كان جاء قاطعا كل هذا الطريق إلى هنا فى هذه الساعة ، فهذا يعنى أنه متأثّر بشدّة بالقضية ».

---

* أوليمبيو: اسم شعرى لفيكتور هيجو فى قصائده « حزن أوليمبيو » Tristesse d'Olympio – المترجم.

« أنت على حقّ ».

أفضتُ كلمةً إلى أخرى ، وتكلّمتُ أنا عن شكوك أخرى. كنتُ ينبوعا من الشكوك ؛ كانت تنقّ داخلى مثل ضفادع حقيقية ، إلى أن سرقتْ نومى أحيانا. قلتُ لها أننى بدأتُ أعتبر أمى فاترة وغير ودودة إزاءها بعض الشىء. لكن الفن البارع لكاپيتو كان ندًّا لهذا أيضا.

« سبق أن قلتُ لك ما السبب: أسلوب الحماة. أمك الصغيرة غيورة، بمجرّد أن تُزايلها الغيرة ويُعاودها الاشتياق ، ستعود كما كانت. عندما تفتقد حفيدها... »

« لكننى لاحظتُ أنها فاترة مع حزقيال أيضا. عندما أُحضره لرؤيتها ، لا تلقاه بنفس التلهّف الذى كانت تلقاه به من قبل » ،

« مَنْ يدرى ، ربما لم تكن على ما يرام ».

« هل سنتغدّى معها غدا ؟ ».

« لنفعلْ ... لا ... نعم ، لنفعلْ ».

تغدّينا مع أمى العجوز. كان بإمكانك أن تصفها بذلك فى ذلك الحين ، رغم أن خصلات شعرها لم تكن كلها بيضاء ولا بيضاء تماما ، وكان وجهها ناضرا بعض الشىء: كان نوعا من شباب الخمسين أو القدَم المترَف ، اخترْ ما شئت ... لكن لا سوداويّة إطلاقا ! لن أشير إلى اغروراق عينيها عندما أتينا وعندما انصرفنا. لم يكن لديها ما تقول، ومع ذلك لم تكن مختلفة عن المعتاد. تكلّم چوزيه دياس عن الزواج ومحاسنه ، عن السياسة ، عن أوروبا وعن الهوميوباثيا ؛ والخال كوزمه عن أوجاعه وآلامه ؛ وابنة العم چوستينا عن الجيران ، أو عن چوزيه دياس عندما كان خارج الحجـرة.

عندما انصرفنا عائدين إلى البيت ، وكان الليل حلّ ، سرنا على الأقدام ، ونحن نناقش شكوكى. مرة أخرى نصحتْ كاپيتو بأن نصبر. كلّ

الحموات يبدأن كذلك؛ ثم يأتى يوم ويتغيّرن. بينما كانت تتكلم ، ازدادت رقتها من جديد. منذ ذلك الوقت فصاعدا ازدادت لطفا معى. لم تنتظرنى على النافذة ، حتى لا تثير غيرتى ، لكن عندما كنتُ أضع قدمى على الدَّرَج ، هناك فى أعلى السلَّم ، عبْر الحاجز الحديدى للبوابة ، كنتُ أرى الوجه الجميل لعروسى الحبيبة ، مبتسما مثلما كانت طفولتنا بأسرها. كان حزقيال ينتظر معها أحيانا. كنّا عوّدناه على رؤية قبلة صباحنا وقبلة مسائنا ، وكان يغطى وجهى بقبلاته الصغيرة.

١١٦- ابن الإنســان

استطلعتُ رأى جوزيه دياس فى تغيُّر سلوك أمى. اندهش. لم يكن هناك أىّ شىء ، لم يكن من الممكن أن يكون هناك أىّ شىء - وإلاّ لما ظلّ يسمع كل هذا المديح الذى لا ينقطع « لكابيتو الجميلة والفاضلة ».

« الآن ، عندما أسمع هذا ، أنضمّ أنا أيضا إلى الجوقة ؛ لكننى كنتُ فى البداية الأكثر مهانة. بالنسبة لشخص ، مثلى ، رفض من قبلُ أن يقبل بهذا الزواج ، كان من الصعوبة بمكان أن أقرّ بأنها كانت نعمة حقيقية من السماء. يا لها من سيدة فاضلة هذه التى صارت إليها تلك الطفلة العابثة من ماتاكاڤايّوس ! كان أبوها هو الذى فرّق بيننا لبعض الوقت ، قبل أن نعرف بعضنا ، لكن كل شىء انتهى إلى ما يرام. صحيح حقا ، عندما تمتدح دوناجلوريا زوجة ابنها وأختها ... »

« ماما ؟ ».

« أىْ نعم ! ».

« لكن لماذا لم تزرنا كل هذا الوقت ؟ ».

« أعتقد أنها تتألم من الروماتيزم فى الآونة الأخيرة. كانت هذه

السنة باردة جدا ... فكّر فقط فى مدى بؤسها - هى التى اعتادت أن تذهب وتجىء طوال اليوم ، والتى تجد نفسها الآن مُجبرة على أن تبقى هادئة ، إلى جانب أخيها الذى له بلواه أيضا ... »

أردتُ أن ألاحظ أن هذا السبب يفسّر انقطاع الزيارات ، وليس الفتور عندما نذهب إلى ماتاكاڤايّوس؛ لكننى لم أدفع ألفتى مع تابعنا إلى ذلك المدى. طلب چوزيه دياس أن يرى « نبيّنا الصغير » (هكذا كان يسمى حزقيال) واهتمّ به اهتماما شديدا كالمعتاد. تكلم هذه المرة بأسلوب الكتاب المقدّس (كان تصفّح سفر حزقيال فى الليلة السابقة كما علمت فى وقت لاحق) ، وظلّ يسأله ، « كيف الحال ، يا ابن الإنسان ؟ » « قُلْ لى ، يا ابن الإنسان ، أين لُعَبك ؟ » « تُريد حلوى ، يا ابن الإنسان ؟ ».

« ما حكاية ابن الإنسان هذه ؟ » سألتْ كاپيتو بحدّة.

« هى طريقة الكلام فى الكتاب المقدّس ».

« حسنا ، أنا لا أحبّها » ، ردّتْ.

« أنتِ على حقّ » ، وافق التابع. « أنت لا تتصورين كم يمتلىء الكتاب المقدّس بالتعبيرات الفظّة وغير المهذّبة. كنتُ أتكلم بتلك الطريقة من باب التغيير ... كيف حالك ، يا ملاكى الصغير ؟ يا ملاكى ، كيف أمشى أنا فى الشارع؟ ».

« لا » ، قاطعتْ كاپيتو ، « أنا أحاول حمله على الإقلاع عن عادة تقليد الناس هذه ».

« لكنه مسلٍّ جداً؛ عندما يُحاكى حركاتى ، يبدو وكأنه أنا نفسى بحجم مصغّر. فى يوم من الأيام حدث أن قلّد إحدى حركات دونا جلوريا بكل إتقان إلى حدّ أنها أعطته قبلة مقابل ذلك. تعالَ ، كيف أمشى ؟ ».

« لا ، يا حزقيال » ، قلتُ أنا ، « ماما قالت < لا > ».

أنا أيضا كنتُ أجدها عادة غير سارّة. بعض الحركات كانت

تتحول إلى عادات له ، مثل حركات يدىْ وقدمىْ إسكوبار تلك. ومنذ عهد قريب كان التقــط حتى نفس طريقـة إدارة رأسه عندمـا كــان يتحـدّث ، وطريقة جعله يسقط عندما كان يضحك. كاپيتو وبّختْ. لكن الطفل كان عابثًا كالشيطان ؛ ولم نكدْ نبدأ الحديث فى شىء آخر ، حتى قفز إلى وسط الحجرة ، وهو يصيح بچوزيه دياس:

« أنتَ تمشى هكذا ، يا سنيور ».

لم نتمالك أنفسنا من الضحك ، وأنا أكثر من الجميع. وكان أول شخص توقف عن الضحك ، ووبّخه ، واستدعاه إليه ، هو كاپيتو.

« لن أسمح بذلك ، هل تسمع؟ ».

١١٧- أصدقاء وجـيران

فى تلك الفترة كان إسكوبار غادر أنداراىْ فعلا واشترى بيتا فى فلامنجو ، وهو بيت رأيتُه لا يزال هناك ، منذ أيام قليلة ، عندما أحسستُ بدافع إلى أن أختبر ما إذا كانت الأحاسيس القديمة ماتت أو أنها نائمة لا غير. لا يمكننى أن أعرف تماما لأن النوم ، عندما يكون ثقيلا ، يمزج الحى مع الميت ، فيما عدا أن الحى يتنفّس. كنتُ أتنفسّ ، لكنْ (ربما بسبب البحر) بشىء من الصعوبة. أخيـرا واصلـتُ السير ، وأشعلـتُ سيجـارًا ، ووجدتُ نفسى فى كاتّيته ؛ كنتُ وصلتُ إلى شارع پرنسيزا ، وهو شارع قديم ... أيتها الشوارع القديمة ! أيتها البيوت القديمة ! أيتها الأرجُل القديمة ! كنّا كلنا قدماء ، ولا حاجة إلى أن أقول ، بأسوأ معنى؛ أىْ – قدماء وانتهى أمرنا.

رغم أن البيت قديم ، لا شىء تغيّر. لا أعرف إلاّ أنه لا يزال يحمل نفس الرقم. لن أقول ما هو الرقم ما دمتُ لا أريدك أن تذهب إلى هنـاك

وتستكشف القصة. ليس معنى ذلك أن إسكوبار لا يزال يحيا هناك ، أو حتى يحيا. مات بعد ذلك بوقت قصير ، بطريقة سأصفها. عندما كان لايزال حيا ، كان لنا ، لأننا كنا قريبين جدا ، بيت واحد ، إن جاز القول: عشتُ فى بيته وهو فى بيتى ، وكان شريط الشاطىء بين جلوريا وفلامنجو أشبه بحقٍّ خصوصى فى الطريق. جعلنى ذلك أفكّر فى بَيْتَىْ ماتاكاڤايّوس ، بحائط بينهما.

مؤرّخ ، كان يكتب بلغتنا ، أعتقد أنه چوان ده باروّس ، يضع فى فم ملك بربرى ما كلمات نبيلة ، نُطق بها فى وقت كان البرتغاليون يعتزمون فيه إقامة حصن مجاور. قال الملك أن الأصدقاء الجيّدين ينبغى أن يظلّوا متباعدين ، لا قريبين ، حتى لا يثوروا ضدّ بعضهم ، مثل مياه البحر التى كانت تتكسّر بعنف على الجرف الصخرى الذى كان يُرَى من حيث كانوا. لِيصفحْ عنّى طيف الكاتب المتوفّى إذا ارتبتُ فى أن الملك قال أىّ شىء من هذا القبيل ، أو حتى صدّق هذا القول. من المحتمل أن الكاتب نفسه اخترع هذا الكلام ليزيّن به نصّه ، وكان محقّا تماما ، لأنه كلام جميل ، حقّا جميل. وأنا أعتقد أن البحر كان يتكسّر فعلا على الصخور ، كما كانت عادته ، منذ يوليسيس وحتى قبله. لكن فيما يتعلق بصدق المقارنة ، لا ، أنا لا أعتقد ذلك. طبعا هناك أعداء متجاورون ، لكن هناك أيضا أصدقاء ، قريبون فى المكان وكذلك فى قلوب كل منهم الآخر. نسى الكاتب (إلاّ ، بالطبع ، إنْ كان أتى بعده) المثل القائل ، « البعيد عن العين ، بعيد عن القلب ». لم يكن لقلوبنا أن تكون أقرب إلى بعضها مما كانت. عاشت زوجتانا ، كل واحدة فى بيت الأخرى. كنّا نقضى أمسياتنا هنا أو هناك ، نتحادث ، أو نلعب الورق ، أو نحملق فى البحر. وكان الصغيران يقضيان نهارهما ، تارة فى فلامنجو، وتارة فى جلوريا.

عندما حدث أن قلتُ أن ما جرى بين كاپيتو وبينى قد يجرى أيضا

بينهما ، كان الآخرون جميعا يعتقدون ذلك أيضا ، وأضافت سانشا أنهما كانا يتزايدان تشابُهاً أيضا . فَسّرتُ:

« لا ، ذلك لأن حزقيال يقلّد حركات الآخرين ».

وافقنى إسكوبار ، وأشار إلى أن الأطفال الذين يكونون معا دائما ينتهون أحيانا إلى أن يتشابهوا . أومأتُ موافقا ، كما كنت أفعل عادة فى الأمور التى لا رأى لى فيها بطريقة أو أخرى. كان أىّ شىء ممكنا . كانا دون شك يُحبّان بعضهما للغاية ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر إلى الزواج ، لكنه لم ينته إلى الزواج.

١١٨- يدُ سانشــا

كل شىء يصل إلى نهاية ، أيها القارىء. إنها بديهية قديمة يمكن أن يُضاف إليها أنه ليس كل شىء يدوم ، يدوم طويلا. هذا الجانب الأخير لا يتمّ التسليم به بسهولة ؛ على العكس من ذلك فإن فكرة أن قصراً من الهواء يدوم أطول من ذات الهواء الذى بُنى منه من الصعب انتزاعها من رأس شخص ، وهذا من حُسْن الحظ ؛ وإلاّ فربما فُقدتْ عادة إقامة تلك المبانى الخالدة تقريبــا .

كان قصرنا صلبا ، لكن فى أحد الآحاد ... فى الليلة السابقة ، كنّا قضينا المساء فى فلامنجو ، ليس فقط الأسرتان الحميمتان اللـتان لا تنفصلان ، بل أيضا التابع وابنة العم چوستينا . فى تلك الليلة ، بينما وقفنا نتحادث عند النافذة ، قال لى إسكوبار أننا ينبغى أن نعود ونتغدّى هناك فى اليوم التالى؛ وأن من الضرورى أن نناقش مشروعا عائليا ، مشروعا من أجلنا نحن الأربعة.

« من أجلنا نحن الأربعة ؟ رقصة كادريل ؟ ».

« لا . لن تخمّن أبدا ما هو، وأنا لن أقول لك. تعالوا غدا ».

لم تتركنا عينا سانشا أثناء حديثنا عند تجويف النافذة. عندما ابتعد زوجها ، أتتْ إلىّ. سألتْنى عمّ كنّا نتحدّث. قلتُ لها ، « حول مشروع من أجل شىء ما لكننى لا أعرف ما هو ». طلبتْ منى ألاّ أقول شيئا ، ثم أفضتْ إلىّ بالموضـوع: رحلـة إلـى أوروبـا بـعد سنتين. قـالت لـى هذا وظهرها إلى الحجرة ، بتلهّف تقريبا. كانت الأمواج تتكسّر بعنف على طول الساحل؛ ثم تنحسر بفعل التيار تحت سطح البحر.

« نسافر كلّنا ؟ » سألتُ أخيرا.

« نعم ، كلّنا ».

رفعتْ سانشا رأسها ونظرتْ إلىّ بفرح شديد إلى حدّ أننى وددتُ ، لأنها كانت الصديقة الحميمة لكاپيتو ، لو قبّلتُها على جبينها. غير أن عينىْ سانشا لم تكونا تطلبان صراحة أخوية - كانتا تبدوان مثيرتيْن وملحّتيْن ، كانتا تقولان شيئا ما مختلفا تماما ، وسرعان ما تحركتْ مبتعدة عن النافذة ، حيث بقيتُ أنا أنظر متأمّلا نحو البحر. وكان الليل صافيا.

من زاويتى ، فتّشتُ عن عينىْ سانشا ، قُرْبَ البيانو: التقتْ عيناى بعينيها فى الطريق. ظلّتْ عيوننا واقفة ، وظلّتْ تُواجه بعضها ، زوج منها ينتظر الزوج الآخر ليمرّ ، لكن لم يمرّ أىّ منهما ، تماما كما يحدث على ممرّ ضيّق عندما يتلاقى مسافران عنيدان. احتفظ الحذر بنا متباعديْن ؛ وعُدتُ أنا إلى المشهد فيما وراء النافذة. بدأتُ أحفر فى أعماق ذاكرتى. هل حدث فى يوم ما أن نظرتُ إليها بتعبير كهذا ؟ لم أكن واثقا. كنتُ واثقا فى شىء واحد فقط ، فى أننى ذات يوم فكرتُ فيها كما يفكر المرء فى مجهولة جميلة تمرّ؛ لكن لِنفترضْ أنها خمّنتْ ... ربما تجلّتْ مجرّد الفكرة من خلالى ، فتحاشتْنى عندئذ ، مغتاظة أو خجلانة ، والآن إلحاح

لا يُقاوَم ... لا يُقاوَم: كانت هذه الكلمة أشبه بالبَرَكة التي يمنحها الكاهن في قدّاس ، والتي يتلقّاها ويردّدها كلّ شخص في سرّه.

« غدا ، سيكون البحر تحدّياً » ، كان ذلك صوت إسكوبار ، الذي كان يقف إلى جانبي.

« تنوي أن تسبح في ذلك البحر غدا ؟ ».

« نزلتُ البحر فيما هو أسوأ ، أسوأ كثيرا. لا يمكنك أن تتصوّر كيف يكون بحر متوحّش للغاية. لابد للمرء أن يسبح جيدا ، كما أسبح أنا ، وأن تكون لديه هاتان الرئتان » ، قال وهو يدقّ على صدره ، « وهذان الذراعان. جُسُّهما ».

جَسستُهما ، وكأنني أجُسّ ذراعيْ سانشا. يؤلمني أن أُدلي بهذا الاعتراف ، لكنني لا أستطيع أن أكتمه ؛ ذلك سيعني تشويش الحقيقة. لم تكن لديّ هذه الفكرة وحدها - بل أيضا ، وأنا أجُسّ ذراعيه ، وجدتُهما أغلظ وأقوى من ذراعيّ أنا ، وحسدتُهما؛ إلى جانب أنهما كانا قادرين على أن يسبحا.

بينما كنّا ننصرف ، تكلّمتْ عيناي مرة أخرى مع سيّدة البيت. يدها ضغطتْ على يدي ، وتريّثتْ هناك أطول من المعتاد.

كان التواضع يقتضي آنذاك ، كما يقتضي الآن ، أن أرى في بادرة سانشا استحسانا لمشروع زوجها وسعادة به. لابدّ أنها كانت كذلك ، لكن تيارا غريبا مرّ عبر كل جسدي أرغمني على رفض هذا الاستنتاج الذي كتبتُه لتوّي. ولا أزال أحسّ بأصابع سانشا تضغط على أصابعي ، وبأصابعي على أصابعها. كانت لحظة من الجنون والخطيئة. مررتُ بسرعة ، وعندما أدنيتُ ساعة العمر والحياة من أُذُني ، لم أسمع سوى دقائق الفضيلة والرُّشد تُتكتك مبتعدة.

« ... سيّدة جميلة جدا » ، كانت الكلمات الختامية في الخطبة التي

كان يُلقيها چوزيه دياس.

« جميلة جدا ! » كرَّرتُ بعاطفة ، ثم خفَّفتُ فى الحال ، وصحَّحتُ نفسى: « حقًا ، أمسية جميلة ! ».

« كمـا ينبغى لكل أمسيـات ذلك البيت أن تكون » ، واصل التابع.

« فى الخارج هنا ، لا ؛ فى الخارج هنا البحر غاضب. أصْغِ ».

سمعنا هدير البحر - كما سمعناه من البيت - وكان انحسار التيار السفلى قويًا ، وعلى مبعدة كان بوسعنا أن نرى الأمواج تثور فى ارتفاعات ضخمة. كاپيتو وابنة العم چوستينا ، اللتان سارتا أمامنا ، انتظرتانا عند أحد منعطفات الساحل ، وواصلنا السير معا نحن الأربعة ، ونحن نتحادث. لكننى لم أكن فى حالة ملائمة للحديث. لم يكن هناك نسيان ليد سانشا ، ولا للنظرات التى كنا تقايضناها. تارة أقرأ فيها شيئا ، وتارة أخرى شيئا آخر. كانت ثوانى الشيطان قد أُقحمتْ فى دقائق الله ، وهكــذا كانــت الساعــة تشير علــى التناوب إلى هلاكــى وخلاصى. چوزيه دياس استودعنا الله على بابنا. وكانت ابنة العم چوستينا ستقضى الليلة معنا وترحل فى اليوم التالى بعد الإفطـــار والقدّاس. انسحبتُ إلى حجرة مكتبتى ، حيثُ بقيتُ أطول من المعتاد.

صورة إسكوبـار ، التى احتفظتُ بها هناك ، إلى جانب صورة أمى ، كلّمتْنى وكأنها هو **بلحمه وشحمه**. كافحتُ بإخلاص ضدّ النزوات التى جئتُ بها معى من فلامنجو ؛ وطرحتُ بعيدا عنّى طيف زوجة صديقى ، ووصفتُ نفسى بالغدر. فضلا عن ذلك ، من ذا الذى يمكن أن يقول أنه كانت هناك نية من هذا النوع فى بادرة وداعها وفى البوادر السابقة ؟ كان من الممكن إرجاعها جميعا إلى اهتمامها برحلتنا. كانت سانشا وكاپيتو صديقيتين حميمتين بحيث يكون سفرهما معا سعادة مُضافة بالنسبة إليهما. حتى إذا كان هناك غرض جنسى ما ، كيف

يمكنني أن أكون واثقا من أنه كان شيئا أكثر بأىّ حال من لحظة حسيّة خاطفة ، محكوم عليها بأن تموت مع الليل والنوم ؟ هناك وخزات ندم تنشأ من خطيئة ليست أكبر وذات أمد ليس أطول. تشبّثتُ بشدّة بهذا الافتراض ، وبهذا عقدتُ سلاما مع يد سانشا ، التى أحسستُ بها من الذاكرة بين يدى ، دافئة ومتريّثة ، مشبوكة وشابكة...

بكل إخلاص ، كنتُ غير مرتاح ، واقعا فى فخّ بين صديق وغواية. ربما كان للجبن أيضا صلة بالأزمة. نحن لا ندين للسماء وحدها بفضائلنا ، بل للجبن أيضا – وناهيك بالحظّ – لكن الحظّ مصادفة خالصة ؛ وأفضل ينبوع للفضيلة هو السماء. مع ذلك ، مادام الجبن يأتى من السماء ، والسماء تمنحنا طبيعتنا الخلقية ، فالفضيلة التى هى ابنة الجبن هى ، إنْ تكلّمنا من ناحية الأنساب ، من نفس السلالة السماوية. تلك هى الطريقة التى كنت سأفكر بها ، لو استطعتُ ؛ لكننى فى البداية كنتُ أهذى دون تفكير. لم يكن الهوى أو الحب. أكان النزوة أم ماذا ؟ بعد عشرين دقيقة كان لا شىء ، لا شىء مطلقا. صورة إسكوبار بدا أنها تكلّمنى ؛ رأيتُ سلوكه الصريح والبسيط ، وهززْتُ رأسى ، وخرجتُ لأذهب إلى الفراش.

١١٩- لا تفعلى ذلك ، يا عزيزتى !

السيّدة القارئة ، التى هى صديقتى والتى فتحتْ هذا الكتاب بفكرة الاستجمام بين كاڤاتينا الأمس وڤالس اليوم ، ستودّ أن تغلقه مُسرعة إذْ تُدرك الآن أننا نحوم حول هاوية ... لا تفعلى ذلك يا عزيزتى؛ سأنعطف.

١٢٠- أوراق قانونيــة

استيقظتُ فى اليوم التالى متخلّصا من فظائع الليل. اعتبرتُها هلوسات ، وشربتُ القهوة ، وتصفحّتُ الصُّحُف ، وبدأتُ أدرس بعض الأوراق القانونية - إحدى قضاياى. انصرفتْ كاپيتو وابنة العم چوستينا إلى قدّاس الساعة التاسعة فى لاپا. اختفى طيف سانشا تماما وسط دعاوى الطرف المضادّ ، التى كنتُ أطّلع عليها فى الوثائق ، وكانت دعاوى زائفة ، غير مقبولة ، بلا سند من القانون أو العرف. ورأيتُ أنه سيكون من السهل كسب القضية ؛ وراجعتُ دايّوس ، پيريرا إه سوزا ...

مرة واحدة فقط تطلّعتُ بسرعة إلى صورة إسكوبار. كانت صورة فوتوغرافية جميلة ، التُقطتْ فى السنة السابقة. كان واقفا مُزرّر الردنجوت ، يده اليسرى على ظهر كرسى ، واليد اليمنى على صدره ، يحدّق بعيدا إلى يسار المُشاهد. كانت ذات أناقة وبساطة. الإطار كنتُ اضطررتُ إلى طلب أن يُصنع بحيث لا يغطّى الإهداء الذى كان مكتوبا فى الأسفل ، وليس على الظهر: « إلى عزيزى بنتينيو - المخلص له إسكوبار ٢٠-٤-٧٠ ». هذه الكلمات عزّزتْ أفكارى فى ذلك الصباح وصدّتْ ذكريات المساء السابق. فى تلك الأيام كان نظرى جيدا ؛ كان بإمكانى أن أقرأ الإهداء من حيث كنتُ جالسا. وعُدْتُ إلى أوراقى القانونية.

١٢١- الكارثـــة

وأنا منهمك فـى ذلك سمعتُ وقـع أقدام عجلـى علـى السلالـــم ، والجرس يدقّ ، ثم شخصا ما يصفّق بيديه ، وطرقا على البوابة ذات الحاجز الحديدى - أصوات ، والكل يُسرعون للردّ. كان عبداً من بيت سانشا استدعاني:

« للذهاب هناك ... السنيور يسبح ، السنيور يموت ».

ذلك كل ما قال ، أو أننى لم أسمع الباقى. لبستُ ، وتركتُ رسالة لكاپيتو ، وأسرعتُ إلى فلامنجو.

وأنا أجرى ، حدستُ الحقيقة. كان إسكوبار ذهب من أجل سباحته المعتادة ، وغامر إلى مدى أبعد من المعتاد رغم الأمواج الثائرة ، فغلبته الأمواج وغرق. وعجزتْ قوارب الإنقاذ عن أن تقوم بأكثر من العودة بجثّته.

١٢٢- الجنـــازة

الأرملة ... سأعفيك من دموع الأرملة ، ودموعى ، ودموع الآخرين. انصرفتُ حوالى الحادية عشرة. كانت كاپيتو وابنة العم چوستينا فى انتظارى ، الأولى بنظرة كئيبة بليدة ، والأخرى أكثر قليلا من أن تكون منزعجة.

« اذهبى لتكونى بصحبة سانشينيا. سأرتّب للجنازة ».

كان ذلك ما فعلناه. قرّرتُ أنا أن تكون الجنازة ذات أبهة ومهابة. كان هنـاك عدد ضخم من الحاضرين من أصدقائه - الشاطىء ، الشوارع ، ميدان جلوريا ، كانت كلها تغصّ بالعربات ، كثير منها خاصّة.

لأن البيت لم يكن واسعا ، لم يتّسع للجميع ؛ وقف كثيرون على الشاطىء يتناقشون الحادث ، يُشيرون إلى المكان الذى لقى فيه إسكوبار حتفه ، يُصغون إلى حكاية كيف تمّ المجىء بالجثة. كما سمعهم چوزيه دياس يتكلمون عن الشئون التجارية للراحل ، ويُدلون بآراء مختلفة حول قيمة ضيعته ، رغم اتفاقهم على أن ديونه قليلة. امتدحوا امتياز شخصية إسكوبار. ناقش شخص أو شخصان المجلس الاستشارى الجديد لولاية ريوبرانكو: كان ذلك فى مارس ١٨٧١. لم أنْسَ أبدا الشهر أو السنة.

لمّا كنتُ قرّرتُ أن ألقى خطبة على المقبرة ، كتبتُ سطورا قليلة فى البيت ، وأطلعتُ عليها چوزيه دياس ، الذى رأى أنها جديرة حقيقةً بالرجل المتوفى وبى. طلب منى الورقة ، وقرأ الخطبة بصوت مرتفع ، بتمهّل ، وهو يزن الكلمات ، وأعاد تأكيد حكمه الأول. نشر الخبر فى أنحاء فلامنجو. وأتى إلىّ عديد من المعارف وسألوا:

« إذن سنسمع منك ؟ ».

« كلمتين ».

كانت الكلمات أكثر قليلا. كنتُ كتبتُها لأننى خشيتُ أن تمنع مشاعرى الارتجال. فى العربة الخفيفة التى تجوّلتُ فيها ساعتين ، لم أقم بشىء سوى تذكُّر أيام المعهد الدينى ، أُلفتى الحميمة مع إسكوبار ، تعاطُفنا ، صداقتنا ، وهى تبدأ ، وهى تتواصل ، فلا يعترضها شىء أبدا ، إلى أن فرّقتْ ضربة قدر إلى الأبد مخلوقيْن كانا تواعدا على البقاء متآلفيْن زمنا طويلا. من حين لآخر كنتُ أمسح دموعى. كان السائق غامَر بسؤالين أو ثلاثة بخصوص حالتى المعنوية ، ولمّا لم يخرج منى بشىء واصل القيام بوظيفته. وعندما عدتُ إلى البيت ، كنتُ وضعتُ تلك المشاعر على الورق ؛ وكانت هذه خطبتى.

١٢٣- عينان مثل مدّ البحر

أخيرا جاءت الساعة التى نستودع فيها الله الروح - والفراق أرادت سانشا أن تودّع زوجها وداعا أخيرا ، وملأنا جميعا يأس تلك المحاولة بالحزن والرثاء. بكى كثير من الرجال ؛ وكل النساء. وحدها كاپيتو ، التى كانت تشدّ من أزر الأرملة ، بدتْ قادرة على ضبط نفسها. وبينما كانت تُواسى الأخرى ، حاولتْ أن تسحبها بعيدا. كان الاضطراب شاملا. وسط كل هذا ، حملقتْ كاپيتو لثوانٍ قليلة فى الجثّة ، حملقتْ بتركيز شديد ، بتركيز مشبوب العاطفة ، فلا عجب أن طفرتْ دموع من عينيها ، دموع قليلة هادئة ...

انقطعتْ دموعى أنا فى الحال. وقفتُ أنظر إلى دموعها؛ مسحتْها على عجَل ، وهى تُلقى نظرة مختلسة على الناس فى الحجرة. ضاعفتْ عناقها لصديقتها ، وحاولتْ أن تأخذها بعيدا ، لكن بدا أن الجثة قيّدتها هى أيضا. كانت هناك لحظة تفرّستْ فيها عينا كاپيتو فى الميّت تماما كما فعلتْ عينا الأرملة ، وإنْ بدون بكائها أو أىّ كلمات مصاحبة ، لكنهما كانتا كبيرتيْن وواسعتيْن مثل موجة تعلو وتهبط فى البحر من ورائها ، وكأنها هى أيضا أرادت أن تبتلع السابح ذلك الصباح.

١٢٤- الخطبة

« هيّا ، جاء الوقت ... » كان ذلك چوزيه دياس يحثّنى على إغلاق التابوت. أغلقناه ، وأمسكتُ أنا بأحد المقابض؛ وعندئذ بدأ الاضطراب الأخير. وأصدُقك القول ، عندما وصلتُ إلى الباب ، ورأيتُ أشعة الشمس الساطعة ، وكلّ الناس والعربات ، والرؤوس العارية ، أحسستُ بواحدة من

نزواتى تلك التى لا تصل أبدا إلى التنفيذ: أن أُلقى بالصندوق ، والجثة ، وكل شىء ، إلى الشارع. فى العربة طلبتُ من چوزيه دياس أن يمسك لسانه. فى الجبّانة كان علىّ أن أكرّر طقس البيت ، وأفكّ الأربطة ، وأساعد فى حمل التابوت إلى القبر. يمكنك أن تتصوّر كم كلّفنى هذا . بعد أن تمّ إنزال الجثة فى القبر ، جىء بالجير والجاروف. لابدّ أنك تعرف كل شىء عن هذا ، لكن ما لا تعرفه ، ولا أحد من أصدقائك يمكنه أن يعرفه ، أيها القارئ ، ولا أىّ شخص سواى أنا ، هو الحالة التى كنتُ فيها عندما رأيتُ كل تلك العيون علىّ ، والأقدام الساكنة ، والآذان المنتبهة ، وبعد انقضاء عدة ثوانٍ من الصمت الكلّىّ ، سمعتُ همسة مبهمة ، وأصواتا مستفسرة ، ولاحظتُ نظرات ، فيما قال شخص ما ، چوزيه دياس ، فى أُذُنى:

« هيا ، تكلّم ».

إنها الخطبة. كانوا ينتظرون الخطبة. كانت من حقّهم؛ كان سبق إعلانها. بطريقة آلية ، وضعتُ يدى فى جيبى ، وأخرجتُ الورقة ، وقرأتُ بتدفّق مجنون – ليس كلها ، ولا بلا تلعثُم ، ولا بوضوح ؛ بدا أن صوتى يدخل بدلا من أن يخرج ، وارتجفتْ يداى. لم يكن الانفعال الجديد وحده هو الذى أدّى إلى ذلك ، بل النصّ ذاته ، وذكريات صديقى ، والحب والحزن المعترف بهما ، وامتداح شخصه وكفاءته ؛ كلّ هذا الذى كنتُ مرغما على قوله ولم أنطق به إلاّ بكل صعوبة. فى الوقت ذاته ، خائفا من أن يخمّنوا الحقيقة ، جاهدتُ لأخفيها. أعتقد أن قليلين سمعونى ، لكن الموقف العام كان موقف الفهم والاستحسان. والأيدى التى مُدَّتْ إلىّ لأصافحها قُدّمتْ بمودّة. قال بعضهم ، « عظيم جدا ! أحسنت ! رائع ! » رأى چوزيه دياس أن فصاحتى جديرة بالاحترام الواجب للراحل. طلب شخص ، بدا أنه مراسل صحفى ، إذنا بنشر المخطوطة. ولابدّ أن تشوّشى الشديد هو الذى جعلنى أرفض مثل هذا المطلب البسيط.

١٢٥- مقارنـــة

اعتبر پريام نفسه أتعس البشر لأنه قبّل يد ذلك الذى ذبح ابنه. هوميروس هو الذى يروى القصة ، وهو مؤلّف جيّد رغم أنه يتكلّم نَظْماً – لكن ذلك سُرُوداً دقيقة نظما ، حتى بالنظم الردىء. قارنْ موقف پريام بموقفى. امتدحتُ لتوّى الرجل الذى تلقّى ، وإنْ كان ميّتا ، تحديق تلكما العينين ... كان من المستحيل لهوميروس ما ألاّ يستخلص مشهدا أكثر تأثيرا بكثير من موقفى ، أو على الأقل مشهدا جيدا بنفس القدر. ولا تقلْ لى أننا نفتقر إلى هوميروسات للسبب المشار إليه عند كامونس. لا ، يا سينور ، نحن نفتقر إليهم ، هذا صحيح ، لكن ذلك لأن الپريامات يُخفون أنفسهم فى خمول الذكر والصمت. ودموعهم ، إذا ذرفوها ، تُمْسَح خلف الأبواب حتى تبدو وجوههم مشرقة ونظيفة. حديثهم من البهجة أكثر منه من الكآبة ، ويمضى كل شىء وكأن أخيل لم يذبح هكتور.

١٢٦- تأمّـــل

على مسافة بسيطة من الجبّانة ، مزّقتُ الخطبة وألقيتُ بقطع الورق من نافذة العربة ، رغم محاولات چوزيه دياس لمنعى.

« ليست جيدة » ، قلتُ له ، « وبينما كان يمكن أن يُغرينى أن أدع شخصا ما ينشرها ، قُضى عليها الآن مرة وإلى الأبد. ليست جيدة ، وهى لا تساوى شيئا ».

أثبت چوزيه دياس بإسهاب شديد أن العكس هو الصحيح. ثم

امتدح الجنازة ، وكخاتمة ألقى مديحا عن المتوفّى: شخصية عظيمة ، عقل نشط ، قلب نزيه ، صديق ، صديق جيد ، جدير بالزوجة المحبّة جدا التى وهبها الرب إياه ...

عند هذه النقطة من الخطبة ، تركتُه يواصل محدثًا نفسه ، و دأت أتأمل. كانت تأملاتى قاتمة ومشوّشة فعجزتُ عن أن أجد طريقى بينها. فى كاتّيته أوقفتُ العربة ، وطلبتُ من چوزيه دياس أن يذهب إلى السيّدتين فى فلامنجو فيأخذهما إلى البيت ؛ وسأواصل سيرا على الأقدام.

« لكن ... »

« أريد القيام بزيارة ».

كان السبب وراء ذلك أن أكمل تأمّلى وأتّخذ قراراً ما سيكون ملائما للحظة. مضتْ العربة أسرع من رِجْلَىّ ؛ الأخيرتان قد تتمهّلان أوْلا ، تُخفّقان الخطو ، تتوقّفان ، تُقفلان راجعتيْن على الطريق ، وتتركان رأسى يتأمّل كما يشاء. سبق أن قارنتُ بادرة سانشا فى المساء السابق بيأسها فى ذلك اليوم ؛ كانا على طرفىْ نقيض. كانت حقا أكثر أرملة إخلاصا. هكذا تلاشى تماما الوهم الذى خلقتُه بغرورى. ألا يمكن أن يكون نفس الشىء فى حالـة كاپيتو ؟ حاولتُ أن أُعيد بناء المشهد: عيناها ، الوضع الذى فاجأتُها فيه ، تجمُّع الناس الذى كان من شأنه بطبيعة الحال أن يُرغمها على الإخفاء إنْ كان هناك ما تُخفيه. ما يظهر هنا فى ترتيب منطقى واستدلالى كان من قبل ضجيجا مختلطا من الأفكـــار والأحاسيس ، نتيجةً لارتجاج العربة ومقاطعات چوزيه دياس. أما الآن ففكّرتُ وتذكّرتُ ، بوضوح وجيّدا . واستنتجتُ فى قرارة نفسى أن نزوتى القديمة لا تزال تُعتم رؤيتى وتُضلّلنى كما كان الحال دائما .

عندما وصلتُ إلى هذا الاستنتاج ، وصلتُ أيضا إلى باب بيتى ، لكننى استدرتُ وعدتُ أدراجى إلى شارع كاتّيته. هل كان ما وراء ذلك

الشكوك التى أقلقتنى أم الحاجة التى أحسستُ بها إلى إقلاق كاپيتو بغيابى الممتدّ ؟ لنقلْ أنه كلا السببيْن. ظللتُ أمشى فترة غير قصيرة ، إلى أن أحسستُ بأننى أهدأ ، وعندئذ انطلقتُ إلى البيت. كانت الساعة فى أحد المخابز تدقّ الثامنة.

١٢٧- الحلاق

بالقرب من بيتى كان هناك حلاّق يعرفنى شكلا. كان يُحبّ العزف على الكمان ، ولم يكن عزفه سيئا كما كان يمكنه أن يكون. عندما مررتُ كان يعزف قطعة أو أخرى. وقفتُ على الرصيف لأستمع (أىّ شىء يصلح كمبرّر لقلب مكروب). رآنى ومضى يعزف. لم يتقدّم لخدمة زبون ، ثم آخر ، كانا أتيا إلى هناك رغم الساعة ورغم كونه يوم الأحد ، ليعهدا بوجهيْهما إلى موسى حلاقته. فقدهما دون أن يفقد نغمة ؛ كان يعزف لى. هذه المجاملة جعلتْنى أذهب بصورة صريحة إلى باب الدكان وأنظر إليه مباشرة داخله. فى الجزء الخلفى ، رُفعتْ الستارة الشّيت التى تفصل الجزء الداخلى من البيت وظهرتْ امرأة سمراء شابة ، بفستان زاهى اللون ، وزهرة فى الرأس. أعتقد أنها كانت لاحظتْنى من الداخل وجاءت تشكرنى بحضورها على الشرف الذى أسبغتُه على زوجها. إذا لم أكن مخطئا ، قالت أيضا مثل ذلك بعينيها. فيما تعلّق بزوجها ، كان يعزف فى تلك اللحظة بحماس أكبر. لمْ يَرَ زوجته ، ولمْ يرَ الزبونيْن. ألصق وجهه بالآلة ، وانتقل روحُه إلى القوس ، وأخذ يعزف ويعزف ...

أيها الفن المقدّس ! كان حشْد يتجمّع. تركتُ باب الدكان وسرتُ نحو البيت. تركتُ نفسى أدخل وصعدتُ السلالم صامتا. لمْ أنسَ مطلقا حادث هذا الحلاق إمّا لأنه كان مرتبطا بلحظة كئيبة فى حياتى ، أو بسبب

هذه الحكمة ، التى يمكن للمؤلّفين أن يقتطفوها ويُدخلوها فى كتبهم الدراسية. والحكمة هى أننا بطيئون فى نسيان الأعمال الجيدة التى نقوم بها ، والواقع أننا لا ننساها أبدا. يا للحلاق المسكين ! فقد لحيتيْن فى تلك الليلة ، وكانتا خُبْز اليوم التالى ، كلّ ذلك لكى يسمعه عابر سبيل.

والآن هَبْ أن عابر السبيل هذا ، بدلا من المضىّ فى سبيله ، بقى عند الباب ليسمعه ويغازل زوجته - عندئذ ، دون شكّ ، كان سيعزف باستماتة ، وكلُّه قوس ، وكلّه كمان. أيها الفن المقدّس !

١٢٨- حفنة أحداث

كما كنتُ أقول ، صعدتُ السلالم صامتا ، ودفعتُ فاتحاً البوابة ، التى كانت موارِبة قليلا ، وفاجأتُ ابنة العم چوستينا وچوزيه دياس يلعبان الورق فى حجرة الجلوس الصغيرة القريبة. نهضتْ كاپيتو من الأريكة وجاءتْ إلىّ. كان وجهها الآن هادئا وصافيا. توقّف الآخران مؤقّتا عن لعبتهما ، وتحادثنا كلّنا عن الحادث والأرملة. لامتْ كاپيتو إسكوبار على تهوّره ، ولم تُخفف الحزن الذى سبّبتْه لها محنة صديقتها. سألتُها لماذا لم تَبْقَ مع صديقتها طول الليل.

« عندها أشخاص كثيرون جدا. مع ذلك ، عرضتُ عليها البقاء ، لكنها رفضتْ. قلتُ لها أيضا أن الأفضل لها أن تأتى إلى هنا وتقضى أياما قليلة معنا ».

« رفضتْ هذا أيضا ؟ »

« هذا أيضا ».

« ومع ذلك فلابدّ أن يكون مشهد البحر مؤلما لها ، كلّ صباح » ، قال چوزيه دياس متفكرًا ، « ولا أدرى كيف ستكون قادرة ... »

« ستمرّ. ما الذى لا يمرّ ؟ » قاطعتْ ابنة العم چوستينا. وعندما بدأنا نتبادل كلمات حول هذه الفكرة ، غادرتْ كاپيتو الحجرة لترى ما إذا كان ابنها نائما. وهى تمرّ بالمرآة ، توقّفتْ لتُسوّى شعرها ، بتمهّل كان من شأنه أن يجعلنى أعتقد أنه تكلّف لو لم أكن أعرف أنها كانت مغرمة بنفسها للغاية. عندما عادت كانت عيناها حمراوين. قالت لنا أنها عندما رأتْ ابنها نائما ، فكّرَتْ فى ابنـة سانشا الصغيرة ، وفى حزن الأرملة. ثم ، دون أن تُبالى بـالزائريْن أو ترى ما إذا كان تصادف وجود خادم قريبا منا ، ألقتْ بذراعيها حولى وقالتْ لى أننى إذا أردتُ التفكير فيها يجب أن أفكر أوّلاً فى حيـاتى أنـا. نطق چوزيه دياس عبارة « جميلة جدا » ، وسأل كاپيتو لماذا لم تكتب الشعر مطلقا. حاولتُ أن أحوّلها إلى دعابة ، وعلى هذا النحو أنهينا الأمسية.

فى اليوم التالى كنتُ آسفا على أننى مزّقتُ خطبتى – ليس لأننى أردتُ نشرها بل لأنها كانت ذكرى من ذكريات الراحل. فكّرتُ فى إعادة تأليفها ، لكن كل ما استطعتُ أن أتذكّره كان عبارات مفككة لم يكن لها معنى عندما جمعتُها. فكّرتُ أيضا فى كتابة خطبة أخرى ، لكن ذلك كان صعبا آنذاك ، وربما كان سيُدرك زيفها أولئك الذين سبق أن سمعوها على القبر. وفيما يتعلق بجمع مِزَق الورق التى ألقيتُ بها إلى الشارع ، كان الأوان فات. لابدّ أنه كان تمّ كنسها فعلا.

أجريتُ جرداً لهدايا إسكوبار: كُتُب ، محبرة برونزية ، عصا برأس من العاج ، طائر ، ألبوم كاپيتو ، منظران طبيعيان من پارانا ، وهدايا أخرى. هو أيضا كان تلقّى بعض الهدايا منّى. كان من عادتنا أن نتبادل التذكارات والهدايا من هذا القبيل فى أعياد الميلاد ، أو بلا سبب محدّد. كلّ هذا جعل عينىّ تُعتمان. ثم جاءتْ جرائد اليوم: قدّمتْ رواية لحادث ولوفـاة إسكوبار ، لتعليمه ولمشاريعه التجارية ، سجاياه الشخصية ،

اهتمام عالم التجارة ، وتكلّمتْ أيضا عن الأموال التى تركها ، وعن زوجته وابنته. كلّ هذا كان يوم الاثنين. يوم الثلاثاء فُتحتْ الوصية : عيّنتْنى منفّذا بديلا ؛ وكان المكان الأول من نصيب زوجته. لم يترك لى أىّ شىء ، لكن الكلمات التى كتبها إلىّ فى رسالة مستقلّة كانت سامية فى تعبيرها عن الصداقة والتقدير. فى هذه المرة بكتْ كابيتو بدمع غزير ، لكنها هدّأتْ نفسها بسرعة.

الوصية ، الجرد ، كلّ شىء جرى بنفس السرعة التى رُوى بها هنا تقريبا. وبعد فترة قصيرة ، انسحبتْ سانشا إلى موطن أقاربها فى بارانا.

١٢٩ - إلى دونا سانشا

دونا سانشا ، أتوسّل إليكِ ألاّ تقرئى هذا الكتاب ؛ أو ، إذا كنتِ قرأتِ لغاية هنا ، اتركى الباقى. ليس عليكِ إلاّ أن تقفليه ؛ بل الأفضل أن تحرقيه ، حتى لا يكون مُغريا لك بأن تفتحيه مرة أخرى. إذا كنتِ ، رغم تحذيرى ، عاقدة العزم على الاستمرار إلى النهاية ، فالخطأ خطؤك ؛ لن أكون مسؤولا عن الألم الذى تُوشكين على تلقّيه. ما أصبتُك به من قبل بوصف بوادر ذلك الأحد البعيد – انتهى كله ، لأن الأحداث ، وأنا معها ، كذّبتْ وهْمى ؛ لكن ما سيأتى الآن لا يمكن محـوه. لا ، يا عزيـزتى ، لا تقرئى أكثر. استمرّى واكبُرى ، بلا زوج ، بلا طفل ، كما أفعل وهذا أيضا أفضل ما يفعل المرء بعد أن يكون الشباب ولّى. وذات يوم سنذهب من هنا إلى بوابة الفردوس حيث نلتقى مرّة أخرى ، متجدّدين كالنباتات الخضراء الجديدة فى الربيع ،

« متجدّدين – كما تُرَدّ الأشجار إلى الحياة من جديد

بورقها الأخضر – مُطهِّرين ».
والبقية ، عن دانتي.

١٣٠- ذات يوم

ذات يوم أرادت كاپيتو أن تعرف ما الذى جعلنى صامتا ومكتئبا إلى ذلك الحدّ. اقترحتْ أوروبا ، ميناس ، پيتروپوليس ، سلسلة من الحفلات الراقصة ، ألفاً من تلك الأدوية التى تُوصف للاكتئاب. لمْ أدْرِ كيف أُجيبها ؛ وتفاديتُ الهجمات الخداعية. لأنها ألحّتْ ، أجبتُ بأن العمل لم يكن يسير سيرا حسنا. ابتسمتْ كاپيتو تشجّعنى. وماذا إن كان كذلك ؟ سيتحسّن ، وإلى أن يحدث هذا ستُباع مجوهراتها ، وأشياؤها التى لها أىّ قيمة ، وكان بوسعنا أن نذهب ونعيش فى أحد الأزقّة. كنّا سنعيش بهدوء ، ناسين ومنسيّين ؛ فى وقت لاحق كنّا سنرتفع إلى السطح من جديد. الحنان الذى قالت به ذلك كان من شأنه أن يُؤثّر فى حجَر. لكننى أنا لم أتأثّر. أجبتُ بجفاف بأنه لا حاجة إلى بيع أىّ شيء. ظللتُ صامتا ومكتئبا. اقترحتْ لعبة ورق أو لعبة داما ، جولة ، زيارة إلى ماتاكافايّوس ؛ ولما كنت غير مستعدّ لأىٍّ منها ، دخلتْ حُجرة النوم ، فتحتْ البيانو ، وبدأتْ تعزف. استفدتُ بغيابها فأخذتُ قبّعتى وانصرفت.

... اعذُرنى ، لكن هذا الفصل كان ينبغى أن يسبقه فصل آخر ، كنتُ سأروى فيه حادثا وقع قبل ذلك بأسابيع قليلة ، بعد سفر سانشا بشهرين. سأكتبه. كان يمكننى أن أضعه قبل هذا الفصل مباشرة قبل إرسال الكتاب إلى صاحب المطبعة ، لكن سيكون أمرا بغيضا للغاية أن أغيّر أرقام الصفحات. فليكنْ هنا مباشرة ؛ وبعد ذلك سيتواصل السرْد كما ينبغى له حتى النهاية. وعلاوة على ذلك ، فهو قصير.

١٣١- وهو سابق للسابق

كانت الحقيقة أن حياتى غدتْ من جديد حلوة ورائقة. كان القانون يدرّ علىّ ما فيه الكفاية تماما. كانت كاپيتو أكثر جمالا. وكان حزقيال يكبر. كنّا ندخل سنة ١٨٧٢.

« هل لاحظتَ أن لحزقيال تعبيرا غريبا فى عينيه ؟ » سألتْ كاپيتو.

«. لمْ أرَ فى حياتى سوى شخصين آخرين بنفس التعبير ، صديق لبابا وإسكوبار المسكين. انظرْ ، يا حزقيال ، انظرْ مباشرة ، هناك ، انظرْ إلى بابا – لا حاجة بك إلى أن تُقلّب عينيك ، هناك ، هناك ... . »

كان ذلك بعد الغداء. كنّا لا نزال نجلس إلى المائدة. كانت كاپيتو تداعب مازحةً ابنها ، أو هو هى ، أو كلّ منهما الآخر ، لأنهما كانا شغوفين ببعضهما للغاية فى الحقيقة – لكنه فى الواقع ، كان شغوفا بى حتى أكثر. اقتربتُ من حزقيال ؛ وجدتُ أن كاپيتو على حقّ. على أىّ حال من المحتمل أنه ليس هناك سوى نصف دزينة من التعبيرات فى العالم ، وتحدث تشابهات كثيرة على نحو طبيعى. لم يفهم حزقيال ، نقل نظره بدهشة مفاجئة منها إلىّ ، وأخيرا قفز وألقى ذراعيه حول عنقى:

« فلنقُمْ بجولة ، بابا ؟ »

« قريبا ، يابنى ».

كانت كاپيتو ، غافلة عنّا نحن الاثنين ، تحملق إلى الجانب الآخر من المائدة. لكن عندما قلتُ لها أنه من ناحية الجمال ، تُشبه عينا حزقيال عينىْ أمه ، ابتسمتْ كاپيتو وهزّتْ رأسها بترفّع لم أجده أبدا فى امرأة أخرى ، ربما لأننى لم أحبّ الأخريات أبدا نصف حبّى لها. والناس

يساوون القيمة التى تخلعها عليهم عاطفتنا ، وإنما من هذا توصّلنا إلى القول المأثور ، « القبيحة حسناء فى عينىْ عاشق ». كان لكاپيتو نصف دزينة من الإيماءات التى كانت فريدة من نوعها على هذه الأرض. ذهبتْ هذه الإيماءة مباشرة إلى قلبى - الأمر الذى يفسّر لماذا سارعتُ إلى زوجتى وحبيبتى ، وغطّيتُ وجهها بالقبلات. لكن الحادث الثانى ليس ضروريا بصفة جوهرية لاستيعاب الفصل السابق ولا الفصول التالية. ولنبـق مع عينى حزقيال.

١٣٢ - الاسكتش واللون

ليس عيناه فقط ، بل باقى ملامحه أيضا ، الوجه ، الجسم ، شخصه بكامله ، كانت كلها تكتسب التحدّد بمضىّ الوقت. كانت أشبه بمسودة اسكتش يعدّه الفنان شيئا فشيئا. تبدأ الصورة تطلّ ناظرةً إليك ، تبتسم ، تنبض بالحياة ، تنطق تقريبا ؛ وأخيرا تعلّق الأسرة الصورة على الحائط إحياءً لذكرى ما كان ولم يعد بوسعه أن يكون. فى هذه الحالة ، أمكنه أن يكون وكان. العادة ساعدتْ على إخفاء التغيير ؛ مع ذلك ، حدث التغيير. لم يحدث على طريقة المسرح ، بل مثل النهار ، الذى يظهر ببطء ، ببطء لا يكاد يمكن معه فى البداية أن يقرأ المرء حرفا ، ثم بعد ذلك ، عجبا ، يمكن أن يُقرأ الحرفُ فى الشارع ، فى البيت ، فى حجرة المكتبة ، دون فتح النوافذ ؛ فالضوء الذى يتسلّل عبْر الستائر المعدنية يكفى لتمييز الكلمات. وأنا قرأتُ الحرف ، بلا يقين فى البداية ، وإنْ لم يكن كلّه ؛ وفى وقت لاحق كنتُ قادرا على أن أميّزه بيقين متزايد. وبصدق ، رفضتُ أن أقرأه ، وحشرتُ الورقة فى جيبى ، وأسرعت إلى البيت ، وأغلقتُ على نفسى فيه ، ورفضتُ أن أفتح ستائر النوافذ ، بل

أغلقتُ عينيّ. عندما فتحتُ عينيّ مرة أخرى ، كان الحرف والكتابة واضحيْن – وكانت الرسالة واضحةً كالبلّور.

خرج إسكوبار من القبر ، من المعهد الدينى ، من فلامنجو : جلس إلى المائدة معى ، رحّب بى على السلّم ، قبّلنى كل صباح فى حُجرة مكتبتى أو طلب البَركة المعهودة فى الليل. كلّ هذا أثار اشمئزازى ؛ تحملتُه حتى لا ينكشف الأمر لنفسى أو للناس. لكن ما كان بوسعى أن أخفيه عن الناس لم يكن بوسعى أن أخفيه عن نفسى – كنتُ أقرب إلى نفسى من أىّ شخص. وعندما لم يكن معى لا الأم ولا الابن ، كان يأسى بالغا ، وكنتُ أقسم أن أقتل الاثنين ، فجأة أو ببطء – ببطء ، حتى أنقل إلى موتهما ، كلّ لحظات حياتى المعذّبة البليدة. عندما كنتُ أعود إلى البيت وأرى الطفل الصغير الأثير إلى نفسى ينتظر على رأس السلّم ، كنت أجد نفسى منزوع السلاح وأُرجىء العقاب من يوم إلى يوم.

لن أسجّل هنا ما جرى بين كابيتو وبينى فى غضون تلك الأيام القاتمة ؛ سيكون سجلّ كهذا مملاّ للغاية. والآن ، بعد الأحداث بكل هذا الوقت الطويل ، لن أكون قادرا على أن أتذكّرها دون حذف أو إملال. لكننى سأروى الشىء الأكثر أهمية. كان الشىء الأكثر أهمية أن العواصف كانت أصبحتْ حينئذ مستمرة ومفزعة. قبل اكتشاف تلك الدنيا الشريرة للحقيقة ، كانت تهبّ علينا عواصف أخرى ، لكنْ قصيرة الأمد – قبل أن يمرّ وقت طويل ، كانت السماء تصفو ، والشمس تشرق ، والبحر يهدأ ، وكنّا نبسط أشرعتنا من جديد ، وكانت تحملنا إلى أجمل جُزُر وسواحل الكون قبل أن تعصف ريح أخرى عاتية بكل شىء ، فكنّا نوقف مراكبنا ، منتظرين سكون الرياح والأمواج من جديد ؛ ولم يكن يتوانى فى المجىء ، ولا كان يغدو مشكوكا فيه ، بل بالأحرى كاملا ، قريبا وشيكا ، وأكيدا.

اغفرْ لى هذه التعبيرات المجازية ؛ إنها تشى بنكهة البحر ومدّ

البحر اللذيْن جلبا الموت لصديقى ، عشيق زوجتى ، إسكوبار. وهى تشى أيضا بعينىْ كاپيتو ، عينان مثل مدّ البحر عندما يكون انحسار الموج قويا. وهكذا ، رغم أنّى كنتُ دائما من سكان البرّ ، أروى هذا الجانب من حياتى كما يتذكّر بحّار عجوز غرق سفينته.

الشىء الوحيد الذى كان ناقصا بيننا فى تلك اللحظة هو الكلمة الأخيرة. لكننا كنّا نقرأها فى عينىْ كلٍّ منا الآخر ، مُدوّيةً وحاسمة. وكلما اقترب حزقيال منّا ، ما كان له إلاّ أن يفرّقنا. اقترحتْ كاپيتو إلحاقه بمدرسة داخلية ، لم يكن ليعود منها إلى البيت إلاّ فى نهايات الأسابيع. وكان من الصعب على الصبى الصغير أن يتقبّل هذا الوضع.

« سأذهب مع بابا ! بابا لابد أن يذهب معى ! » صرخ.

وكنتُ أنا الذى أخذتُه ، صباح يوم اثنين. كانت المدرسة فى ميدان لاپا القديم ، غير بعيد عن البيت. ذهبتُ سيراً على القدمين ، ممسكا به بيدى ؛ نفس اليدين اللتين حملتُ بهما تابوت الآخر. رافقنى الصبى الصغير ، يبكى ويوجّه أسئلة فى كل خطوة ... هل سيعود إلى البيت ؟ ...متى ؟ ... هل سآتى لرؤيته ؟ ...

« سآتى ».

« لن تأتى ، يا بابا ».

« نعم ، سآتى ».

« احلفْ ، يا بابا ! »

« طبعا ».

« بابا ، أنتَ لم تحلف على ذلك ».

« أحلف عليه ».

أوصلتُه إلى هناك وتركتُه. الغياب المؤقت لم يقضِ على الشرّ ، وكانت كل المحاولات البارعة لكاپيتو لتخفيفه بلا نتيجة: كنتُ أزداد سوءًا

باطراد. حزقيال كان لم يعد موجودا بصفة مستمرة ؛ لكن عودته فى نهايات الأسابيع - إما لأننى كنت لم أعد معتادا عليه أو لأن الزمن كان ينجز التشابه ويستكمله - كانت تعنى عودة إسكويار ، فقط أكثر نشاطا وجلبة. بعد فترة قصيرة ، حتى الصوت بدا نفس الصوت. أيام السبت تجنّبتُ أن أتغدّى فى البيت ولم أكن أعود إلى أن يكون نام ؛ لكن لم يكن هناك مهرب منه أيام الأحد فيما كنتُ أنكبّ على الجرائد والعمل القانونى فى حجرة مكتبتى. كان حزقيال يدخل ، صاخبا ، غير متحفّظ ، مبتسما ومليئا بالحب ، ذلك أن الشيطان الصغير ظلّ يزداد عشقا لى. أنا ، على العكس ، كنتُ أشعر آنذاك بنفور ، نفور كنتُ لا أكاد أستطيع أن أخفيه عن كاپيتو والآخرين. ولمّا كنتُ لا أستطيع أن أُخفى حالتى المزاجية تماما ، ظللتُ بعيدا عن طريقه بقدر المستطاع. وكنتُ إمّا أعمل وهذا ما كان يُرغمنى على إغلاق باب حجرة مكتبتى أو أخرج - أيام الأحد - وأتنزّه مع بؤسى السرّى فى أنحاء المدينة وفى مشارفها.

١٣٣ - فكـــرة

ذات يوم - كان يوم جمعة - لم أعد قادرا على التحمُّل. فكرة ما ، وكانت تتّخذ هيئة سوداء داخلى ، بسطتْ جناحيْها وراحتْ ترفرف بهما من جانب إلى آخر ، كعادة الأفكار عندما تريد أن تتحرّر. أعتقد أن حدوث ذلك يوم جمعة كان مصادفة ، لكن ربما كان أيضا تدبيرا. كنتُ تربّيتُ على الفزع من ذلك اليوم. كنتُ سمعتُ أغانى شعبية تُغنّى فى البيت ، أغانى شعبية من المزرعة والبلد القديم الذى كان يوم الجمعة فيه يوما مشؤوما. مع ذلك ، حيث أنه لا وجود لنتائج حائط فى المخّ ، من المحتمل أن الفكرة لم تكن لتصفّق بجناحيْها إلاّ لحاجتها إلى أن تخرج

وتتنفّس هواء الحياة. والحياة جميلة حقا إلى حدّ أن فكرة الموت ذاتها لابدّ أن تُولد قبل أن يكون بإمكانها أن تتحقّق. لابدّ أنك تفهم الآن. والآن اقرأْ فصلا آخر.

١٣٤ - الحفل الليلى للساحرات والسَّحَرة

أخيرا حرّرتْ الفكرة نفسَها من مخّى. كان الوقت ليلا ، ولم أستطع النوم ، رغم كل ما حاولتُ لأنفضها عن نفسى. مع ذلك لم يحدث قط أن مرّتْ ليلة بكل هذه السرعة. بدأ النور ينتشر. وكنتُ أعتقد أن الوقت ليس أكثر من الساعة الواحدة أو الثانية. خرجتُ ، قاصدا أن أترك الفكرة فى البيت ؛ وجاءتْ برفقتى. فى الخارج ، كان لها نفس اللون القاتم ، ونفس الجناحيْن المرتجفيْن ، ومع ذلك طارتْ ، كانت وكأنها مثبّتة ، فحملتُها على شبكيّتى – لا يعنى هذا أنها أخفتْ الأشياء الخارجيّة عنى ، لكنها بدتْ من خلالها أكثر شحوبا من المعتاد ، وهاربة. ولم يَبْقَ شىء.

لا أذكر كثيرا باقى اليوم. أعرف أننى كتبتُ بعض الرسائل ، واشتريتُ مادّة لن أسمّيها حتى لا أوقظ الرغبة فى تجربتها. الصيدلية انهارتْ ، هذا صحيح ؛ المالك صار صاحب بنك – وبنكه يزدهر. عندما وجدتُ نفسى مع الموت فى جيبى أحسستُ كأنّنى فُزتُ لتوّى بالجائزة الكبرى – لا ، فرحة أعظم ؛ ذلك أن جائزة اليانصيب تتبدّد ، أما الموت فلا. ذهبتُ إلى بيت أمى لأقول لها كلمة وداع ، لكن بذريعة القيام بزيارة. وسواء أكان الأمر كذلك حقا أم كان وهْما ، بدا كل شىء هناك أفضل ذلك اليوم: أمى أقلّ حزنا ، الخال كوزمه غافلا عن قلبه ، ابنة العم چوستينا عن لسانها. قضيتُ ساعة فى سلام. بل فكرتُ حتى فى التخلّى عن مشروعى. ماذا كنت أحتاج لأحيا ؟ ألاّ أغادر أبدا ذلك البيت مرة أخرى ، أو أحفر تلك الساعة فى داخلى... .

١٣٥ - عطيل

تغدّيتُ خارج البيت ؛ وذهبتُ إلى المسرح فى المساء. تصادف أنهم كانوا يمثّلون **عطيل** ، ولم أكن رأيتُها أو قرأتُها من قبل. كنتُ فقط على دراية بموضوعها ، فابتهجتُ بالمصادفة. شاهدتُ المغربى يثور بسبب منديل - مجرد منديل ! - وأنا أقدّم هنا مادّة ليدرسها علماء النفس فى هذه القارّة وبقية القارّات ، حيث لم أجد مفراً من ملاحظة أن منديلا كان كافيا لإشعال غيرة عطيل وتدبيج أسمى مأساة فى هذا العالم. لقد انتهى زمن المناديل ؛ واليوم لابدّ للمرء من ملاءات وليس أقل من ذلك ، وأحيانا ليست الملاءات بل القمصان الداخلية وحدها هى التى تهمّ. كانت هذه أفكارا مبهمة ومشوّشة خطرتْ ببالى فيما كان المغربى يدور متشنّجا وفيما كان إياجو يصبّ فريته قطرة قطرة. أثناء الاستراحات بين الفصول لم أترك مقعدى، لم أُردْ أن أخاطر بمقابلة شخص قد أعرفه. أغلب السيدات بقين فى المقصورات ، بينما خرج الرجال ليدخّنوا. عندئذ سألتُ نفسى ما إذا لم تكن واحدة من هؤلاء النساء أحبّتْ شخصا كان يرقد آنذاك هادئا فى القبر ؛ ثم داهمتْنى بعد ذلك أفكار مشوّشة أخرى ، إلى أن رُفع الستار وتواصلتْ المسرحية. بيّن لى الفصل الأخير أن من ينبغى أن يموت ليس أنا ، بل كابيتو. سمعتُ توسّلات ديدمونة ، وكلماتها الطاهرة والمُحبّة ، واحتدام غضب المغربى ، والموت الذى أنزله بها بين التصفيق المسعور للمشاهدين.

« وكانت بريئة ! » ظللتُ أقول هذا لنفسى على طول الطريق فى الشارع. « ماذا كان سيفعل المشاهدون لو أنها كانت مذنبة حقا ، مذنبة

مثل كاپيتو ؟ وأىّ موت كان سينزله بها المغربى عندئذ ؟ لم يكن لوسادة أن تكفى ؛ كان الأمر سيحتاج إلى الدم والنار ، نار حامية هائلة تلتهمها تماما ، وتُحيلها إلى رماد ، الرماد يُلْقَى به فى وجه الريح ، للفناء الأبدى ... »

ظللتُ أهيم على وجهى فى الشوارع بقية الليل. تناولتُ العشاء ، كان مقدارا ضئيلا هذا صحيح ، لكنه كان كافيا لأعيش عليه حتى الصباح. شهدتُ ساعات الليل الأخيرة وساعات النهار الأولى. رأيتُ أواخر المتجوّلين وأوائل الكنّاسين ، أوائل عربات الكارّو ، أوائل أصوات الضوضاء والجلبة ، أوائل خطوط النهار البيضاء ، نهار أتى بعد ذلك الذى فات وسيرانى أرحل بلا عودة أبدا. الشوارع التى طفتُ بها بدتْ تفرّ منى من تلقاء نفسها. أبدا لن أتأمل بعد الآن البحر فيما وراء جلوريا ، ولا سيرّادوس أورْجونس ، ولا حصن سانتا كروز ، والباقى. لم يكن هناك أشخاص كثيرون جدا فى الشارع كما فى أيام الأسبوع الأخرى لكن كان هناك فعلا عدد منهم خرجوا إلى الأعمال التى كانوا سيقومون بها من جديد ؛ لكننى لن أقوم بأىّ شىء من جديد.

وصلتُ البيت ، فتحتُ الباب ببطء ، صعدت على السلّم على أطراف أصابع القدمين ، وأدخلتُ نفسى فى حجرة مكتبتى. كانت الساعة السادسة تقريبا. أخرجتُ السمّ من جيبى ، جلست خالعا الچاكيتّة وكتبتُ رسالة أخرى ، هى الأخيرة ، موجّهة إلى كاپيتو. لم تكن أىّ رسالة من الأخريات لها. أحسستُ بضرورة كتابة كلمة ما تتركها نادمة على موتى. كتبتُ صيغتيْن. أحرقتُ الأولى ، لاعتقادى أنها طويلة ومسهبة أكثر مما ينبغى. لم تتضمّن الثانية إلاّ ما كان ضروريا ، بوضوح وإيجاز. لم تذكّرها بماضينا ، ولا بالكفاحات التى خضناها ، ولا بأىّ فرحة: تكلّمتْ فقط عن إسكوبار وضرورة موتى.

١٣٦ - فنجان القهوة

كانت خطتى هى أن أنتظر قهوتى الصباحية ، فأُذيب العقار فيها وأعبّها عبًا. فى غضون ذلك ، لم أكن نسيتُ تماما تاريخى الرومانى ، تذكّرتُ أن كاتو ، قبل أن يقتل نفسه ، قرأ وأعاد قراءة كتاب لأفلاطون ... لم تكن لدىّ كُتُب لأفلاطون ؛ لكن مجلّدا وحيدا لبلوتارخ يروى حياة ذلك الرومانى الشهير كان كافيا لشَغْل الوقت القليل الباقى. لأحاكيه فى كل النقاط ، تمدّدتُ على الأريكة. على أن ذلك لم يكن بغرض محاكاته فقط ؛ كان علىّ أن أثير فى نفسى نفس الشجاعة ، تماما كما احتاج هو إلى أفكار الفيلسوف ليموت بجسارة. ويتمثّل أحد شرور الجهل فى الحرمان من هذا الدواء فى الساعة الأخيرة. هناك أشخاص كثيرون يقتلون أنفسهم بدونه ، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة بنُبل ؛ لكننى أعتقد أن أشخاصا أكثر سيضعون حدًا لأيامهم فى الحياة إذا أمكنهم أن يجدوا هذا النوع من الكوْكايين المعنوى فى كُتُب جيدة. مع ذلك ، لأننى أردتُ أن أتفادى كلّ ارتياب فى التقليد ، أتذكّر بكل وضوح أننى ، لكى لا يعثروا على كتاب بلوتارخ بجوارى فيُشار إليه فى الجرائد ، إلى جانب لون البنطلون الذى كنت ألبسه فى تلك اللحظة ، خطّطتُ لإعادة الكتاب إلى مكانه قبل أن أشرب السمّ.

أحضر كبير الخدم القهوة. نهضتُ ، ووضعتُ الكتاب فى مكانه ، وذهبتُ إلى المائدة حيث كان فنجان القهوة موضوعا. كانوا بدأوا ينشطون فعلا فى البيت ؛ وآن الأوان لوضع نهاية لنفسى. ارتعشتْ يدى وأنا أفتح الغلاف الورقى للعقار. مع ذلك كنتُ شجاعا بما يكفى لإفراغ المادة فى الفنجان والبداية فى تقليب القهوة ، وعيناى تائهتان ، وخواطرى مركّزة على ديدمونة البريئة. كانت مسرحية المساء السابق تُقحم نفسها فى واقع

ذلك الصباح. لكن صورة إسكوبار الفوتوغرافية منحتْني الشجاعة التي كانت تنقصني: كان هناك ، بيده على ظهر الكرسي ، يحملق في البعيد ... .

« لنضعْ حدًا لهذا » ، فكّرتُ.

وأنا على وشك أن أشرب ، فكّرتُ فيما إذا كان من الأفضل أن أنتظر انصراف كابيتو والصبي إلى القدّاس ؛ سأشربه حينئذ ، سيكون هذا أفضل. بعد البتّ في هذا ، بدأتُ أذهب وأجيء في حجرة المكتبة. سمعتُ صوت حزقيال في الصالة ، راقبتُه وهو يدخل ويجري إليّ ، صائحا ، « بابا ! بابا »

أيها القارئ ، عند هذه النقطة كانت هناك بادرة لن أصفها لأنني نسيتُها تماما ، لكنها ، صدّقْني ، كانت جميلة ومأسوية. من الناحية العملية ، جعلني ظهور الصبي الصغير أتقهقر إلى أن اصطدمتُ بخزانة الكُتُب. ألقى حزقيال ذراعيه حول ركبتيّ ، شبّ على أطراف أصابعه كأنه أراد أن يتسلّق ويعطيني القبلة المعتادة ، وظل يردّد وهو يشدّ نفسه إليّ ، « بابا ! بابا ! »

١٣٧ - دافع ثانٍ

لو لم أنظر إلى حزقيال ، من المحتمل أنني ما كنتُ لأكون هنا أكتب هذا الكتاب ، لأن دافعي الأول كان أن أسرع إلى القهوة فأشربها. وصلتُ إلى حدّ رفع الفنجان ، لكن الصبي الصغير كان يُقبّل يدي ، كما فعل دائما ، وأعطاني مرآه ، وكذلك البادرة ، دافعا مختلفا يؤلمني أن أسجّله ؛ لكن ، أوه ، حسنا ، ليُرْوَ كلّ شيء. دَعْهم يعتبرونني قاتلا سفّاحا إن شاءوا ؛ فأنا لن أكون من يُنكر قولهم أو يعارضهم. كان دافعي الثاني

إجراميًا. انحنيتُ وسألتُ حزقيال ما إذا كان شرب قهوته.

« نعم ، يا بابا ؛ أنا ذاهب إلى القدّاس مع ماما ».

« خُذْ فنجانا آخر ، فقط نصف فنجان ».

« وأنت ، يا بابا ؟ »

« سأقرع الجرس طالبا المزيد. هيّا ، اشربْها ! »

فتح حزقيال فمه. أوصلتُ الفنجان إلى شفتيه ، بارتعاش كدتُ أدلقها معه تقريبا ، لكنْ مستعدًا لأن أصبّها فى حلقه فى حالة أن يثير الطعم أو درجة الحرارة اشمئزازه – ذلك أن القهوة كانت باردة... لكنّى أحسستُ بشىء ما ، لا أعرف ما هو ، جعلنى أتراجع. وضعتُ الفنجان على المنضدة ، ووجدتُ نفسى أقبّل بجنون رأس الطفل.

« بابا ! بابا ! » صرخ حزقيال.

« لا ، لا ، لستُ أباك ! »

١٣٨ - تدَخّل كابيتو

عندما رفعتُ رأسى ، كنتُ أنظر مباشرة إلى كابيتو. ها هو تطوّر آخر مفاجىء يذكّر بالمسرح ، ومع ذلك فهو طبيعى مثل الأول ، نظرا لأن الأم والابن كانا ذاهبين إلى القدّاس ، ولم تخرج كابيتو من البيت أبدا دون أن تتكلّم معى. فى تلك الأيام لم يكن ذلك يتجاوز كلمة باردة سريعة ؛ وعادة لم أكن حتى أنظر إليها. أما هى فكانت دائما تنظر ، وتنتظر برجاء.

وفى هذه المرة ، وأنا أواجهها ، لا أدرى ما إذا كانت عيناى خدعتانى ، لكن كابيتو بدتْ شاحبة. تلا ذلك صمت من تلك الألوان من الصمت التى يمكن اعتبارها ، دون مبالغة ، عمْرًا كاملا. هكذا يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امتداد الوقت خلال الأزمات الكبرى. استعادت كابيتو هدوءها ، وطلبتْ من ابنها أن يخرج ، وطلبتْ منى تفسيرا ...

« ليس هناك شىء أفسّره » ، قلتُ أنا.

« هناك كلّ شىء ينبغى تفسيره. لا أفهم دموعك ، ولا دموع حزقيال. ماذا جرى بينكما ؟ »

« ألم تسمعى ما قلتُه له ؟ »

أجابت كابيتو بأنها سمعت بكاءً وهمهمة أصوات. وأعتقد أنها سمعتْ كل شىء بوضوح ، لكن إقرارها بذلك كان يعنى فقدان الأمل فى الصمت والمصالحة. لهذا ، أنكرتْ السمع واعترفتْ بالرؤية فقط. دون أن أسرد واقعة القهوة ، كرّرتُ الكلمات الواردة فى نهاية الفصل السابق.

« ماذا ؟ » سألتْ ، كأنّها لم تسمع بالضبط.

« أنه ليس ابنى ».

ذهول كابيتو ، واستياؤها اللاحق ، كانا طبيعيّيْن إلى حد أنهما كانا سيُربكان أبرع شهود العيان فى محاكمنا. لقد سمعتُ أن هؤلاء متوفرون بكثرة لكل أنواع القضايا - مسألة أسعار. وأنا لا أصدّق ذلك ، خاصّة لأن الشخص الذى قاله لى كان خسر دعوى منذ وقت قصير. لكنْ ، سواء أكان هناك أم لم يكن شهود للإيجار ، كانت شاهدتى حقيقية. الطبيعة ذاتها اتّخذت موقفها إلى جانبها ، ولم أكن لأفكّر فى الشك فيها. لهذا ، دون أن ألتفت إلى كلمات كابيتو ، وإيماءاتها ، والألم الذى اعتصرها ، أو أىّ شىء ، كرّرتُ الكلمات التى كنتُ نطقتُ بها مرّتين ، بتصميم جعلها تنهار. بعد عدّة لحظات قالت لى:

« هذه الإساءة الظالمة لا يمكن تفسيرها إلاّ بالاقتناع المخلص ؛ ومع ذلك فإنك ، أنت الذى كنت بالغ الغيرة من أدنى بادرة ، لم تُبْدِ أبدا أدنى ظل من الارتياب. ما الذى أدخل فى رأسك هذه الفكرة ؟ قُلْ لى » ،

وواصلتْ ، عندما لم أنطق بردّ ، « قُلْ كل شيء. بعد ما سمعتُ ، يمكن أن أسمع الباقي – لا يمكن أن يكون أكثر. ما الذى أدخل الآن فى رأسك هذا الاقتناع ؟ هيا ، يا بنتينيو ، تكلّم ! اطردنى ، لكن قُلْ لى أوّلاً كل شيء ».

« هناك أشياء بعينها لا يقولها المرء ».

« وهى أشياء لا يقولها المرء نصف قول ؛ لكن مادمتَ قلتَ النصف ، قُلْ الكلّ ».

جلسَتْ على كرسى قُرب المائدة. ربما كانت مرتبكة قليلا ؛ لم تكن جلستها جلسة شخص مُتَّهم. توسّلتُ إليها مرة أخرى ألاّ تلحّ.

« لا ، يا بنتينيو ، إما أن تقول الباقى ، حتى يمكننى أن أدافع عن نفسى – إن كنتَ تعتقد أن هناك أىّ دفاع ممكن بالنسبة لى ، أو أرجو منك إجراء انفصال فورى ؛ لم يعد يمكننى أن أتحمّل ! »

« الانفصال قرار متّخذ سلفا » ، رددتُ بسرعة ، متشبثًا بكلماتها. « كان من الأفضل أن نفترق بأنصاف كلمات أو فى صمت ؛ كان كل منا سينصرف بجرحه هو. مع ذلك ، مادمتِ تُلحّين ، يا سنيورة ، إليك ما يمكننى قوله ، وهو كل شيء ».

لم أقل كل شيء. استطعتُ بالكاد أن ألمّح إلى العلاقة مع إسكوبار دون ذكر اسمه. لم تتمالك كابيتو نفسها عن الضحك ، ضحكة لا يمكننى لسوء الحظ أن أدوّنها. ثم بلهجة نصف تهكمية ، نصف مكتئبة ،

« حتى الرجال الأموات ! حتى الأموات لا ينجون من غيرتك ! »

ثبّتتْ الكاب الصغير على رأسها وقامت واقفة. تنهّدتْ بارتياح ، أعتقد أنها تنهّدت ، بينما نطقتُ ، أنا الذى لم أكن لأفضّل شيئا على تبرئتها تماما ، بكلمات أو بأخرى فى سبيل هذه الغاية. نظرتْ إلىّ كابيتو بازدراء ، وغمغمتْ:

« أعرف السبب وراء هذا : إنه صُدفة الشَّبَه ... مشيئة الرب ينبغى

أن تفسّر كلّ شيء ... أنتَ تضحك ؟ هذا طبيعى ؛ رغم المعهد الدينى ، أنتَ لا تؤمن بالرب ؛ أعتقد ... لكن دعنا لا نتكلم عن هذا. الأفضل ألاّ أقول أكثر ».

١٣٩- الصورة الفوتوغرافية

بكل صدق ، كنتُ على حافة تصديق أننى ضحية وهم كبير ، أوهام هلوسة ؛ لكن الدخول المفاجيء لحزقيال وهو يصرخ ، « ماما ! ماما ! هذا موعد القدّاس ! » أعادنى إلى إحساسٍ بالواقع. تطلّعنا كاپيتو وأنا ، على نحو لا إرادى ، إلى صورة إسكوبار الفوتوغرافية ، ثم إلى كلٍّ منا الآخر. هذه المرة كان ارتباكها اعترافا خالصا. كانا نفس الشخص ؛ لابد أنه كانت هناك صورة فوتوغرافية ما لإسكوبار وهو صبى صغير هى نفسها حزقيالنا الصغير. لكنها ، بشفتيها ، لم تعترف بشيء ؛ وكرّرتْ كلماتها الأخيرة ، وجرّتْ ابنها وراءها ، وانصرفا إلى القدّاس.

١٤٠ - العودة من الكنيسة

أما وقد تركانى بمفردى كان الشيء الطبيعى أن أشرب القهوة. حسنا ، لا ، يا سنيورة ؛ فقدتُ رغبتى فى الموت. كان الموت حلاً واحدا ؛ وكنتُ عثرتُ لتوّى على حل آخر ، أفضل بكثير لأنه لم يكن نهائيًا: فَتْح الباب للتكفير ، عند الضرورة. لم أقل **الصفح** ، بل **التكفير** ، أىْ ، العدالة. مهما كان مبرّر هذا السلوك ، رفضتُ الموت ، وانتظرتُ عودة كاپيتو. تأخّرتْ عودتها أكثر من المعتاد ؛ بدأتُ أخشى أن تكون ذهبتْ إلى بيت أمى ، لكنها لم تفعل.

« شكوتُ كل مرارتى إلى الرب » ، قالت لى كاپيتو عند عودتها من الكنيسة. « سمعتُ فى داخلى الإجابة بأن انفصالنا محتوم ، وأنا تحت تصرّفك ».

عيناها ، وهى تقول هذا ، كانتا ترتديان قناعا ، كأنهما تترقّبان بادرة رفض أو تأجيل. كانت تعتمد على ضعفى أو على عدم يقينى بشأن أُبوّة الصبى ، لكن كل ذلك كان بلا طائل. هل من الممكن أنه كان هناك إنسان جديد فى داخلى ، خلقتْه ضغوط جديدة وقوية ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإنه كان إنسانا مختبئا بالكاد تحت السطح. رددتُ بأننى سأفكر فى الأمر مَليًا ، وبأننا سنفعل كما أقرّر أنا. ولأصدُقك القول ، كان كل شىء تمّ التفكير فيه مَليًا وحُسم.

فى غضون ذلك ، كنتُ تذكرتُ كلمات المرحوم چورچيل فى تلك المرة فى بيته عندما أرانى بورتريه زوجته ، والذى كان يشبه كاپيتو. لابدّ أنك تذكر تلك الكلمات ؛ وإلاّ ، أعدْ قراءة ذلك الفصل. وأنا لا أحدّد رقمه هنا ، لأننى لا أذكر ما هو ، لكنه لا يمكن أن يكون إلى الوراء كثيرا. ويمكن اختصارها فى هذا: هناك هذه التشابُهات غير القابلة للتفسير.... فى وقت لاحق من اليوم ، وفى أيام أخرى ، أتى حزقيال ليرانى فى حجرة المكتبة ، وكانت ملامح الطفل صورة واضحة من ذلك الذى مات ، أو ربما كنتُ أعيرها اهتماما أكثر. مختلطةً شذر مذر ، تدافعتْ إلى خاطرى وقائع قديمة مبهمة – كلمات ، ولقاءات ، وحوادث ، لمْ ترَ غفلتى فيها أىّ سوء وكانت غيرتى القديمة مفتقدة. ذات مرة عندما وجدتُهما منفردَين وصامتَين ، سرّ جعلنى أضحك ، كلمة من كلماتها وهى تحلم ، كل هذه الذكريات انصبّتْ علىّ فى تلك اللحظة باندفاع جعلها تتركنى دائخا.... ولماذا لم أشنقهما فى ذلك اليوم ، عندما أدرتُ عينىّ بعيدا عن الشارع حيث كان عصفوران عاشقان يتسافدان على أسلاك التلغراف ؟ فى

الداخل ، كان عصفوراى أنا يُسافدان الهواء ، بعينيْن مشتبكتيْن فى عينيْن ، لكنْ بحذر بالغ إلى حدّ أنهما فكّا الاشتباك فى الحال ، مع كلمة مرحة وودية لى. حكيتُ لهما حكاية حبّ العصفوريْن فى الخارج ، وكان من رأيهما أنها مسلّية. أعلن إسكوبار أنه كان من الأفضل ، فيما يتعلّق به ، أن يكون العصفوران ، بدلاً من التسافد على أسلاك التلغراف ، موضوعيْن مشويّيْن على مائدة الغداء. « لم آكل أبدا أعشاشها إلى اليوم » ، وواصل كلامه ، « لكن لابد أنها ستكون صالحة ، إذا اخترع الصينيّون الطبق ». ومضينا نتحدث عن الصينيّين ، وعن الكلاسيكيات التى تذكُرهم ، فيما انهمكت كاپيتو ، بعد أن جاهرتْ بأننا أضجرناها ، فى أعمالها. فى تلك اللحظة تذكّرتُ كل هذا ، والذى بدا لا شىء فى حينه.

١٤١ - الحلّ

وإليك ما فعلنا. استجمعنا أنفسنا وسافرنا إلى أوروبا ، ليس من أجل رحلة للمتعة ، ولا لنرى أىّ شىء ، جديد أو قديم. سافرنا مباشرة إلى سويسرا. مربّية أطفال من ريو جرانده ، كانت سافرت معنا ، بقيتْ كوصيفة لكاپيتو ولتعلّم حزقيال لغته الأم ؛ كان سيتعلّم الأشياء الأخرى فى مدارس ذلك البلد. هكذا تكيّفتْ حياتى ، وعُدْتُ إلى البرازيل.

بعد عدّة أشهر ، بدأتْ كاپيتو تكتب إلىّ ؛ كنتُ أرُدّ باختصار وبرود. رسائلها هى كانت مُذعنة ، بلا كراهية ، وربما حتى رقيقة ، وقُرْب النهاية مليئة بالشوق ؛ توسّلتْ إلىّ أن آتى لأراها. أبحرتُ بعد ذلك بسنة ، لكننى لم أذهب لأراها ، وكرّرتُ الرحلة ، بنفس النتيجة. عند عودتى ، سألنى أولئك الذين كانوا يتذكرونها عن الأخبار ، وأعطيتُها لهم وكأننى كنتُ مقيما معها. بطبيعة الحال ، قمتُ بالرحلتين بقصد إعطاء هذا الانطباع بالذات ، هذا الاعتقاد الخادع. وأخيرا ، ذات يوم ...

١٤٢ - قدّيســـة

أنتَ تفهم أنه إذا كان چوزيه دياس لم يسافر معى فى تلك الرحلات إلى أوربا ، لم يكن ذلك لنقص فى الاستعداد من جانبه. كان بقى كوصيف للخال كوزمه ، الذى كان شخصا عاجزا تقريبا ، ولأمى ، التى غدتْ عجوزا فجأة. هو أيضا كان عجوزا ، وإن كان قادرا على التحمُّل. كان يصعد إلى ظهر الباخرة ليودّعنى ، وكانت الكلمات التى يقولها لى ، وتلويحاته بمنديل ، وذات العينيْن اللتين كان يمسحهما ، تصل إلى حدّ يجعلنى أتأثّر بدورى. وفى المرة الأخيرة لم يصعد إلى ظهر الباخرة.

« هيا .... »

« لا أستطيع ».

« هل أنت خائف ؟ »

« لا ؛ لا ، لا أستطيع. سأقول وداعا الآن ، يا بنتينيو. لا أعرف ما إذا ستراني مرة أخرى ؛ أعتقد أننى أوشك على السفر إلى أوروبا الأخرى ، أوروبا الأبدية .... »

لم يسافر فى الحال ؛ كانت أمى هى التى سافرتْ أولاً. ابحثْ فى مقابر سان چوان باپتيستا عن قبر بلا اسم ، لا يميّزه سوى هذا : **قدّيسة**. ها هو هناك.

جعلتُهم يُعدّون لها هذه الكتابة على القبر بعد بعض الصعوبة. كان من رأى النحّات أنها غريبة ؛ استشار المشرف على الجبّانة قسّيس الأبرشية ؛ شرح لى هذا الأخير بأسلوب مُملّ أن القدّيسين يوجدون على مذبح الكنيسة وفى السماء.

« اعذرْنى » ، قاطعتُه ، « لكننى لا أقصد أن أقول أن هذا القبر يضم امرأة ضمن قائمة القديسين. فكرتى هى أن أنقل من خلال هذه الكلمة تعريفا دنيويا لكافة الفضائل التى تحلّتْ بها المرحومة أثناء الحياة. إلى حدّ أننى أرغب ، مادام التواضع واحدة من هذه الفضائل ، فى أن أحتفظ لها به بعد وفاتها ، بعدم كتابة اسمها ».

« مع ذلك ، الاسم ، النَّسَب ، التواريخ ... »

« مَنْ سيهتم بالتواريخ ، أو النَّسَب ، أو حتى الأسماء ، بعد أن أموت أنا ؟ »

« أنت تعنى أنهـا كانت سيـدة فى عـداد القديسـين ، أهـذا مـا تعنى ؟ »

« هـذا بالضبـط. لـو كان الأمين كابـرال على قيد الحياة ، لأيّد ما أقولـه لك ».

« أنا لا أجادل فى حقيقة ذلك ، إنما أتردّد فقط فيما يتعلّق بالصيغة. كنتَ تعرف الأمين إذن ؟ »

« كنتُ أعرفه. كان أباً مثالياً ».

« عالم قانون كنسى ، عالم لغة لاتينية ، تقىّ ورع ، ومحسن » ، واصل القسّيس.

« وكانت له بعض المواهب الاجتماعية » ، قلتُ أنا. « كنتُ عادة أسمعهم يقولون فى البيت أنه كان لاعب طاولة فذًّا .... »

« كانت له طريقة مميزة مع الزَّهْر ! » تنهّد القسيس برقّة. « رمية أستاذ ! »

« هل تعتقد إذن ؟ .... »

« نظرا لأنه لا يُقصد معنى آخر ، ولا يمكن أن يكون أىّ معنى آخر ممكنا ، نعم ، يا سنيور ، هذا جائز .... »

حضر چوزيه دياس هذا النقاش ، باكتئاب بالغ. أخيرا ، عندما ابتعدنا ، تكلّم بقسوة عن القسّيس ، واعتبره مُوسوسا. العذر الوحيد الذى التمسه له كان أنه لم يعرف أمى - لا هو ولا باقى رجال الجبّانة.

« لم يعرفوها. لو عرفوها ، لأصرُّوا على أن يكتبوا **قدّيسة القدّيسات** ».

١٤٣- صيغة التفضيل العليا الأخيرة

لم تكن تلك صيغة التفضيل العليا الأخيرة لچوزيه دياس. كانت له أخريات لن أزعج نفسى بتسجيلها هنا. سأقفز إلى الأخيرة ، أفضلها جميعا ، أحلاها ، واحدة جعلتْ الموت جزءًا من الحياة. كان يعيش فى تلك الفترة معى. رغم أن أمى لم تترك له سوى هبة ضئيلة للذكرى ، قال لى أنه ، بالتركة أو بدونها ، لن يُفارقنى. ربما كان يأمل فى أن يدفننى. كان يتراسل مع كاپيتو. طلب منها أن ترسل إليه صورة لحزقيال ، لكن كاپيتو ظلّتْ تؤجّل إرسالها من بريد إلى بريد إلى أن كفّ عن طلب أىّ شىء ، إلاّ إن كان قَلْبَ الطالب الشاب. طلب منها ألاّ تنسى أن تحكى لحزقيال عن الصديق العجوز لأبيه ، ولجدّه ، والذى « قضتْ عليه السماء بأن يحبّ نفس الدم ». بهذه الطريقة أعدّ نفسه للعناية بالجيل الثالث ، لكن الموت أتى قبل حزقيال. كان المرض سريعا جدا. وكنتُ اعتزمتُ أن أرسل إلى طبيب « هوميوباثى ».

« لا ، يا بنتينيو » ، قال ، « طبيب « ألّوباثى » سيفى بالغرض ؛ يمكن للمرء أن يموت فى أىّ مدرسة فى الطب. فضلا عن ذلك ، كانت تلك أفكار شبابى ، وقضى عليها الزمن. إننى أعود إلى معتقد أجدادى. « الألّوباثيا » هى كاثوليكية الطبّ ».

مات هادئا ، بعد احتضار قصير. قبل ذلك بقليل ، سَمِعنا نقول أن السماء جميلة وطلب منا أن نفتح النافذة.

« لا ، الهواء قد يضرّك ».

« أيّ ضرر ؟ الهواء هو الحياة ».

فتحنا النافذة. في الواقع ، كانت السماء زرقاء وصافية. رفع چوزيه دياس رأسه وحملق إلى الخارج. بعد عدّة لحظات ، سقط إلى الخلف وهو يغمغم ، « الأجمل ! » كانت الكلمة الأخيرة التي تفوّه بها في هذا العالم. چوزيه دياس المسكين ! لماذا ينبغي أن أنكر أنى بكيتُه ؟

١٤٤ - سؤال متأخر

لعلّ كل عيون الأصدقاء الذين سأتركهم في هذا العالم يبكون عليّ كذلك ، الرجال والنساء ؛ لكن هذا ليس من المرجّح. لقد غدوتُ منسيًا. وأنا أعيش مبتعدا عن الناس ، وأخرج نادرا. والواقع أننى لم أصل طرفيّ حياتى ببعضهما. هذا البيت فى إنچنيو نوڤو ، رغم أنه نسخة طبق الأصل من بيت ماتاكاڤايّوس ، لا يفعل أكثر من أن يذكّرنى بالبيت القديم ، وهذا – كنتيجة للمقارنة والتأمل أكثر منه للمشاعر. لكنّى سبق أن قلتُ هذا.

ستسأل لماذا ، ما دمتُ كنتُ أملك البيت القديم ذاته ، في نفس الشارع القديم ، جعلتُهم يهدمونه وأتيتُ لأبنى نسخة طبق الأصل منه هنا. هذا السؤال كان ينبغى أن يُسأل فى البداية ، لكن ها هى الإجابة. السبب هو أننى ، بعد أن ماتت أمى مباشرة ، أردتُ أن أنتقل عائدا إلى هناك ، لكننى قمتُ فى البداية بزيارة تفقّد طويلة دامت عدّة أيام ، فأنكرنى البيت بكامله. خارج البيت – شجرة الأرُويرا الضخمة وشجرة الپيتانجا ، بِركة

البئر ، الدلو القديم ومكان الغسيل - لا شيء عرفني. كانت شجرة الجازوارينا هي نفس الشجرة التي كنتُ تركتُها في الطرف البعيد للعزبة ، لكن الجذع ، بدلا من أن يكون مستقيما كما كان في الأيام الخوالي ، اتّخذ آنذاك هيئة علامة استفهام: من المحتمل أنه فوجيء بالمتطفّل. حدّقتُ حولي ، أفتّش عن فكرة ما كنتُ تركتُها هناك ، ولم أعثر على فكرة. بالعكس ، بدأتْ أوراق وأغصان الشجر تُدندن بشيء ما لم أفهمه في الحال ، لكنّي أعتقد أنه كان أغنية صباحات الشباب. تحت هذه الموسيقى الطنانة والمرحة ، سمعتُ أيضا قُباع الخنازير ، نوع من الجوقة المكثّفة للسخرية الفلسفية.

كان كل شيء غريبا ومُعاديا. جعلتهم يهدمون البيت ، وفيما بعد ، عندما أتيتُ إلى إنچنيو نوڤو ، قرّرتُ بناء النسخة طبق الأصل هذه وفقا للتوجيهات التي أعطيتُها للمهندس المعماري ، وقد رويتُ ذلك من قبل في مكانه الملائم.

١٤٥ - العودة

حسنا ، في هذا البيت بعينه ذات يوم ، فيما كنتُ ألبس لتناول الإفطار ، جيء إليّ بكارت بهذا الاسم:

حزقيال أ. ده سانتياجو

« هل السيد هنا ؟ » سألتُ الخادم.

« نعم ، يا سنيور. هو ينتظر ».

لم أذهب على الفور. تركتُه ينتظر حوالي عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة في حجرة الجلوس. ثم خطر على بالي أنه سيكون من المناسب أن أُبدي قدرا ما من الدهشة والفرح ، فأجري إليه ، أعانقه ،

أتكلّم معه عن أمه. أمه – أعتقد أننى لم أذكر بعد أنها كانت ماتت ودُفنتْ. نعم ماتت ودُفنتْ: وهى ترقد هناك رقدتها الأبدية ، فى البلاد القديمة ، فى سويسرا. لبستُ بقية ملابسى بسرعة. عندما غادرتُ الحجرة ، اتّخذتُ هيئة أبويّة ، شىء ما بين المعتدل والفظّ ، نصف دون كازمورّو. عندما دخلتُ حجرة الجلوس وجدتُ الشاب وظهره إلىّ ، ينظر إلى التمثال النصفى لما سينيساً المحفور فى الحائط. تقدّمتُ بحذر ، دون أن أُصدر صوتا. مع ذلك ، سمع خطوى ودار حول نفسه. عرفنى من صُوَرى ، وأسرع نحوى. لم أحرّك يداً أو قدما ؛ لم يكن أكثر ولا أقلّ من رفيق شبابى القديم فى المعهد الدينى فى سان چوزيه ، أقصر قليلا ، أقلّ وزنا ، وباستثناء بشرته التى كانت ناضرة كان له نفس وجه صديقى. كان يلبس ملابس حديثة ، بطبيعة الحال ، وكانت تصرّفاته مختلفة ، لكن المظهر العام كان نسخة طبق الأصل من ذلك المتوفّى. كان إسكوبار الحقيقى ، بذاته ، بعينه. كان عشيق زوجتى ؛ ابن أبيه. كان يلبس ثياب الحداد على أمه ؛ أنا أيضا كنتُ ألبس الأسود. وجلسنا.

« أنت لا تختلف إطلاقا عن صُوَرك الأخيرة ، يا بابا » ، قال لى.

الصوت كان صوت إسكوبار ؛ واللكنة فرنسية. قلتُ له أننى لم أختلف فى الواقع إلاّ قليلا جدا عما كنتُ من قبل ، وبدأتُ سلسلة من الأسئلة حتى لا أقول إلاّ القليل ، فأسيطر بالتالى على انفعالى. لكن هذا فى حدّ ذاته أفعم وجهه بالحيوية ، وظلّ زميل دراستى فى المعهد الدينى يُبعث حيا من قبره على نحو مطّرد. هنا كان أمامى ، بنفس الضحكة ، وباحترام أكبر ؛ باختصار ، نفس العذوبة ونفس السحر. كان متلهّفا على رؤيتى. كانت أمه تتكلّم معه كثيرا عنى ، فتمتدحنى على نحو استثنائى ، بوصفى أروع إنسان فى العالم ، والأكثر جدارة بالحبّ.

« كانت جميلة فى الموت » ، ختم كلامه.

« دعنا نتناول الإفطار ».

إذا كنتَ تعتقد أن الإفطار كان أكثر مرارة ، فأنتَ مخطىء. كانت له لحظاته المملّة ، هذا صحيح. فى البداية آلمنى أن حزقيال لم يكن ابنى فى الحقيقة ، أنه لم يكمّلنى ولم يستمرّ بى. لو كان الشاب شابه أمه ، لانتهيتُ إلى تصديق كل شىء ، بل بكل سهولة لأنه بدا وكأنه لم يغادرنى إلاّ فى المساء السابق. تذكّر طفولته ، المشاهد والكلمات ، ذهابه إلى المدرسة الداخلية ...

« أما زِلْتَ تذكُر ، يا بابا ، عندما أخذتَنى إلى المدرسة الداخلية ؟ » سأل ضاحكا.

« طبعا ، لماذا لا أذكر ؟ »

« كانت فى ميدان لاپا. كنتُ يائسا ، ولم تتوقّف أنتَ مرة واحدة أبدا ، يا بابا ، وجررتَنى وراءك فى كل خطوة ، وبساقىّ الصغيرتيْن ... نعم ، يا سنيور ، من فضلك ».

مدّ كأسه لأصبّ له النبيذ الذى عرضتُه عليه ، وأخذ رشفة ، واستمرّ يأكل. كان من عادة إسكوبار أن يأكل بتلك الطريقة أيضا ، بوجهه فى طبقه. حكى لى عن حياته فى أوروبا ، دراساته ، خاصّةً تلك التى فى علم الآثار ، الذى كان حُبّه. تكلّم عن العصور القديمة بهيام ، ألقى نظرة سريعة على قصة مصر بالآلاف من عمرها دون أن يتوه فى الأرقام ؛ كانت له موهبة أبيه فى الرياضيات. رغم أن فكرة أبوّة الآخر كانت مألوفة لدىّ ، لم أبتهج بالبعث. أحيانا ، كنتُ أغلق عينىّ حتى لا أرى الإيماءات ، أو أىّ شىء ، لكن الوغد كان يتحدث ويضحك ، وكان الشخص المتوفى يتحدث ويضحك من خلاله.

لأنه لم يكن هناك مفرّ من أن أكون معه ، لعبتُ دور الأب بجدية. فكرة أنه ربما رأى من قبل صورة فوتوغرافية ما لإسكوبار ، ربما كانت

أخذتْها كابيتو معها دون أن تنتبه ، لم تخطر مطلقا على بالى ، أو إن كانت خطرتْ ، لم تَدُمْ. كان حزقيال يؤمن بى كما كان يؤمن بأمه. لو كان چوزيه دياس على قيد الحياة ، لوجده صورة طبق الأصل منى. رغبتْ ابنة العم چوستينا فى أن تراه ، لكنها ، لأنها كانت ضعيفة خائرة القوى ، طلبتْ منى أن آتى به إليها. كنتُ أعرف تلك القريبة. أعتقد أن رغبتها فى رؤية حزقيال كانت بقصد أن تتحقّق فى الشاب من الاسكتش الذى كانت وجدتْه ، ربما ، فى الطفل. كانت ستكون متعة أخيرة ؛ واعترضتُ سبيلها فى الوقت المناسب.

« هى مريضة جدا » ، قلتُ لحزقيال ، عندما طلب أن يراها ؛ « أىّ انفعال من شأنه أن يؤدى إلى موتها. ستراها عندما تتحسّن ».

لم نذهب أبدا. أخذها الموت فى غضون أيام قليلة. وهى تستريح فى حضن الربّ ، أو حيث تشاء أيها القارىء. رأى حزقيال وجهها فى التابوت ولم يتعرّف عليه ، ولا كان يمكنه ذلك ، كان متغيّرا للغاية بفعل السنين والموت. على طول الطريق إلى الجبّانة ، ظلّتْ الأشياء تعود إلى ذاكرتـه – شــارع ، برج ، امتـداد شاطىء ؛ وكان بالـغ السعادة. هذا ما كان يحدث كلما عاد إلى البيت فى نهاية اليوم: كان يحكى لى عن الذكريات التى ظلّتْ تعود إليه ، عن الشوارع والبيوت. كان مندهشا لأن كثيرا منها ما زالت نفس تلك التى كان تركها وراءه ، وكأن البيوت تموت صغيرة.

بعد ستة أشهر ، كلّمنى حزقيال عن رحلة إلى اليونان ، ومصر ، وفلسطين ، رحلة علمية ، وعد مقطوع لبعض الأصدقاء.

« من أىّ الجنسين ؟ » سألتُ بضحكة.

ابتسم ، متضايقا قليلا ، وأجاب بأن النساء هنّ مخلوقات الموضة والوقت الحاضر ، وأنهن لن يفهمن أبدا خرابة عمرها ثلاثون قرنا. كانا

زميلىْ دراسة من الجامعة. وعدتُ بإمداده بالمال اللازم ، وأعطيتُه فى نفس المكان والزمان مقدمًا على المال المطلوب. قلتُ لنفسى أن إحدى النتائج المترتّبة على الحبّ المسروق هى أننى أعطيتُ المال من أجل علم آثار الابن. كان الأجدر بى أن أعطيه الجُذام....عندما التمعتْ هذه الفكرة فى رأسى ، أحسستُ بأننى قاسٍ وشرير إلى حدّ أننى أمسكت بالولد وكنتُ سأضمّه إلى صدرى ، لكنّى تراجعتُ ؛ ثم حملقتُ فى عينيه كما يفعل المرء مع ابن حقيقى. كانت نظرته المستجيبة حانية وممتنّة.

١٤٦ - لا جُذام

لم يكن هناك أىّ جُذام ، لكن هناك حُمّيّات فى كل أنحاء كل بلاد البشَر هذه ، قديمة كانت أم جديدة. بعد ذلك بأحد عشر شهرا ، مات حزقيال بالتيفود ودُفن قُرْب القدس ، حيث شيّد له الصديقان الجامعيان قبرا كتبوا عليه هذا النقش ، المأخوذ من النبى حزقيال ، باليونانية: « كنتَ كاملا فى طُرُقك ». أرسلا إلىّ كلا النصّيْن ، اليونانى واللاتينى ، ورسما تخطيطاً للمقبرة ، وحساباً للنفقات ، وباقى المال الذى كان أخذه معه – كنتُ مستعدًا لدفع ثلاثة أضعافه مقابل ألاّ أراه أبدا بعد ذلك.

لأننى أردتُ أن أتحقّق من النصّ ، راجعتُ الترجمة اللاتينية التى عندى للكتاب المقدّس فوجدتُه صحيحا ، لكن كانت هناك تكملة له: « أنتَ كامل فى طُرُقك ، من يوم خُلقتَ ». توقّفتُ وسألتُ هذا السؤال غير الملفوظ: « متى كان يوم خلق حزقيال ؟ » ولم يُجبنى أحد. ها هو لغز آخر جديد يُضاف إلى ألغاز هذا العالم الكثيرة. ورغم كل شىء ، أكلتُ غداءً جيدا وذهبتُ إلى المسرح.

١٤٧ - المعرض الشامل «رتروسبكتيف» *

سبق لك أن عرفت أن روحى ، وإن كان معذّبا ، لم يبقَ فى زاوية كزهرة منزوية شاحبة. لم أسمح له بذلك اللون ، أو الافتقار إلى اللون. عشتُ أفضل ما كان بوسعى ، وليس بلا رُفقة نساء يُعزّيننى عن المرأة الأولى. نزوات قصيرة الأمد ، هذا صحيح. هنّ اللائى كُنّ يتركننى ، مثل الأشخاص الذين يذهبون إلى معرض استعادى فإما يتعبون من النظر ، أو يخبو الضوء فى المعرض. واحدة فقط من هؤلاء الزائرات كانت تملك عربة تنتظر على الباب وحوذيّا يلبس زيّا خاصا. الأخريات كُنّ يذهبن بتواضع سيراً على الأقدام ، وإذا كانت السماء تمطر ، كنتُ أنا الذى أبحث عن عربة خفيفة وأساعدهن على ركوبها ، بتوديعات مسرفة وتوصيات أكثر إسرافا:

« هل عندك الكاتالوج ؟ »

« نعم. عندى ؛ إلى الغد ».

« إلى الغد ».

لم يَعُدْن أبدا. كنتُ أقف على الباب ، كنتُ أذهب إلى الناصية ، أنظر هنا وهناك ، أراجع ساعتى ، ولا أرى شيئا ، لا أحد. ثم ، إذا ظهرتْ زائرة أخرى ، كنتُ أُعطيها ذراعى ، وندخل ، وأُريها المناظر الطبيعية ، الرسومات التاريخية ، رسومات الحياة اليومية ، لوناً مائيّا ، باستيل ، جواش ، وكانت بدورها يصيبها التعب ، فتنصرف والكاتالوج فى يدها .... .

---

* رتروسبكتيف . معرض شامل لأعمال فنان أو مدرسة أو حقبة – المترجم

١٤٨ - حسنا، والبقية ؟

والآن لماذا لم تجعلنى أىّ واحدة من سيدات نزوتى هؤلاء أنسى حُبّ قلبى الأول ؟- ربما لأن أىّ واحدة لم تملك عينيها اللتين مثل مدّ البحر ، أو عينىْ غجرية خبيثة ، منحرفة. لكن هذا ، إن شئنا الدقة ، ليس بقية الكتاب. ما يبقى هو اكتشاف ما إذا كانت كاپيتو جلوريا موجودة من قبل داخل كاپيتو ماتاكاڤايّوس ، أم تحولّتْ هذه الكاپيتو إلى الأخرى كنتيجة لحادث ما عرضىّ. لو علم يشوع بن سيراخ* ، بنوبات غيرتى الأولى ، لقال لى ، كما فى أصحاحه ٩ ، الآية ١: « لا تكن غيورا على امرأتك حتى لا تشرع فى خداعك بالمكر الذى تعلّمتْه منك ». لكنى لا أعتقد أن الأمر كان كذلك ، وستُوافقنى أنت. إن كنتَ تذكر كاپيتو الطفلة ، سيكون عليك أن تقرّ بأن الواحدة كانت داخل الأخرى ، مثل الثمرة داخل قشرتها.

حسنا ، مهما كان الحلّ ، يبقى شىء واحد هو خلاصة الخلاصات ، وبقية البقية: إدراك أن حبّى الأول وصديقى الأعظم ، وكلاهما يحباننى إلى ذلك الحدّ ، وكلاهما محبوبان إلى ذلك الحدّ ، كان مقدّرا عليهما أن يتحالفا ويخدعانى .... عسى أن يرقد الثرى الذى أُهيل عليهما خفيفا عليهما ! فلننتقلْ إلى **تاريخ الضواحى**.

---

* يشوع بن إليازار بن سيراخ صاحب كتاب Ecclestiacus (أو: حكمة يسوع بن سيراخ) الذى ألفه فى أورشليم بالعبرية حوالى ٢٠٠-١٨٠ ق.م ، والذى يعتبره أغلب البروتستانت منتحلا بينما يعترف به الروم الكاثوليك وتراث الكنيسة الارثوذكسية الشرقية - المترجم.



دون كازمورّو

بقلم خليل كلفت

بعد بداية أحداث الرواية بقرابة أربعين سنة يعود بطل وبالأحرى لا بطل الرواية إلى تلك الأحداث ليحكى ، نافخا الحياة فى « الأيام الخوالى » ، قصة تحوُّله من الصبى العاشق : پنتو إلى الكهل المعتزل ، المنسحب ، المنزوى : دون كازمورّو. هى رواية تراچيكوميدية ... التراچيدى هو هذا التحول ذاته ، هذا الموت فى الحياة ، هذا الموت المعنوى الذى هو فجيعة أكبر من الموت البيولوچى الذى هو رحمة وخلاص فى عين عاشق للحياة تحالف ضدّه الحب فى شخص محبوبته والصداقة فى شخص أعزّ أصدقائه. كان قد انتصر من قبل على تحالف أكثر رسوخا ، بين سلطة الأسرة وسلطة أيديولوچيا الدين ، أراد أن يفرض على الصبى العاشق طريقا فى الحياة بعيدا عن الحياة كما يفهمها عاشق بسيط للحياة لا دور له فيها أبعد من أن يعيشها كما أحبها. لكن التحالف الجديد ضده ، الهشّ هشاشة أبطاله ، لكن القوى كقدر إغريقى ، لأنه تحالف بين حليفيْه السابقيْن ضد التحالف القديم ، لأنه تحالف « قدرى » بين حبيبيْه لكونهما حبيبيْه ، كان أقوى منه و كان لابد له أن ينتصر ، أن يحوّل پنتو إلى كازمورّو أو دون كازمورّو ، وعاشق الحياة إلى الحى الميت رغم أن المنتصريْن سبقاه كلاهما إلى العالم الآخر ... الكوميدى بدوره هناك ... هناك سخرية ما شادو ... فأنت تقرأ ملهاة تستدرجك شيئا فشيئا إلى أن تجد نفسك فى قلب المأساة. وعندما تصل إلى هناك لا تكتفى الملهاة بحقيقة أن خديعتها انطلت عليك وأدت دورها بل تظل معك طوال الرحلة ، وربما حتى النهاية. ورغم أن المأساة ستبقى فى صميم قلبك ،

ستضحك من كل قلبك. لكن هناك أيضا التجديد والإحياء والاستباق ... هذه الرواية الصادرة فى ١٩٠٠ أى منذ قرابة قرن نقرأها الآن فتصدمنا بجدّتها ، بحداثتها ، بعصريتها ، كشكل لرواية ... هى رواية ذكرى استباقا لبروست الذى ظهرت روايته الضخمة : البحث عن الزمن الضائع بين ١٩١٣ و ١٩٢٧ ... وهى رواية ساخرة ، مقسمة إلى فصول قصيرة للغاية ، ومن خلال حديث متصل مع القارىء. ومن هنا يقارنها نقادٌ مع رواية : حياة و آراء تريسترام شاندى (١٧٥٩ – ١٧٦٧) للكاتب الإنجليزى لورنس ستيران (١٧١٣ – ١٧٦٨) فهى إحياء لكن تجديد لشكل روائى من القرن الثامن عشر ... وأخيرا : هل لهذا التغريب الماثل فى صميم الشكل الروائى والمتعدد الوسائل والأساليب و (الحيل) علاقة بالتغريب أو التبعيد البرشتى فى زمن لاحق ؟ ... ويرى والدْو فرانك (فى مقدمته الطبعة الأنجليزية لرواية دون كازمورّو) أن كلا من بروست وماشادو غنّى ترنيمة لإبهام الحياة : الأول فى رواية ضخمة والآخر فى أخرى قصيرة. ولهذا السبب بالذات يتوقع أن يقرأ الناس دون كازمورّو زمنا أطول ... وهو يشبِّه هذا بتفوق إيجاز حوليات وتاريخ تاكيتوس (٥٥ – ١٢٠م) على إسهاب مذكرات الدوق سان سيمون (وهى مذكرات عظيمة وضخمة تغطى فترة ١٦٩٤ – ١٧٢٣ فى فرنسا لكنها لن تجد اليوم من يقرأ حتى مقتطفات منها كما يقول). فهل لنا أن نأمل أن تحتل شخصية أدبية تحمل اسم دون كازمورّو المكان الذى يليق بها فى لغتنا إلى جانب شخصيات أدبية لامعة تحمل نفس اللقب : دون چوان ، دون كيخوته !

المترجم

سلسلة القصة العالمية

١ **السراية الخضراء**

للكاتب البرازيلى ماشادو ده أسيس ترجمة خليل كلفت

٢ **الشوارع العارية**

للكاتب الايطالى ڤاسكو پراتولينى ترجمة ادوار الخراط

٣ **شتاء فى يوليو**

للكاتبة البريطانية دوريس ليسنج ترجمة عنان على الشهاوى

٤ **دون كازمورّو**

للكاتب البرازيلى ماشادو ده أسيس ترجمة خليل كلفت

الكتب القادمة

٥ **مجنون السرقة و قصص أخرى**

للكاتب المجرى ديسزو كوستولانى ترجمة محمد سيف

٦ **الداء الأسود**

للكاتبة الروسية نينا بربروڤا ترجمة أحمد على بدوى


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)







مرة ثانية نُقدّم رواية لماشادو ده أسيس الذى ظلّ شبه مجهول فى عالمنا العربى رغم مكانته العالية فى الأدب البرازيلى الحديث وآداب اللغة البرتغالية الحديثة بوجه عام ، ورغم أهميته التى لا جدال فيها كروائى عالمى .

قصة تحول صبى عاشق للحياة انتصر على تحالف سلطة الاسرة وسلطة ايديولوجيا الدين ليواجه تحالفاً جديداً ضده بين الحب فى شخص محبوبته والصداقة فى شخص أعز أصدقائه. هذا التحالف بين حبيبيه كان أقوى منه وكان لابد أن ينتصر فيتحول بنتو الصبى العاشق إلى دوم كازمورو الكهل المعتزل.

دوم كازمورو رواية تراجيكوميدية ، وهى رواية ساخرة .. فأنت تقرأ ملهاة تستدرجك شيئاً فشيئاً إلى أن تجد نفسك فى قلب المأساة . ورغم أن المأساة ستبقى فى صميم قلبك ، ستضحك من كل قلبك ..

سلسلة القصة العالمية
تصدر عن دار الياس العصرية

الكتاب القادم
مجنون السرقة و قصص أخرى
للكاتب المجرى ديسزو كوستولانى
ترجمة محمد سيف